

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

مكتبة
الأسرة
1999

الأبواب المغلقة

أمين يوسف غراب



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الأبواب المغلقة

الأبواب المغلقة

أمين يوسف خراب



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

الأبواب المغلقة

أمين يوسف غراب

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفيه

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وما هي تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الاهـداو

إلى «ع» وهى عين

أمين يوسف غراب

تحية

إلى أولئك الذين لم يجدوا على مائدة الحياة سوى طبق واحد فغمسوا فيه لقمة العيش . . .

فتلوث الطبق . وتلوثت اللقمة ، وتلوث أيضاً الفم الذى مضغها .

إلى أولئك جميعاً ، وأعنى بهم الذين كانت حياتهم فى هذه الدنيا قدراً مقدوراً ، أبعث بتحيتى و . . تعزيتى .

أمين يوسف غراب

تخرجت في كلية الحقوق . وملت إجازة الدكتوراه في القانون . وكان موضوع الرسالة التي تقدمت بها « الإنسان والدوافع النفسية للجريمة » ولم أشتعر في دراسي أى ضيق أو تعب ، برغم ضخامة الجهد الذى أقوم به . بل العكس ، كنت أجد لذة لا تكاد تعلقها لذة أخرى . فقد كنت منذ الصغر أحب دراسة القانون . ويحاولى تعمق مواده ، ودراستها . وفهم أحاسيس المشرع عندما يتعمق الجريمة ويحدد نوعها ويدرس نفسية المجرم . ولماذا مثلاً تختلف عقوبة القتل العمد الذى يسبقه الترصد عن القتل المفاجئ في معركة مثلاً ، أو في اللود عن عرض ، مع أن نية القتل لحظة ارتكاب الجريمة واحدة : هذه حزم أكيد على القتل ، وتلك أيضاً حزم مؤكد على القتل ، حتى وأنا طفل كان يحاول أن أفكر في ذلك ، إذا رأيت الصبية الذين ألعب معهم في الشارع يتشاجرون بعضهم مع بعض ، أو أتشاجر أنا مع واحد منهم ، وكثيراً ما كنت أسأل نفسي : لو كنت أنا مكان هذا الصبي الذى ضربني وأسأل دمائى ، فهل كنت فعلت ما فعلت وهل من أجل هذا السبب التافه ، إننى مثلاً أخذت الكرة منه وقذفت بها بعيداً ، أستحق أن أضرب بهذه القسوة حتى تسيل دمائى ؟

هكذا كثيراً ما كنت أسأل نفسي مثل هذا السؤال ، وكثيراً ما كان يبحثنى الجواب : لا ، إذن لماذا فعل هذا الطفل ما فعل ؟ ولماذا ضربني بهذه الوحشية حتى أسأل دماغى ؟ وسريعاً ما كان يبحثنى الجواب شافياً . إما أن أمه مثلاً على خلاف مع أمى ، أو أنه مثلاً ابن الحوذى ، أو ابن البواب ، وهو فقير ومعوز ورث الثياب ، وأنا ابن باشا وثرى ، وثيابى نظيفة ، وأرتدى فاخرها دائماً ، إذن هناك دوافع نفسية للجريمة ، غير الدوافع المادية التى ترتكب من أجلها .

ولعل تفكيرى فى ذلك وأنا بعد طفل ، ظل يلازمى فيما بعد ، وهو الذى جعلنى أقدم برسالة فى نفس الموضوع « الإنسان والدوافع النفسية للجريمة » .

ولما تخرجت ، استطعت بفضل مؤهل ، وأسرقى ، أن أحصل على وظيفة كبيرة ، فقد كانت الوظائف إذ ذاك ، وفقاً على أبناء الأسر الكبيرة ، وليست على أصحاب المؤهل فقط . وكنت من حسن الحظ أنتمى إلى أسرة كبيرة فعلاً ، فقد كانت أى ترقية الأصل ، وكان جدها لأبيها من الذين حكموا مصر فترة من الزمن . وكان أبى برغم أنه نشأ فى أسرة فقيرة فى الريف ، وكان يعمل فى صدر شبابه فاضراً للزراعة فى أحد التفتيش التى كان يملكها جدى لأمى . إلا أنه استطاع بفضل ذكائه وألمعته ومهارته الفائقة فى تعرف نفسيات البشر أن يشق طريقه سريعاً . ويصبح من أثرياء أهل الريف ويتزوج من أمى ، التى كان زواجه منها

فأتمه خير كثير له بعد ذلك ، وأن يظفر برتبة الباشوية وأن يصبح عضواً
في البرلمان . ٢٤

ولذلك عندما تخرجت ، وعينت في سلك النيابة العامة ، نُظر إلى
بعين الاعتبار ، ولا عرف عني ميل إلى تعمق البحث في أصل الجرائم وحب
المعرفة في بواعثها وأسباب ارتكابها ، كان يحال إلى بعض الجرائم الهامة
التي ترتكب ، وحدث أن وقعت في ذلك الحين بعض الجرائم الكبرى ،
السياسية وغير السياسية ، التي هزت البلاد في ذلك الحين ، وكان الوصول
إلى معرفة مرتكبها أمراً عسيراً جداً ، ولكن بشيء من الصبر ، والحظ ،
استطعت أن أمسك منها بأول الخيط ، وما دامت أصابعك قوية ،
وأناملك حساسة ، فلن يفلت منها الخيط أبداً ، وبذلك استطعنا أن نمسك
بالخناقة ، وأن نحمد تلك النار التي كاد لهبها يستعر في ذلك الوقت ، وقد
أفادني هذا كثيراً . ووطد مركزي إلى حد كبير ، وفرح له أبني ، فليس
أحب إلى الأب من أن يرى ابنه ناجحاً .

وظلت كذلك إلى أن حدث ذات يوم ، أن وقعت جريمة قتل
غامضة في حي المنيرة ، إذ وجدت سيدة ثرية في الأربعين من عمرها
قتيلة في منزلها . وقد حدثت الجريمة في منتصف الليل ، في غرفة الصالون
في البيت ، إذ أطلق عليها الحاني ثلاث رصاصات على مسافة عشرة
ستيمترات ومن مسدس براوننج عيار (٧) فهتكت الرصاصات الثلاث
فرقة الرأس وحطمت الجمجمة ونقلت إلى المنع وحدثت الوفاة في الحال .

كما جاء في تقرير الطبيب الشرعى .

وقد كان للحادث أثره السيئ في النفوس . فقد وقع في إحدى العمارات الكبيرة الآهلة بالسكان وذهبت ضحيته سيدة متقدمة في السن وقورة اشتهرت بالسمعة الحسنة ، والخلق الطيب وعمل الخير ، ولذلك اتجه تفكيرى في الحال إلى أن الجريمة ارتكبت بسبب السرقة ، وسبب ذلك أن المحنى عليها ثرية ، وتملك مالا وفيراً ، تحفظ بأكثره عندها في البيت كما تملك الكثير من الحلوى الثمينة من اللباس والذهب وبعض التحف الغالية ، غير أنه ثبت من المعاينة وفحص محتويات البيت فحصاً دقيقاً ، أن شيئاً من هذا كله لم يمس ، حتى كيس نقودها الصغير وجد بجانبها فوق المقعد الذى كانت تجلس إليه وقت ارتكاب الحادث . ووجد كما هو لم يمس ، برغم أنه كان بداخله ما يزيد على الخمسين جنيهاً ، وبذلك انتفتت الفكرة التى كانت تخامرني في أول الأمر . وهى أن الجريمة قد ارتكبت من أجل السرقة . وبدا الموقف يزداد غموضاً ، والظلام يحيم حلكته فوق هذه الجريمة الغامضة ، ولا سيما بعد أن انقطع ذلك الخيط الرفيع الذى كنت قد بدأت أمسك أحد طرفيه ، وهو الخادم التى كانت تعمل في خدمة المحنى عليها ، والوحيدة التى كانت تقيم معها في البيت ، والتي مرضت قبل الحادث بأيام ونقلت إلى المستشفى ، ولما ذهبت إلى سؤلها هناك اتضح أنها في حالة إغماء شديد . فأرجأت سؤالها .

وفي اليوم التالى وردت إشارة من المستشفى تفيد بأنها قد فارقت



الحياة ، إثر أزمة قلبية كانت تنتابها من حين إلى حين ، ولما انقطع هذا الخيط هكذا سريعاً ، وكنت أعتبره البصيص من النور الذى ستهتدى به لتبديد هذه الظلمة التى تكتنف الحادث . بدأت أمسك بحيطين جديدين تكشف عنهما التحقيق . فقد ثبت من أقوال بواب العمارة التى كانت تقطنها القتيلة ، وأقوال الذين كانوا يجاورونها فى السكن ، وبائعى اللبن والخبز ، أنه كان يتردد على المحبى عليها فتاة فى السابعة والعشرين من عمرها جميلة بجمالاً ملحوظاً ، ذات شعر أسود داكن وعيون زرقاء واسعة ، طويلة فارعة الطول . وكانت تلفت النظر بأناقها ، وكانت — أى القتيلة — تحب هذه الفتاة حباً جنونياً ، وتكاد تلازمها دائماً ، أما اسم الفتاة ، أو أين تقيم أو تعمل ، فلم يعرفه أحد ولم يمكن الاهتداء إليه ، أما الثانى فهو ريفى كهمل فى الستين من عمره ، وكان يتردد عليها قليلاً جداً ، كل عدة شهور تقريباً ، عندما يأتى إليها ببيع الضيعة التى تملكها المحبى عليها فى الريف . والذى يتولى هو بالنيابة عنها الإشراف على شئونها .

وبعد هذه المعلومات الجديدة ، بدأ تفكيرى يتجه انجهاً آخر ، وهو أن الجريمة وقعت فعلاً بسبب المال أو الميراث ، وأن لهذا الرجل دخلاً فى الأمر من غير شك ، ولذلك لم أشأ أن أقبض عليه أو أستدعيه للسؤال ، حتى لا يرتب أجوبته سلفاً ، أو يجد فرصة لنسج خيوط الأضاليل ، كما يحدث فى مثل هذه الحال . وانتقلت إلى ضيعة القتيلة فى الريف ، وسقطت فجأة على الرجل ، وعلى حسابات الضيعة ، وعلى بعض الذين على صلة

بالرجل من أقاربه أو أصدقائه . وقد ساعدنى فى ذلك أبى وسنطوته الكبيرة فى الريف ، ومجاورة مزارعه لضيقة القتيلة . وقد بذلت فى هذا جهداً كبيراً ، حتى لائى مكثت ثلاثة أيام ، وثلاث ليال لم أنم ، ولم أبدل ملابسى . فقد كنت أواصل التحقيق فى الليل والنهار . ومع ذلك لم أظفر بباطل ، ولم أؤخيطاً واحداً أمسك به ، برغم مئات الصفحات التى استغرقها فى التحقيق . أو شيئاً يبعث حتى مجرد الشك ، فقد كانت الأمور جميعاً تسير سيراً حسناً ، فى الضيقة وفى حساباتها ، وليس من وريث للقتيلة من قريب أو بعيد . حتى يرتكب مثل هذه الجريمة البشعة . حتى عم دسوق الذى ظننته فى أول الأمر له دخل فى الموضوع ، حتى هذا الرجل الريفى الكهل ، اتضح أنه برىء ، وأنه غير ما كنت أظن ، فقد وجده رجلاً محطماً ، زاده الحادث تحطيماً ، وكادت عيناه تفيضان حزناً على القتيلة ، وقد ثبت من التحقيق أنه يحمل قلباً طيباً فعلاً ، وضميراً يقظاً ، فقد اعترف الرجل بمبلغ كبير من المال كان فى ذمته للفقيدة ، ولم يثبت هذا المبلغ فى الدفاتر . ولم يعرف به أحد فى الوجود غير القتيلة نفسها . وكان يمكنه لإغفاله لو أنه أراد أن يغفل حساب ضميره . وكان هذا الرجل فعلاً يحمل نفساً رقيقة تفيض بالخير والحنان وحب الناس جميعاً . وكنت ألاحظ ذلك من اهتمامه بأمرى بالذات وعطفه على ، وتأله من الجهد الذى أبدله ، وكان يقدم لى من الحين إلى الحين بعض الطعام بيده ، ويرجئنى من حين إلى آخر أن أريح نفسى قليلاً ، ولما

انتهى التحقيق ولم يسفر عن نتيجة ، تقدم الرجل منى وراح يسدى إلى بعض النصيح ، وأمرها أن لا أتعب نفسى أو أرهقها ، ولما قلت له إنه الواجب هو الذى يملى علينا هذا ، قال الرجل بلهجته الريفية التى ما زال جرسها يرن فى أذنى إلى اليوم وهو ينظر إلى ويديم النظر :
— أحياناً فى هذا الزمن يكون غير الواجب هو الواجب .

فاندهشت لهذا القول وسألته : ماذا يقصد ؟

فقال وصوته يهتق ، والدموع تملأ عينه :

— أقصد أن الست زينب عبد العال رحمها الله ، التى عاشت حياتها للخبر والصلاة ، والحج إلى بيت رسول الله ، تموت قتيلة ، والقاتل يعيش طليقاً يرحل فى دنياه . .

فتأثرت فعلاً بهذا القول ، وتركته وانصرفت ، ولم ينس الرجل الطيب وهو يودعنى أن يشد على يدى مصافحاً ، وهو يحملنى التحية إلى أبى ، ولما سأله هل يعرفه .: قال فى ابتهاج والفخر ملء لهابه :

— وهل فى المديرية جميعها من لم يعرف سعادة الباشا الوالد ؟

وتركته وانصرفت ، وفى قلب السيارة راحت أناملى تعبت فى دوسيه القضية ورحت أتصفح بعض أوراق التحقيق فإذا بها جميعها سوداء ليس فيها حتى منقذ واحد يستطيع أن يهدينى إلى شىء ، فشعرت بكثير من الضيق وأحسست لأول مرة فى حياتى بمرارة الإخفاق ، وتذكرت تلك الجملة التى أكرهها كرهاً شديداً والتى أنحيتها أمامى فوق دوسيات بعض

القضايا أشبه بحفنة من الثعابين الكبيرة السوداء تكاد تغرس أنيابها في مشاعري وفي أحاسيسي ، بل في كياني كله وهي « يحفظ التحقيق ، وتقيد الحناية ضد مجهول » ، وعز علي كثيراً أن أضطر في النهاية إلى كتابة هذه الحملة التقليدية ، التي يضطر إليها دائماً المحقق العاجز ، وانتابني ضيق شديد حتى إنني لما عدت إلى بيني في القاهرة لم أتم وظللت قلقاً برغم الإرهاق الشديد الذي كنت أحس به ، وقد لاحظت أبي ذلك ، وكان يعرف حرصي الشديد على قضاياى . . . ومتاعبي في سبيل تبديد الظلمات التي تكتنف بعضها . وما هي الآلام التي أعيش فيها كلما غم عليّ ، وأحسست بعجزى عن الوصول إلى نتيجة ، ولذلك راح يهون عليّ ، وجلس معي ما يزيد علي الساعتين ، نقلب الأمر ونستعرض ظروفه معاً ، ونفرب أجاساً في أسداس كما يقولون . وكلما لاحت لي بارقة أمل ، كان النور يتألق في عيني كل منا ، إلا أن هذا النور وأسفاه كان يعود سريعاً فيتلاشى ، كلما استعرضنا ظروف الحادث مرة أخرى ، أو استرجعت أقوال من سمعت أقوالهم ، وظللنا كذلك حتى ضاق أبي ذرعاً هو الآخر ، فتركني وانصرف لينام ، وهو يقول لي بعد أن أشفق علي ورثي للحالي :

— إذا مات الفارس يوماً ، فليس من الحتم أن ينفق الجواد .

• • •

وظل الحال كذلك عدة أيام ، كدت خلالها لا أفكر في هذه القضية التي قل اهتمامي بها فعلاً ، وكدت أنساها ، وشغلتنى عنها شواغل

أخرى كثيرة . ولولا بعض الإجراءات التقليدية التي كانت باقية على استيفاء التحقيق فيها من ناحية الشكل ، لمددت يدي وذيلت صفحات هذه القضية التي تضخمت أمامي بتلك الحملة الكريمة إلى نفسى والتي تشبه حفنة من الثعابين تماماً ، ولولا أننى انقطعت عن العمل لمدة يومين ، بسبب وعكة ألت بى وجعلتنى ألأزم الفراش لمدة ثلاثة أيام ، لكنت أتممت بقية الإجراءات فى هذه القضية ، وحولتها للحفظ فعلاً ، غير أنه حدث فجأة حادث غريب جعل قلبى يكاد يقفز فرحاً ، فقد حضر إلى مكتبى أحد ضباط المباحث الجنائية ، ومعه عبد الفضيل بواب العمارة التى وقعت فيها الجريمة ، وأنهى إلى أنه قد عرفت شخصية الفتاة المجهولة التى كانت تتردد على المحبى عليها فى بيتها . والتي أدلى بأوصافها عبد الفضيل بواب العمارة فى التحقيق ، وأنها - أى الفتاة - تدعى « زينات شوق » وتعمل راقصة فى ملهى فى الحرم ، وأنها تقيم فى المنزل رقم ١٧ بشارع علوى بالدق ، وقد ثبت من التحريات أنها تقيم وحدها فى المنزل المذكور ، ولا يتردد عليها أحد ، وأن هذه المعلومات جميعها قد عرفت عن طريق صورة للفتاة ، شاهدها عبد الفضيل فى إعلان من إعلانات الملهى المذكور . وبرؤيته لما برؤية العين تأكد من أنها هى نفسها الفتاة التى كانت تتردد على المحبى عليها ، والتي ورد ذكرها فى التحقيق ، وما إن استمعت إلى هذه المعلومات جميعها ، حتى أمرت بالقبض عليها فوراً وإيداعها السجن على ذمة القضية ، وقد اتجه تفكيرى

في الحال انجهاً آخر ، راقصة وتعمل في ملهى ليلي ، وصديقة للمجنى عليها ، وتتردد عليها في بيتها ، بل تبيت معها في البيت نفسه كما قال ذلك بواب العمارة ، فكرت في هذا كله وفي شيء آخر ورد في المعاينة وفي تقرير الطبيب الشرعي ، ولم أظن ل إليه أو أهتم به في حينه ، وهو أن ثوب القتيلة ، وجد أثناء وقوع الحادث ، وبه آثار تمزيق من قبل ، وهذا كله إن دل فعلى أن الحادث لم يكن بسبب السرقة ، كما فكرت في أول الأمر ، وأن الطهر وطيبة الخلق والسمعة الحسنة التي كانت تتحلل بها المجنى عليها ، كما ورد على لسان الشهود ، كل ذلك لم يكن لإستاراً تخفي خلفه بعض الجرائم الخلقية ، وبذلك بدأت القضية أمامي تتجه فعلاً انجهاً آخر . ومكثت ثلاثة أيام قضيتها في الإسكندرية لإتمام بعض الإجراءات في إحدى القضايا هناك . ولما عدت ، استدعيت الفتاة من السجن ، ولما مثلت أمامي ، وجدت أوصافها فعلاً ، كما ذكر البواب في أول التحقيق . . شعر أسود داكن . . وعيون زرقاء . . واسعة . . وقوام فارغ طويل . . وبشرة كلون العاج الذي لفحته شمس الشرق ، فأحالتها إلى ما يشبه لون سنابل القمح ، غير أن هذا الجمال الرائع ، وهذه الفتنة التي لا نظير لها كان يلفها خمار أسود رقيق من الحزن ، بحيث جعل هذا الوجه الجميل الرائع أشبه تماماً بالمصباح المنطفئ ، والعيون الزرق الواسعة يبدو لك بياضها وهو يلتمع خلف الأهداب الطويلة المتسدلة عليها كما تلمع مترنحة ذبالة السراج الذي فضب زيتته ، ولاحظت أنها في حالة

إعياء شديد بحيث لا تكاد تقوى على الوقوف ، فأذنت لها بالجلوس
 فتهاوت على المقعد حتى كادت تسقط من عليه . فسألتها : هل هي
 مريضة . . فعرفت أنها جائعة .. وأن لها ثلاثة أيام لم تتناول طعاماً ،
 لأنه ليس لها أحد يسأل عنها أو يعنى بها وحتى الذين كانت تعمل عندهم
 فى الملهى ، تنكروا لها بمجرد القبض عليها ، وأنها لم تحضر نقوداً معها
 لتشتري طعاماً وأن الطعام الذى قدم لها فى السجن عافته نفسها ولم تأكله .
 فأشفقت عليها وأحضرت لها طعاماً فى الحال وأرجأت معها التحقيق إلى
 اليوم الثانى .

في الصباح استدعيت الفتاة إلى مكتبي، وكانت قد تماكنت قواها إلى حد كبير . ودبت في أوصالها الحياة وفي جمالها الفتنة ، كما تمشت في وجهها خيوط من إشراق . وغدا تماماً كطلعة الفجر عندما ينبفس نوره في الكون حتى إنني دهشت كثيراً . من الفرق الكبير بين أمس واليوم . وزادت دهشتي عندما بدأت التحقيق معها وفرغت من تلك الأسئلة التقليدية الأولى : اسمك . . وسنك . . وعملك . . وأين تقيمين . . وبدأت أدخل في الموضوع وسألتها :

- هل تعرفين المحبى عليها . . زينب عبد العال الشوباشي ؟
أقول كانت دهشتي بالغة عندما أجابت في صراحة متناهية ،
واطمئنان زائد :

- أجل أعرفها . . وأعرفها جيداً . . فقلت :
- هل كنت تترددين عليها في بيتها ؟
- كثيراً جداً . . وأحياناً كنت أبيت عندها أيضاً !
- متى تعرفت على المحبى عليها ؟
- هي التي تعرفت على . .

— كيف ؟

— فى الصيف الماضى كنت أعمل فى ملهى صيفى .. وهو باخرة على النيل .. وذات ليلة بعد أن انتهيت من رقصى .. حضر إلى جمعة ..
— ومن جمعة ؟

— خادم فى الملهى .. وقال إن سيدة تريد مقابلتك ..

— هل كان معك أحد فى تلك اللحظة ؟

— كنت فى غرفتى أبذل ملابسى .. ولما سألتها من هى ؟ .. وماذا تريد ؟ .. أفهمنى بأنها سيدة يبدو عليها أنها وقورة ومن أسرة كبيرة وأنها من رواد الملهى ، وتتردد عليه من حين إلى آخر .. ولما جاءت إلى فى غرفتى .. أجلستها ، وطلبت لها زجاجة كوكاكولا .. وقالت لى : إنها تعودت أن تتردد على هذه الباخرة بين الحين والحين لتزججة الفراغ ، ولأنها منذ أن شاهدتنى أعجبت بى وبرقصى ، إذ لاحظت أنى لا أجلس مع أحد .. ولا أتصل بأحد ، وأنها شعرت بحوى بعاطفة وحب ، ولذلك فهى تدعونى على فنجان شاي ببيتها .

— ووافقت ؟

— لا ..

— لماذا ؟

— فى الحقيقة ترددت .. لأن الناس قد تعودوا أن لا ينظروا للراقصة كفتانة .. وإنما كامرأة تعرض جسمها حارياً على الناس .. وأنها صيد

من السهل اقتناصه . .

— وهل أنت كذلك ؟

فصمتت ولم تجب ، وعلت وجهها غمامة كتلك التي ترحف فوق وجه القمر وتغطيه ، وقالت :

— أتصنفتني لو قلت لا ؟

وشعرت بحرج شديد من هذا السؤال الذي لا دخل له في الموضوع ، وقلت معتذراً ، أو محاولاً الاعتذار :

— أقصد هل الراقصة كذلك فعلاً ؟

فتصمت بصوت خفيض جداً ، وهي تنظر إلى الأرض :

— أرجو أن تسألني عن نفسي فقط .

فأغفلت السؤال وقلت :

— وهل كان مظهر المحفى عليها يوحى بترددك في قبول دعوتها ؟

— لا . . أبداً أبداً . . وإنما ترددت لأن بعض السيدات أحياناً

يتخذن مظهر الوقار والحشمة والتظاهر بالتقى وسيلة لغايات معينة ، ولكنها

لما ألفت . . وعدتها بذلك . . وأعطتني عنوان مسكنها . . وانصرفت . .

وأحسست وهي تنصرف بعد استجابتي لرغبتها أنها فرحت كثيراً . . إذ

تهلل وجهها حتى انشقت عينها عن إشراقة نور أضاءت كيائها كله . .

مما جعلني أتشكك في الأمر ثانية ولم أذهب إليها في الموعد . . وبعد

يومين اثنين . . تصادف أنني مرضت فيها ولم أذهب إلى الملهى . .

جاءتني هي إلى بيتي ..

سجل كانت تعرف عنوان بيتك ؟

— لا .. وهذا مما أدهشني أول الأمر .. ولكنني عرفت منها أنها لما لم تجدني في الملهى في اليومين الماضيين سألت عن عنواني فأملأه عليها جمعة الخادم .. وهو الذي أخبرها بمرضى ..

— ألم تزد شكوكك .. بعد أن وجدت منها هذا الاهتمام الزائد ..
الذى لا يمرر له ؟

— فعلا .. ولكن عندما توطلت علاقتي بها ، تددت شكوكي جميعاً .. إذ وجدتني أكثر من أم .. وكانت هي تقول ذلك دائماً ..
— ماذا كانت تقول ؟

— كانت تقول بأنها وحيدة . لا أخ ولا زوج . ولا ابن أو ابنة ..
وأنها تود لو تتخذني ابنة لها . ولعل هذا التشابه في الحرمان والوحدة هو الذى حببني فيها ، وجعلني أنزلها من نفسى منزلة الأم تماماً ..
وكنت قد نسيت أن أوجه لها سؤالاً هاماً .. . فقلت :

— مع من تقيمين في بيتك ؟

— وحدى .

— من أى بلد أصلا ؟

— القاهرة .

— وأين تقيم أسرتك ؟

- أبى مات قبل أن أراه .. وأبى تزوجت وأنا طفلة .. وتقيم مع زوجها فى الصعيد .. فى قرية تسمى البدارى .
- ولماذا لم تأخذك معها .. بعد أن تزوجت ؟
- قالت إن زوجها رفض أن يتفق على ..
- كم كانت سنك فى ذلك الحين ؟
- سبع سنوات ؟
- ولن تركتك أمك فى القاهرة بعد أن رحلت عنها مع زوجها ؟
- ليس لأحد ..
- فصمت لحظات ، ثم قلت :
- وكيف نشأت إذن ؟
- هذا تاريخ لا أذكره ، وإنما الذى أعرفه هو أننى اشتغلت بخادمة عند « عائلة » فى شارع محمد على تدعى « الست بهية » وهى التى علمتنى الرقص ..
- ألم تتردد عليك أمك طوال هذه المدة ؟
- بعد أن عرفت كراقصة ، كانت تتردد على من حين إلى آخر ..
- لتأخذ منى بعض النقود .
- أين كانت تقيم أمك فى القاهرة ؟
- فى حارة درب المرعشلى .. فى القلعة ..
- وما اسمها ؟

— نظيرة أحمد البسيفي ..

— وما اسم زوجها ؟

— لا أعرف ..

— ألم يحضر لزيارتك مع أمك مرة من المرات ؟

— لا .. ولم أره منذ تزوج من أمي .. ونزح معها إلى الصعيد ..

وراودني شك في هذه المعلومات .. فتناولت ورقة وكتبت فيها اسم الأم وعنوانها ، وذيلتها بأمر القبض عليها وترحيلها فوراً إلى القاهرة ، ولاحظت أثناء ذلك أن الفتاة تختلس النظر إلى يدي وما أكتب فسألتها :

— هل تقرئين وتكتبين ؟

— نعم .

— هل ذهبت إلى المدرسة ؟

— لا .

— كيف إذن تعلمت القراءة والكتابة ؟

— علمتني الست بهية عليها رحمة الله .

— سمعتك من لحظات تنطقين كلمة بالإنجليزية ... فهل تعلمت

الإنجليزية أيضاً ؟

— تعلمت منها بعض كلمات .. حينما كنت أعمل في مرقص ليلي ،

يؤمه بعض الجنود الإنجليز أيام الحرب ..

فنظرت إليها سريماً ، ولا أدري لماذا تغيرت نظرتي إليها هذه المرة ،



ولا أدري أيضاً لماذا وجهت إليها هذا السؤال على الفور :

— هل أنت متزوجة ؟

— لا . . .

— وهل سبق أن تزوجت ؟

— لا .

— هل . . .

ولكنها لم تجعلنى أتم السؤال وقالت بصوت خفيض جداً وهى تنظر إلى الأرض :

— لافنى حذراء .

ولعل هذا الجواب الأخير كان أبرز الأجوبة وأدعها إلى الشك فى كل أقوالها . ولكنى أضغ شكوكى هذه جميعاً موضع اليقين مددت يدي وتناولت ورقة من أمامى ، وطلبت إحالتها على الكشف الطبى وكأنها أدركت قصدى .. فتأملت فى حزن ، لأنها قالت وكأنها جواد جريح يتألم :

— وما دخل هذه الأسئلة الأخيرة فيما استدعيتنى من أجله ؟

— أليس من حقى أن أعرف ؟

— تعرف ماذا ؟

— السر الحقيقى الذى ربط بينك وبين المحبى عليها ؟

— أفهم من ذلك أنك ترتاب فى صلتى بها ؟

— ولم لا ..

فقلت وقد علت وجهها فجأة سحابة فاتمة السواد ، وقد ارتفع صوتها لأول مرة ، شأن من يكاد يخرج عن طوره :
— لو أن الأمر كما تظن لما قطعت علاقتي بها نهائياً قبل الحادث بعشرين يوماً ..

فأحسست على الفور أنني وضعت يدي على شيء . ولذلك تماسكت حتى لا تهزني الفرحة ، وقلت وأنا أدور من بعيد حول ما أريد :
— إذن أنت تعلمين بالحادث في حينه ؟

— قرأت عنه في الصحف ..

— ولماذا لم تتقدمي للإدلاء بأقوالك ؟

— أى أقوال ؟

— بأنك على الأقل تعرفين الحقي عليها .. وقرأت أنه جارى البحث عن فتاة تنطبق عليها أوصافك ..

— لم أقرأ هذا .. ولم تشر إليه الصحف .

— ولكنك قرأت نبأ مقتلها ..

— ولو قتل أحد .. فهل على جميع الذين يعرفونه أن يتقدموا ليقولوا إننا كنا نعرف القاتل ؟

وأحسست بما في الجواب من سخرية ، ولكنى تفاضيت ، وقلت :
— ولكن علاقتك أنت بها لم تكن عادية كما جاء في أقوالك ..

— أى أقوال ؟

— إنها كانت لك بمثابة الأم ..

فأرسلت تنهدة طويلة .. وقالت بصوت خفيض .. وكأنها تزداد
توجعاً :

— ولا أنكر أنني فرحت بذلك كثيراً .. وكانت سعادتي به
لا تقدر .. حتى إنني فعلاً اعتبرتها أمي . وأودعتها كل أسراري ، وصدقت
كل ما كانت تقوله لي
— ماذا كانت تقول لك ؟

— إنه لا ذرية لها .. وإنها تعتبرني ابنة لها .. وإنها مستعدة أن تهب
لي ممالك حتى ضيعتها الصغيرة التي تملكها في الريف ، فقط أترك
مهنة الرقص .. وأعيش معها في بيت واحد .
— ولماذا لم وافقي ؟

— لم أشأ أن أكون عبثاً على أحد .. أو تنفق على سيده ليست لي
بها صلة قرابة أو رحم .

قالت ذلك وصمتت في حزن شديد حتى إن بعض الدموع كادت
تنفطر عن عينيها .. فأنهزت فرصة هذه الآلام التي تعتمل في نفسها ...
ووجهت إليها هذا السؤال :

— تقولين إنك انقطعت عنها نهائياً .. قبل الحادث بعشرين يوماً ..
فما هي الأسباب ؟

- ارتبيت في أمرها .
- كيف ؟
- فاجأها ذات ليلة .. ورجل يتسلل في الظلام من مخدعها ..
- فهاست حتى لا أشعرها بأهمية هذا الاعتراف الذي يكاد يكون نقطة تحول في القضية .. وقلت :
- هل أنت متأكدة من أقوالك ؟
- نعم ..
- أليس من الجائز أنك تخيلت ذلك في الظلام ؟
- لقد أشعلت النور .. ورأيت رؤية العين ..
- هل كنت معها في البيت في هذه الليلة ؟
- لا .
- أين كنت ؟
- في الملهى ..
- هل كنت على موعد معها ؟
- لا .
- إذن لماذا ذهبت إليها ؟
- كنت متعودة أن أتردد عليها في أى وقت .. في النهار .. ولكنى لم أعود أن أذهب إليها في الليل ، إذا ذهبت .. إلا في وقت متأخر جداً .. أى بعد أن أخلص من عمل الليل في الملهى .

— متى كان عملك الليلي ينتهى تقريباً ؟

— بعد الساعة الواحدة صباحاً . .

— كل ليلة ؟

— كل ليلة . .

— ومتى ذهبت إليها فى تلك الليلة ؟

— حوالى العاشرة مساء . .

— أنت تقولين إن عملك لا ينتهى الا بعد منتصف الليل . .

— فى هذه الليلة ذهبت إلى الملهى كالعادة ، فوجدتهم قد أتوا
براقصة جديدة لتعمل معى ، فكانت مفاجأة لى . . واعتبرت هذا مناسباً
بكرامتى ، فتركت الملهى وانصرفت ، ولم أشأ أن أذهب إلى بيتى فذهبت
إليها .

— كم كانت الساعة على وجه التحديد عندما ذهبت إليها ؟

— العاشرة والنصف أو الحادية عشرة .

— وما الذى حدث بالتفصيل ؟

— شاهدت رجلاً يتسلل من مخدعها كما قلت . .

— كيف شاهدته ؟

— أنا صعدت فى المصعد كالعادة ، وعندما بلغت باب المسكن . .

أخرجت المفتاح من حقيبى وفتحت الباب .

— هل كان معك مفتاح للمسكن ؟

— نعم .

— ولماذا ؟

— هي التي أعطتني إياه ، لكي أدخل وأخرج في أى وقت أريد . .

— ولما فتحت الباب ؟

— وجدت البهو مظلماً كالعادة ، فظننتها نائمة ، لأنها كانت متعوده أن تبكر في النوم . . ولكن ما إن أشعلت النور ، حتى سمعت حركة غير عادية في غرفتها . . ولاحظت أن نور الغرفة قد أطفئ . . . فأنجحت إلى الغرفة وفتحت بابها ، وما إن تقدمت خطوة واحدة حتى رأيت رجلاً أمامي في الظلام فصرخت وكاد يغشى على . . وانهز هو هذه الفرصة وخرج سريعاً وهو يحاول إخفاء وجهه بجريدة كانت في يده .

— وأين كانت هي ؟

— لما أشعلت نور الغرفة وجدتني جالسة على مقعد بجانب السرير . . .

— وماذا كانت ترتدى من الثياب ؟

— قميص النوم . .

— فقط ؟

— وشالا أسود كانت متعوده دائماً أن تضعه على رأسها وكفنها . .

— هل وضعت الشال عندما رأته . . أو كانت تضعه على رأسها

من قبل ؟

— لا أستطيع أن أحدد . .

- وماذا قالت لك ؟
- كانت مرتبكة جداً .. بحيث إنها لم تستطع أن تنطق .
- ألم تسألها .. عن سبب وجود هذا الرجل ؟
- لا .
- لماذا ؟
- لأن هناك بعض الأسئلة يستطيع الإنسان أن يعرف الجواب عنها سلفاً ..
- هل أفهم من ذلك أنك اقضت فعلاً :
- مادامت قد ماتت فايغفر لها الله . .
- ألم يدر أى حديث بينك وبينها فى هذا الشأن ؟
- لا .
- ألم تؤنبها على هذا الفعل ؟
- كانت المفاجأة مذهلة بالنسبة لى فلم أنطق . .
- تقولين بأنك رأيت الرجل رؤية العين . . فما هى أوصافه ؟
- كل الذى أذكره . . أنه طويل القامة . . أشيب الشعر . . يضع فوق رأسه طربوشاً طويلاً . . ويرتدى بذلة أنيقة سوداء اللون ذات خطوط بيضاء رفيعة . . ولونه يميل إلى السمرة . .
- كيف شاهدت لونه وأنت تقولين إنه كان يضع جريدة على وجهه . . ؟

— شاهدت يده ونصف وجهه وهو يستدير سريعاً ليخرج من الباب .

— تقولين بأن الغرفة كانت مظلمة . . فكيف شاهدت ذلك ؟

— لما فتحت الباب . . أضواء النور الذى فى البهو . . مدخل الغرفة ..

— هل قال لك شيئاً ؟

— إنه لم ينظر لى . .

— وأنت ألم تقولى له شيئاً ؟

— كنت فى حالة ذهول . .

— إذا عرض عليك . . فهل تستطيعين أن تتعرفى عليه ؟

— ربما . .

— ألم تشاهده قبل هذه المرة يتردد على البيت ؟

— لا . . لا . . أبداً . . أبداً . . لا هو ولا غيره . .

— هل كانت الخادمة فى البيت وقت دخولك ؟

— لا . . لأننى التقيت بها عند خروجى واقفة أمام المصعد . .

— أين كانت ؟

— لا أدرى . .

— ألم تحدثنى إليها بشئ ؟

— كان احتقارى لها هى الأخرى زائداً .. فلم أنظر إليها وانصرفت ..

— ألم ترددى عليها بعد هذا التاريخ ؟

— إطلافاً ..

— ألم تتصل هي بك ثانية ؟

— حاولت كثيراً وأرسلت لى عم دسوقى أكثر من مرة .. ولكنى

رفضت ..

وكانت مفاجأة لى أن تذكر هذا الاسم .. فقد كنت حتى هذه اللحظة أعرف أنها لا تعرفه .. وقد أنكر هو فى التحقيق معرفته بها إنكاراً باتاً .. وأدهشنى ذلك .. وبدأت أرى خيطاً جديداً يراقص أمام عيني .
ولذلك قلت متجاهلاً :

— من هو عم دسوقى ؟

— رجل من الأرياف كان يتردد عليها .. وكان يحول زراعتها كما

قالت لى ..

— هل شاهدته يتردد عليها ؟

— كثيراً

— وهل كان يتحدث إليك ؟

— أحياناً .. وكنت أستريح إليه .. فقد كان لطيفاً ومرحاً إلى حد

كبير .. . وأذكر أننى مرة طلبت منه أذرة خضراء فأرسلها لى بعد يومين .. . ومعها بعض التظير والزبد .. .

— أرسلها لك فى بيتك .. أم فى بيت الهجنى عليها ؟

— فى بيت الهجنى عليها ..

- ما هي أوصاف هذا الرجل ؟
- كهل في الستين من عمره تقريباً . . طويل اللحية والشارب . .
- له عينان ضبقتان . . وعلى أذنه اليسرى قطع ألقى . .
- فاندھشت لدقة هذه الأوصاف وقلت :
- هل كان يعرف عنوان بيتك ؟
- بدليل أنه جاءني ثلاث مرات . .
- لماذا جاء إليك في المرات الثلاث ؟
- ليحاول أن يستعيد صداقتي بها ثانية . .
- وماذا قلت له ؟
- رفضت طبعاً . .
- ألم يسألك عن السبب ؟
- سألتني . .
- وهل قلت له السبب الحقيقي ؟
- نعم جلت . .
- ماذا قلت له إذن ؟
- قلت له إنني راقصة . . وإن الناس تعودوا أن ينظروا إلى الراقصات
- نظرة غير مشرفة . . وإنها سيدة كريمة ومحافضة، وإن ترددي عليها قد
- يسئ إليهما . .
- ولماذا قلت له هذا ؟

- لأننى كنت أشفق عليها فعلاً . .
- برغم الذى حدث وشاهدته بعينك . .
- فصمتت ولم تجب . . ولا أعدت السؤال . . قالت بصوت مخنق :
- لقد كنت أحبا فعلاً . .
- وماذا قال لك ؟
- حاول أن يقنعنى فلم أقنع . .
- متى كانت آخر مرة ذهب فيها إلى بيتك ؟
- قبل الحادث بأسبوع واحد . . وكان يوم الجمعة على ما أذكر .
- هل أنت متأكدة من أن اليوم كان يوم الجمعة ؟
- نعم . . لأنه كان يحضر دائماً يوم الجمعة . .
- لماذا يوم الجمعة بالذات ؟
- كان يقول لى بأنه يصلى الجمعة دائماً فى مسجد الحسين .
- فزادت دهشتى وقلت وأنا أشعر بأننى وصلت إلى شيء :
- قال دسوقى على حسنين فى التحقيق . . إنه لم يتعرف عليك ولم يرك فى بيت الهجنى عليها أبداً . .
- هو قال ذلك ؟
- أجل .
- غريبة .
- ما هو سبب إنكاره ؟

- لا أعرف .
- هل كانت علاقته بالمجنبي عليها طيبة ؟
- جداً ..
- ألم تلاحظي شيئاً على هذه العلاقة ؟
- من أى ناحية ؟
- أى ملاحظة ..
- لم تكن أكثر من علاقة خادم بمخلومه .
- هل كانت المجنبي عليها تثق فيه ؟
- إلى حد أنها كانت لا تتصرف أى تصرف إلا بمشورته .
- مثل ؟
- مثلاً . . غضبت يوماً على الخادم التى تعمل عندها . . وأرادت طردها . . ولكنها لم تفعل لأن عم دسوق لم يوافق على طردها . .
- ما السبب فى أنها كانت تأخذ بقوله إلى هذا الحد ، وهو لا يخرج عن أنه خادم عندها كما تقولين ؟
- إخلاصه لها .
- وهل كان مخلصاً لها فعلاً ؟
- كان لها أكثر من أب . . وأكثر من شقيق .

وحاولت أن أسألهما بعض أسئلة أخرى ولكنها كانت متعبة ومرهقة
 إلى حد كبير . . فاكتمت بهذا القدر . . وشعرت بشيء من الاطمئنان
 لهذه النتائج التي وصلت إليها وإن كانت جميعاً ما زالت في عالم الغيب ..
 وأرجأت التحقيق إلى الغد . . ولكنني في الغد انشغلت بالمرافعة في إحدى
 القضايا . .

بعد يومين استأنفت التحقيق في هذه القضية . . فاطلمت على نتيجة الكشف الطبي على الفتاة . . وكم كانت دهشتي بالغة . . عندما جاء تقرير الكشف الطبي مؤيداً لفضحة أقوالها وأنها عذراء فعلاً كما قالت في التحقيق . . وقد جعلني هذا أراجع أقوالها مرة أخرى . وأنظر إليها بعين الاعتبار . . كما جعل نظرتي إليها تتبدل ، ولا أنكر أنني شعرت نحوها بكثير من العطف والتقدير .

وكانت أمها قد تم القبض عليها، وترحيلها إلى القاهرة . فاستدعيتها . . ولما مثلت أمامي . وجدتها عجوزاً ذات سحنة نحاسية صلبة . . وجه متغضن . . ترتسم فوقه حلة تجاعيد سوداء . . ثم عن الشر . . كما تم نظراتها الصفراء الشاحبة التي تنبعث من عينيها الضيقتين عن الغلظة والقسوة والأناية . . مما جعلني أستشعر الضيق أو هكلاً أحسست بمجرد أن وقعت عيني عليها . . ومع أنها كانت تيكى . . وكانت فعلاً في حالة ذعر شديد . . إلا أن هذا لم يقلل من أهمية خطرهما في نظري . . ولذلك عاملتها في أول الأمر بشيء من الغلظة . . وبعد أن أجابت على بعض الأسئلة الأولية التي يتطلبها التحقيق . . وجهت إليها السؤال التالي :

— منذ متى تقيمين في البدارى ؟

- من خمس عشرة سنة .
- أين كنت تقيمين قبل ذلك ؟
- في درب المرعشلى بالقلعة ..
- مع من كنت تقيمين ؟
- مع زوجى الأول ..
- هل كنت متروجة قبل زوجك الحالى ؟
- نعم ..
- ولماذا انفصلت عنه ؟
- مات ..
- ماذا كان يعمل ؟
- عربيجى كارو ..
- وبعد موته ؟
- كنت أشتغل خادمة فى بعض المنازل ..
- ما هو آخر بيت كنت تعملين به ؟
- بيت المرحوم حسن الشريتلى ..
- أين يقع هذا البيت ؟
- خلف سراى الهياتم فى شارع الخليج ..
- ولماذا تركت الخدمة ؟

— لما تزوجت زوجى الثانى .. وذهبت معه إلى البدارى .. وتركت
القاهرة نهائياً ..

— ماذا كان يعمل زوجك الثانى ؟

— بائع فاكهة متجول ..

— ولماذا ترك هذه التجارة ؟

— ورث عن أمه نصف فدان .. فترك التجارة .. وفضل أن يعمل فلاحاً ..

— هل أنجبت من زوجك الأول ؟

— لا ..

— ومن زوجك الثانى ؟

— ولا من زوجى الثانى .

فنظرت إليها وقلت :

— أنت لك ابنة تدعى زينات شوقى .. وتعمل راقصة فى بعض

الملاهى الليلية .. وتقيم فى القاهرة ..

— ليست ابنتى .. وأنا لم أنجب طول حياتى ..

وكنيت لحظتها أشعل سيجارة .. فكادت تسقط من فى .. ولكنى تماسكت

سريعاً حتى لا أجعلها تشعر بدهشتى من هذه المفاجأة الغريبة .. وقلت :

— ولماذا تدعى هى ذلك ؟ !

— هى فعلاً تظن أننى أمها .

— تظن أنك أمها ؟

— نعم ..

— وما الذى جعلها تظن ذلك ؟

— لأنها نشأت لا تعرف لها أمًّا .. فقلت لها أنا أمك .. وأيضاً الذين

كانوا يعرفون حقيقتها .. طلبوا منى أن أقول لها ذلك ..

— من هم ؟

— سيدة لا أعرفها جاءتنى فى اليوم الثانى من عشورى عليها ..

— عشورك على من ؟

— على نعمة ..

— من نعمة ؟

— كان اسمها نعمة .. وأنا التى سميتها بهذا الاسم .. أما زينبات

فهو اسم الشهرة بعد أن اشتغلت راقصة ..

— أين عثرت عليها ؟

— لقيطة ملقاة فى الطريق ..

— اذكرى الذى حدث بالضبط ..

— كنت فى ذلك اليوم أقطع الطريق من القلعة إلى شارع الخليج

حيث البيت الذى أخدم فيه .. وعند أول شارع درب الخمايز ..

ويجوار سبيل المحمدى .. سمعت صوت بكاء طفل .. فالتفت

فوجدت طفلة مولودة حديثاً .. وقد لفت فى ثياب بيضاء نظيفة ..

فحملتها وعدت بها إلى البيت ..

— هل شاهدك أحد ؟

— لا ..

— كم كانت الساعة في ذلك الوقت ؟

— حوالي السادسة صباحا ..

— وما الذى جعلك تستيقظين في هذا الوقت ؟

— كنت دائما أذهب إلى البيت الذى أخدم فيه في مثل هذا الوقت .

— ولماذا لم تبغى عنها ؟

— لأننى لم أنجب .. وكانت أمتنى أن يكون لى طفل أو طفلة ..

ولذلك اعتبرتها نعمة بعث بها الله لى .. وقد سميتها نعمة فعلا ..

— وماذا قال لك زوجك ؟

— كان زوجى قد مات .. وكنت أقيم بمفردى في ذلك الحين ..

— قلت إن الذين كانوا يعرفون حقيقتها طلبوا منك تبنيها .. فن هم ؟

— في نفس اليوم الذى عثرت عليها فيه .. جاءتنى سيدة لا أعرفها

وقالت لى إنها صديقة لأم هذه الطفلة .. وإن الله قد أمر بالستر ..

وطلبت منى أن أعنى بتربية الطفلة .. وسوف تدفع أجر تربيته والعناية بها ..

— في أى وقت من النهار جاءت إليك ؟

— بين المغرب والعشاء ..

— أين جاءت إليك ؟

— في بيتى ..

- وكيف عرفت بيتك ؟
 - قالت لى إنها كانت تتبعنى وأنا أحمل الطفلة ..
 - هل لا حظت أن أحداً كان يتبعك فعلا ؟
 - لا ..
 - ألم تشككى فى أقوالها ؟
 - بل صدقتها .. وإلا فكيف عرفت هى بيتى فعلا ؟
 - ما هى أوصاف هذه السيدة التى جاءت إليك ؟
 - سيدة وقورة .. يبدو عليها من ثيابها وحشمتها أنها من أسرة كبيرة ..
 - كم سنها على وجه التقريب ؟
 - شابة فى الثلاثين أو فى الخامسة والثلاثين .. طويلة .. ممتلئة الجسم إلى حد ما .. واسعة العينين .. ولونها يعميل إلى السمرة .. وشعرها أسود فاحم السواد ..
 - وكانت هذه الأوصاف تنطبق إلى حد كبير على المحبى عليها، فقلت :
 - جميلة ؟
 - طبعاً ست وجميلة .. ولولا حزنها وبكاؤها لكانت كالقمر تماماً ..
 - لماذا كانت تبكى ؟
 - لا أعرف ..
 - ألم يجعلك هذا تشكين فى أنها هى أم الطفلة ؟

- فعلا شككت في هذا وسألتها ولكنها أنكرت ..
- ماذا قالت لك ؟
- قالت لي إنها حزينة لأن أم الطفلة قريبة لها ..
- وهل صدقت هذا ؟
- الحقيقة صدقت .. لأن مظهرها لم يكن ليبدل على أنها من الستات لإيهن ..
- ماذا تقصدين بالستات لإيهن ؟
- أقصد اللواتي يحملن سفاحاً .. ويلقنن بأبنائهن في الطرقات ..
- ما اسم هذه السيدة .:
- سألتها عن اسمها .. ولكنها أنكرته على ..
- لماذا أنكرته عليك ؟
- كانت دائماً تقول .: إن الله حلیم ستار ..

لست أدري لماذا حاولت الشعور بخطورة هذه المرأة التي تقف أمامي ، أو بمعنى آخر ، خطورة هذه الأقوال التي تدلى بها . ولذلك نظرت إليها ثانية ، ولما تمنعت في وجهها ورأيت ظلال الحشونة التي ترسم عليه أكثر وضوحاً ، صمت لحظات ثم قلت :

— أين كانت تقيم ؟

— لا أعرف .

— ألم تذكر لك عنوانها ؟

— طبعاً لا .

— ألم تحاول سؤالها مرة أخرى ؟

— مادامت قد أنكرت على حتى اسمها . . فبطبيعة الحال لن تذكر لي عنوانها .

— وأنت ألم تحاول معرفة عنوانها ؟

— حاولت مرة واحدة . . ولكنني أخفقت .

— ما هي المحاولة التي قمت بها ؟

— عندما جاءت إلى بعد ذلك بأسبوعين . . انصرفت . . فتتبعها

خلسة . . ولكنها بعد أن خرجت من الحارة ، وبلغت ميدان القلعة ركبت

سيارة . . . واختفت .

- هل كانت هذه السيارة تنتظرها ؟
- لا أعرف .
- السيارة كانت أجرة .. أم ملاكى ؟
- الوقت كان ليلاً .. وأنا لا أفرق بين الأجرة والملاكى ..
- هل لاحظت أن أحداً كان فى السيارة غير السائق ؟
- أنا كنت خلف السيارة .. فلم أر أحداً ..
- ماذا كنت تقصدين من معرفة عنوان بيتها ؟
- قلت إذا انقطعت عن الهجاء إلى .. ذهبت أنا إليها ..
- تذهبين إليها لماذا ؟
- لأخذ النقود التى اتفقت معى عليها ..
- كم هو المبلغ الذى اتفقت معك عليه ؟
- ثلاثة جنيهات فى الشهر ..
- كم أعطتك فى أول مرة ؟
- خمسة جنيهات ..
- لماذا أعطتك هذا المبلغ .. وقد اتفقت معك على ثلاثة فقط ..
- هى أعطتنى هذا المبلغ ..
- هل تذكرين تاريخ اليوم الذى عثرت فيه على الطفلة .. والذى جاءتك فيه هذه السيدة ؟
- لا .. لا أذكر ..

- تذكرى ..
- إنها سنوات طويلة ..
- هل استخرجت شهادة ميلاد للطفلة ؟
- لا ..
- لماذا وأنت تعلمين أن هذا يخالف القوانين ؟
- خشيت أن أقع في سين وجيم .. وأنا عبرى ما وقفت أمام جندى ..
- كم كانت سنك أنت في ذلك الحين ؟
- لا أعرف .
- هل معك قسيمة زواج .. من زوجك الثانى ؟
- عندى فى البيت .
- هل تذكرين تاريخها ؟
- لا ..
- ألا تذكرين حادثاً معيناً وقع لك فى ذلك التاريخ الذى عثرت فيه على الطفلة ؟
- لا ..
- أو لأحد أقاربك مثلاً ؟
- ليس لى أقارب ..
- أو لأحد من معارفك مثلاً ؟
- لا .. ولكن الذى أذكره .. أنى بعد أن عثرت عليها بيومين

أو بثلاثة فقط . . . استيقظت فوجدت البلدة هائجة . . والشوارع
ممتلئة بالمظاهرات . . ولما سألت قيل لى إن سعد باشا ضرب بالرصاص . .
ورجعت إلى تاريخ هذا الحادث الذى ذكرته . . فوجدته فى
نوفبر عام ١٩٢٤ . فأثبت ذلك فى المحضر . . ثم استأنفت سؤالها :

— ثم بعد أن جاءتلك هذه المرة ؟

— جاءتنى بعد ذلك بأسبوعين . . وأعطتنى ثلاثة جنيهات . .

— هل شاهدت الطفلة . . فى المرة الثانية ؟

— وبكت كما بكت تماماً فى المرة الأولى . . ثم لم ترها بعد ذلك . .

— ألم تررد عليك بعد هذه المرة ؟

— لا . . . وقد انقطعت عنى نهائياً . .

— وانقطعت عنك النقود أيضاً ؟

— لا . . النقود كانت تصلنى بانتظام . . فى أول كل شهر . .

— كيف كانت تصلك النقود ؟

— كان يحضرها لى رجل . . فى أول كل شهر . .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— عم دسوق . . .

نطقت هذا الاسم فأحسست كأن قبلة انفجرت أمامى فى التحقيق . .

حتى لئننى اهتزت وابتلعت أنفاسى . . وقد غمرتنى فرحة زائدة . . إذ
بدأت أتأكد من صحة الأقوال التى استمعت إليها جميعاً . . ولا سيما

أقوال الفتاة التي جاءت أقوال هذه المرأة مطابقة لما كل المطابقة ..
 وأيضاً أقوال هذه المرأة التي كنت أعتقد أول ما وقعت عيني عليها .. أننى
 أمام امرأة كل شيء فيها لا ينطق إلا كذباً .. ونظرت إلى هذا المحيط
 الأبيض الذى بدأ يتوضح أمامى .. وإلى النور الذى ينبعث منه فى
 عيني .. وابتلعت أنفاسى مرة أخرى ابتهاجاً .. وتلاشت الغلظة التي
 كانت فى صوقي والتي كنت أحاطبها بها .. وتحولت إلى رقة زائدة ..
 وقلت أسأله :

— هل أنت متأكدة من أن اسمه دسوقى ؟

فقالت فى إيمان كثير :

— طبعاً متأكدة ..

— ما الذى جعلك تتأكدين ؟

— لأنه رجل طيب .. ولا يعرف الكذب .. ومكث يتردد على عدة

سنوات ..

— يتردد عليك لماذا ؟

— ليعطينى النقود فى أول كل شهر ..

— ما هى أوصاف هذا الرجل ؟

— فلاح ..

— ماذا تقصدين من كلمة فلاح ؟

— ريفي يرتدى الملابس الريفية ..

०२



- ما هي أوصافه بالضبط ؟
- طويل طويلاً يلفت النظر .. ويميل لونه إلى السمرة .. وله عينان ضيقتان ..
- هل كانت له علامة مميزة ؟
- في إحدى أذنيه من أعلى قطع أفقى قديم ..
- فابتلعت أنفاسي .. مرة ثالثة اطمئناناً .. وقلت :
- في أى الأذنين ؟
- لا أذكر ..
- تذكرى ..
- فصمتت حيناً كمن تسترجع شيئاً بعيداً .. وقالت :
- أغلب الظن أنه في أذنه اليسرى ..
- فامتدت أصابعي إلى وسط الخيط .. وأمسكت به في يدي ..
- وأطبقت عليه جيداً .. وقلت :
- متى وأين التقى بك دسوقي في أول مرة ؟
- في بيتي ..
- كيف عرف عنوان بيتك ؟
- هي التي قالت له طبعاً ..
- هو أخبرك بذلك ؟
- نعم ..
- وماذا قال لك ؟

— قال لى إن السيدة التى سبق لها أن جاءتنى .. وأوصتنى على
الطفلة .. قد حالت ظروف بينها وبين الهجىء إلى .. وقد أرسلتنى نيابة
عنها لأعطيك المبلغ المتفق عليه ..

— ما هى هذه الظروف ؟

— لا أعرف ..

— ألم يذكرها لك ؟

— لا ..

— وأنت .. ألم تحاولى معرفتها ؟

— كان مرة يقول لى إنها مريضة .. ومرة يقول لى إنها سافرت ..

— وهل صدقت هذا ؟

— لا ..

— ماذا صدقت إذن ؟

— قلت إنها خشيت أن يفتضح أمرها .. إذا ما ترددت على

كثيراً .. فأنايت عنها هذا الرجل ..

— معنى هذا أنك كنت تعتقدين أن هذه المرأة هى أم الطفلة ؟

— نعم .. كنت أعتقد ذلك ..

— وما الذى جعلك تعتقدين ذلك .. وقد قالت لك إنها لم تكن

أمها ؟ وإنما هى قريبة لها ؟

— الدم يحن .. وكانت فى المرتين عندما تنصرف .. تقبل الطفلة

وتبكي بكاء حاراً ..

— ذكرت في التحقيق غير ذلك .. فقد جاء في أقوالك أنك

اقتنعت بأقوالها ، وهي أنها قريبة لأم الطفلة ؟

— قلت ذلك في أول الأمر .. ولكن عندما جاءتنى في المرة

الثانية . ورأيت نظراتها للطفلة وبكاءها وهي تقبلها .. اقتنعت بأنها أمها ..

— ما هي الصلة التي كانت بين دسوقي وهذه السيدة ؟

— لا أعرف ..

— ألم تحاولي سؤاله ؟

— قال لي إنه خادم عندها ..

— وصدقت هذا القول ؟

— كان منظره فعلاً يدل على هذا ..

— هل كان دسوقي يشاهد هذه الطفلة عندما يجيء إليك ؟

— أحياناً ..

— وماذا كان شعوره عندما يراها ؟

— كان يتألم .. ويقول .. ربنا يجازي أولاد الحرام ..

— ألم تحاولي أن تعرفي منه .. من هم أولاد الحرام هؤلاء ؟

— كنت كلما حاولت ذلك .. قال نفس الكلام الذي كنت

أسمعه منها ..

— أى كلام ؟

- إن الله حلیم ستار ..
- هل كان يشعر نحو الطفلة بشعور معين ؟
- كان يعطف عليها كثيراً .. ويوصيني دائماً بها خيراً .. وذات مرة .. حضر إلى وكانت مريضة .. فذهب إلى «الأجزة» .. وأحضر لها دواء ..
- ألم يجعلك هذا تظنين شيئاً ؟
- أظن ماذا ؟
- أنه والد الطفلة مثلاً ؟
- لا .. لا .. لا .. أبداً .. أبداً ..
- لماذا نفيت هذا سريعاً ؟
- لأن منظره لم يكن ليبدل على أنه أبوها ..
- كم كان يعطيك من النقود دائماً ؟
- هي الثلاثة جنيهات كل شهر ..
- هل كان يعطيك شيئاً آخر ؟
- أحياناً .. كان يحضر لي بعض الهدايا الريفية ..
- ماذا تقصدين بالهدايا الريفية ؟
- حنطة .. وأذرة خضراء .. وفطير .. وفي الأعياد والمواسم كان يحضر إلى بعض اللحم ..
- ألم تحاولي أن تطلبي منه زيادة المبلغ ؟

- لا .. وكنت فرحة بهذا المبلغ ..
- هل ظل يتردد عليك كثيراً ؟
- ما يزيد على الخمس سنوات ..
- وبعد ذلك ؟
- لم أره ..
- انقطع عن الحبيب إليك ؟
- الذى حدث أننى لما تزوجت .. وطلب منى زوجى أن أنقل معه إلى الصعيد .. تركت الطفلة عند جارة كانت تقيم معى فى البيت نفسه .. وطلبت منها أن تسلمها إلى هذا الرجل الريفى عندما يحىء ...
- ولماذا لم تأخذى الطفلة معك ؟
- رفض زوجى ..
- لماذا رفض ؟
- قال إنه ليس على استعداد أن ينفق على طفلة ليست ابنتنا ..
- ووافقت ؟
- نعم ..
- كيف وافقت وقد جاء فى أقوالك .. أنك لم تنجى .. وقد فرحت بالطفلة وتبنيها ؟
- كان هذا شعورى فى أول الأمر .. ولكنى لما عرفت أن لها من يسأل عنها قل هذا الشعور .. وقلت إنهم سوف يأخذونها منى فى يوم من الأيام ..

- ولماذا لم تنتظري حتى يحنى إليك دسوقى .. وتسلميه الطفلة ؟
- أصر زوجى على أن نساfer فى يوم معين ..
- وهل تسلم دسوقى الطفلة من جارتك ؟
- لا .. لأننى عندما عدت إلى القاهرة بعد ذلك بشهرين ..
- قالت لى جارتى إنها استيقظت ذات صباح فلم تجد الطفلة ..
- إذ اختفت نهائياً .. حتى إنها ظنت أن دسوقى قد أخذها .. ولكنها
- فوجئت به يحضر فى الموعد نفسه ويسأل عن الطفلة ..
- أى موعد ؟
- أول الشهر كما تعود أن يحضر ..
- وماذا قالت له جارتك ؟
- أخبرتنى أنها خافت أن تقول له إن الطفلة قد اختفت حتى لا يسأل
- عنها .. وأنكرت عنه كل شيء ..
- ماذا قالت له ؟
- قالت له إنها لا تعرف شيئاً ..
- ألم يسألها عنك ؟
- سألتها .. فقالت له .. إننى عزلت ولا تعرف مكانى ..
- لماذا قالت له ذلك ؟
- خافت ..
- وأنت ماذا فعلت ؟

- عدت إلى الصعيد . . ولم أعرف شيئاً بعد ذلك . .
- ما اسم هذه المرأة التي تسلمت منك الطفلة ؟
- مازنة حسن البرعى . .
- أين تقيم الآن ؟
- ماتت منذ زمن بعيد . .
- هل كان أحد في الحى الذى تقطنين فيه غير مازنة حسن البرعى
- يعرف محل إقامتك الجديد فى الصعيد ؟
- لا . .
- لماذا أخفيت عنوانك ؟
- زوجى هو الذى طلب منى ذلك . . حتى تنقطع علاقتى بالطفلة
- نهائياً . .
- ولماذا طلب منك ذلك ؟
- قال لى بعد أن تزوجنا بزمان . . إنه كان يغار منها . .
- كيف كان يغار منها ؟
- تسرب إليه الشك بأنها ابنتى غير الشرعية . . وأن حسوقى الذى
- كان يتردد علىّ هو والدها . .
- ووقفت طويلاً عند هذه الإجابة . وتريثت كثيراً قبل أن أسألها :
- وكيف تزوجك وعنده هذا الشك ؟
- اقتنع بخطئه . .

- هل كان دسوقي يتردد عليك وأنت متروجة ؟
- وأنا مخطوبة فقط . .
- وبعد أن تزوجت ؟
- سافرت مع زوجي مباشرة . .
- هل كان زوجك يرى دسوقي وهو يتردد عليك ؟
- كان يعرف . .
- ألم يلتق به ؟
- قابله مرة واحدة في ذلك الحين . .
- وبعد ذلك ؟
- تزوجني وسافرت معه . .
- ألم تحاولي بعد ذلك . . أن تعرفي شيئاً عن الطفلة ؟
- انقطعت عن القاهرة مدة . . ثم نسيها بعد ذلك . .
- تقول الفتاة إنك تعرفت عليها بعد ذلك وكنت ترددين على بيتها . .
- تعرفت عليها من سنة فقط . . بعد أن اشتغلت راقصة ..
- كم من السنين مرت على انقطاعك عنها . . ثم تعرفك عليها ؟
- أكثر من خمس عشرة سنة . .
- كيف تعرفت عليها ؟
- ذهبت مع زوجي ذات يوم إلى مدينة أسيوط . . وأدخلني سينا ..
- وشاهدتها ترقص في الفيلم . .

- وكيف تعرفت عليها بعد خمس عشرة سنة ؟
- الشبه . .
- كم كانت سنّها عند آخر مرة تركتها فيها ؟
- ست سنوات . . أو سبع سنوات تقريباً . .
- تقولين إن دسوقى ظل يتردد عليك خمس سنوات فقط ؟
- لا أستطيع أن أذكر كم سنّها على وجه التحديد . . وإنما ست
أو سبع سنوات تقريباً . .
- وفرضاً أن سنّها كانت سبع سنوات كما تقولين .. فهل فى استطاعتك
أن تتعرفى عليها بعد خمس عشرة سنة ؟
- أحسست أنها هى فعلاً . . وميزتها بعلامة فيها كنت أعرفها . .
- ما هى هذه العلامة ؟
- حسنة سوداء . . فى كتفها الأيمن من الخلف . .
- وهل هذا يكتفى ؟
- والشبه الكبير . . وإحساسى . . وفرحتى عندما شاهدتها ترقص . .
ورأيتها شابة جميلة جداً رائعاً . .
- وماذا فعلت بعد ذلك ؟
- انتهزت أول مرة ذهبت فيها إلى القاهرة مع زوجى وعرفت اسمها
وذهبت إليها فى بيتها . .
- كيف عرفت اسمها . . وعنوان بيتها ؟

— كان لزوجي قريب يبيع اللب والسوداني في إحدى دور السينما . .
 وذكر له اسم الفيلم . . وهو الذى دلنا على الاسم والعنوان . . ولما عرفناه
 ذهبنا إليها . .

— ذهبنا إليها بمفردك أم مع زوجك ؟

— بمفردى . .

— ولماذا لم يذهب زوجك معك ؟

— هو الذى أراد ذلك . .

وراودنى شيء . . وواتنى فكرة . . وبدأت أرى خيطاً جديداً
 يراقص أمام عيني . . فددت يدي وتناولت قلماً . . وكتبت أمراً بالقبض
 على الزوج . . وترحيله إلى القاهرة تحت الحراسة المشددة . . حتى
 لا يتصل به أحد . . ثم أعدت القلم إلى مكانه . . واستأنفت التحقيق
 معها ثانية . . وسألها ؟

— ولما ذهبنا إليها في أول مرة بعد هذه السنين . . ماذا حدث ؟

— أنكرتني في أول الأمر . . ثم لما تعرفت على كانت مفاجأة كبيرة

لها . . وارتمت في أحضانى وبكت كثيراً . .

— لماذا ؟

— لأنها كانت لا تزال تظن أنني أمها . .

— وقلت لها الحقيقة ؟

— طبعاً لا . .

— لماذا ؟

— أشفتت عليها من الصدمة . .

— أى صدمة ؟

— أن تعرف أنها بنت سفاح . .

— وماذا قالت لك عن تاريخ حياتها بعد تركك لها وهى طفلة ؟

— لم تقل لى شيئاً . .

— كيف هربت ؟

— لم تذكر لى شيئاً ؟

— وأنت ألم تسألها ؟

— الحقيقة أننى اجتثرت نفسى لأننى تخليت عنها وهى طفلة . .

— وكيف احترفت الرقص ؟

— قالت لى إنها صنعة تعيش منها . .

— ألم تقل لك شيئاً إطلاقاً فى هذا اليوم ؟

— كل الذى طلبته منى أن لا يعرف أحد أننى أمها . .

— ولماذا طلبت منك ذلك ؟

— قالت لى لأن هذا يؤثر عليها فى الوسط الذى تعيش فيه ؟

— وماذا كان قولك ؟

— وافقت . .

— لماذا وافقت ؟

- أردت أن أحترم شعورها أولاً .. ولأننى فعلاً لست أمها ..
- كم من الزمن مكثت عندها هذه المرة ؟
- يوماً واحداً فقط لأننى سافرت فى اليوم الثانى مع زوجى ...
- هل عرفت عنوانك فى الصعيد ؟
- قلته لها ...
- هل أعطتك نقوداً ؟
- عشرة جنيهات ..
- كم مرة ترددت عليها بعد ذلك ؟
- خمس مرات ..
- وكانت فى كل مرة تعطيك نقوداً ؟
- نعم ..
- أهى التى كانت تعطيك النقود .. أم أنت التى كنت تطلين منها ؟
- هى التى كانت تعطينى ..
- لماذا وأنت لم تطلى منها ؟
- لأننى فقيرة .. وأمها كما تظن ..
- كم كانت تعطيك من النقود فى كل مرة ؟
- عشرة جنيهات ..
- ألم تعطك أكثر من هذا المبلغ فى مرة من المرات ؟
- مرة واحدة أعطتنى خمسة عشر جنيهاً واشترت لى بعض الثياب ..

- لماذا في هذه المرة ؟
- كان بمناسبة أحد الأعياد . .
- أى الأعياد بالتحديد ؟ . .
- العيد الكبير . .
- تقولين إنك ترددت عليها خمس مرات . . فهل كانت كل مرة في البيت أو في غيره ؟
- في البيت . .
- كم كنت تمكثين عندها في كل مرة ؟
- يوماً . . أو يومين . . ولكنى مرة مكثت عندها سبعة أيام . .
- لماذا ؟
- كنت مريضة . . وعرضتني على طبيب . .
- وماذا قالت للطبيب عنك ؟
- أنا التى قلت له . .
- قلت له ماذا ؟
- قلت له إننى خادمة عندها . .
- ولماذا قلت له هذا ؟
- حتى لا أجرحها . .
- ألم تلاحظي أن أحداً كان يتردد عليها أثناء ترددك أنت عليها ؟
- لا . . لا . . لم أرَ أحداً قط يتردد عليها . .

— ألم تلاحظي أنها كانت على اتصال بأحد . . أو أن أحداً كان يتصل بها ؟

— لا . . لم ألا حظ . .

— ما هي ملاحظاتك على أخلاقها بصفة عامة ؟

— حسنة جداً . . وطيبة الخلق . . إلى حد التدوين . .

— ماذا تقصدين من كلمة تدوين ؟

— عندما ذهبت معها إلى الطبيب . . كانت تتصدق على الفقراء

ورأيها تضع مصحفاً تحت الوسادة التي تنام عليها . . ولا سألتها عنه . .

قالت إنها تبرك به . وتعتبره أنيسها في وحدتها . .

فأدهشني منها هذا القول . . وقلت لها وأنا أتأملها :

— هل صدقت هذا القول من راقصة ؟

فكان ردها سريعاً جداً . . وفي إيمان لا حد له :

— طبعاً صدقتها . .

— وما الذي جعلك تصدقين إلى هذا الحد ؟

— ما رأيته بعيني . . والمصحف الذي كنت في كل مرة أراه في

مكانه . . وعندنا مثل في الصعيد يقول «دائماً اللي في الجرة ، يطلع لبرة» .

— ما معنى هذا المثل ؟

— معناه إذا كان القلب نظيفاً . . فلا يمكن أن تتلوث الشفاه . .

فأدهشت لهذه الحكمة . . تصدر من مثل هذه المرأة الساذجة . .

وصمت لحظات رحت أفكر فيها وفي القضية التي أمامي .. وفي هذه الحفنة من الناس التي يتصرف فيها القدر بمثل هذه القسوة حتى إنه ينصف من يستحق الظلم ويظلم من يستحق الإنصاف . . ويجعلنا في كثير من الأحيان نعطي ما لله لقيصر . . ونعطي ما لقيصر لله . .

وعدت إلى التحقيق . . وظروف الجريمة . . واسترجعت بعض الأقوال . . ورأيت بعض الخيوط التي بدأت تتوضح أمامي وتثير لي الطريق . . وبعض الخيوط الأخرى التي ما زالت سوداء حالكة السواد .. حتى لتكاد تغرقني في ظلمة سوادها . . ولا راجعت الأقوال التي أمامي مرة أخرى . . رأيت أشياء كثيرة . . ما زالت في حاجة إلى إيضاح . . ولذلك تفاضيت عما أشعر به من إرهاق . . وما تشعر به أيضاً المرأة التي وقفت أمامي ما يزيد على الثلاث ساعات حتى تعبت وهتت أنفاسها . . وراحت تتصبب عرقاً . . تفاضيت عن ذلك كله . . واستأنفت سؤالها ثانية . . وقلت :

— جاء في أقوالك . . أن دسوقي ظل يتردد عليك بصفة منتظمة ما يزيد على الخمس سنوات . .

— نعم . .

— هل كانت السيدة التي ذكرت أوصافها تتردد عليك أيضاً ؟

— لا . . ولم أرها بعد المراتين كما ذكرت . .

— ألم تسأل عنها دسوقي ؟

— سألته . .

— وماذا قال لك ؟

— قال لي في أول الأمر إنها مريضة .. ثم قال لي بعد ذلك إنها مائت ..

وكنت أدهش لهذا القول .. الذى لو صح لتغير وجه التحقيق . .

ولذلك سألتها في دهشة ؟

— وهل صدقت هذا القول ؟

— فعلا صدقته . . وظللت أصدقه . . إلى أن جاءنى بنفسها في

الصعيد مع دسوقى .

فانفتحت فجأة أمامى طاقة جديدة .. نظرت منها إلى أشياء كثيرة، وقلت :

— تقولين إنها جاءت إليك فى الصعيد . . وكان معها دسوقى ؟—

— نعم . .

— هل أنت متأكدة من هذا القول ؟

— طبعاً . .

— منذ متى جاءت إليك ؟

— من سنة تقريباً . .

— اذكرى التاريخ بالضبط . .

— فصمتت قليلاً ثم قالت :

— من تسعة أشهر . .

— لماذا حددت هذا التاريخ ؟

— لأنها جاءتني في رمضان . . ورمضان قادم بعد ثلاثة شهور
تقريباً . .

— هل أنت متأكدة من أنها جاءت إليك في رمضان ؟

— نعم . . لأنني كنت صائمة . .

— وهي ؟

— الله يعلم . .

— هل تناولت في بيتك طعاماً مثلاً ؟

— إنما لم تحضر إلى في بيتي . .

— أين حضرت إليك إذن ؟

— في المحطة . .

— أي محطة ؟

— محطة البداري . .

— اذكرى الذي حدث بالتفصيل . .

— ذات يوم . . كنت في بيتي . . ففترق الباب . . ولما فتحت . .

وجدتني وجهاً لوجه أمام دسوقي . .

— ماذا كان موقفك ؟

— اندهشت طبعاً . .

— عندما وقعت عينك عليه . . عرفت من هو ؟

— نعم عرفته على الفور . .

— ألم يتغير فيه شيء ؟

— شاب شعره فقط . .

— وهو . . هل تعرف عليك ؟

— نعم . . وقال لى أنا دسوق . .

— وبعد ؟

— رجبت به . . وطلبت منه أن يدخل . . ولكنه طلب منى أن أحضبه

إلى استراحة المحطة . . فذهبت معه . .

— لماذا طلب منك إن تصحبيه إلى استراحة المحطة ؟ . .

— قال لى إن السيدة التى كانت قد جاءتنى من أجل الطفلة معه . .

وتنتظرني هناك . .

— كيف قال لك هذا . . وقد سبق له أن أخبرك بموتها ؟

— قلت له هذا . . فنظر إلى الأرض وقال . . إن الله حلیم ستار . .

ولما ذهبت معه وجدتها فعلا هى . .

— هل أنت متأكدة من أنها هى ؟

— طبعاً . . وسلمت عليها . . وسلمت على . .

— وهل تعرفت عليها بعد مرور أكثر من خمس عشرة سنة . . كما جاء

في أقوالك ؟

— وحتى بعد خمسين لا بد أن أعرفها . .

— ألم يتغير فيها شيء . .

- طبعاً تقدمت بها السن . . وابيض شعرها . .
 — وماذا قالت لك ؟
 — كانت تظن أن الفتاة ما زالت عندي . . وكانت تريد أن تراها . .
 — وماذا قلت لها ؟
 — قلت لها الحقيقة . .
 — أى حقيقة ؟
 — لأنى لما تزوجت . . وتركت القاهرة . . تركتها أيضاً . . ولم أعرف
 عنها شيئاً . . كل هذه السنين . . إلى أن تعرفت على صورتها أخيراً وهى
 ترقص فى السينما . .
 — وماذا كان شعورها عندما قلت لها هذا ؟
 — بكنت كثيراً جداً . . وطلبت منى أن تعرف عنوانها فى القاهرة . .
 — وهل ذكرت لها عنوانها ؟
 — نعم . .
 — كيف ذكرت لها العنوان . . وأنت تقولين إن الفتاة تعتمد أنك
 أمها . . وأنتك تخشين عليها من الصدمة ؟
 — أثير فى بكاؤها . . فأشفقت عليها وأنا وإن كنت لم أنجب إلا أننى
 أعرف قلب الأم . .
 — إذن أنت تقطعين بأنها أمها فعلاً ؟
 — قلبى كان يحدثنى دائماً بذلك . .

— قلت في أول التحقيق . . إن حكمك عليها أنها ليست من النساء

لياهن ؟

— قد يخطئ الإنسان على الرغم منه . .

— حتى في شرفه ؟

— الله يعلم بالأسباب . .

— وإذا كانت أمها كما تقولين . . فأين كانت كل هذه المدة ؟

— قالت إنها ظلت كل هذه السنين تبحث عن عنواني إلى أن اهتدت

إليه أخيراً . .

— وكيف اهتدت إليه ؟

— قالت لي إنها عرفت من عم نوفل . . بعد أن خرج من السجن . .

— من عم نوفل ؟

— كان يبيع الحروب والعرقسوس . . على رأس الحارة . .

— ولماذا سجن ؟

— كان يتجسس في المخدرات . .

— وهل كان يعرفك ؟

— كان يعرف كل سكان الحارة . .

— وهي كانت تعرفه ؟

— قالت لي إنها أعطته نقوداً . . وذكرت له اسمي وأوصاني . . وظل

يبحث عني إلى أن عرف اسم زوجي وأبلى الذي سافرت إليه . .

- هل ذهبت معك في هذا اليوم إلى بيتك ؟
 - لا . . . وقد سافرت مع دسوقي في نفس اليوم . .
 - إلى أين سافرت مع دسوقي ؟
 - لا أعرف . . ولكن إلى القاهرة طبعاً . .
 - هل ذهبت إلى الفتاة بعد أن تعرفت على عنوانها ؟
 - لا أدري . . فأنا لم أسافر إلى القاهرة منذ هذا التاريخ . .
 - هل حضر زوجك هذه الواقعة ؟
 - لا . . وإنما ذكرتها له . .
 - هل أعطتك نقوداً في هذا اليوم ؟
 - أعطتني خمسة جنيهات . .
 - لماذا . . ما دامت الفتاة ليست عندك ؟
 - قالت لي لأنني ذكرت عنوانها . .
 - هل إذا شاهدت هذه السيدة . . يمكنك التعرف عليها ؟
 - نعم . . أتعرف عليها . . حتى ولو كانت بين ألف . .
- ففتحت درج مكتبي وأخرجت منه مظروفاً كانت به عدة صور
 لنساء مختلفات . . ومن بينها صورة للمعجى عليها . . وناولتها المظروف . .
 وطلبت منها أن تخرج صورتها من بين هذه الصور . . وما إن فعلت
 ورأت صورتها . . حتى انتزعها من بين مجموعة الصور . . وقدمتها لي
 وهي تقول مبتسمة وكأنها تزهو بانتصارها :

— هذه هي نفسها السيدة التي أتحدث عنها . .

* * *

اطمأننت إلى هذه النتائج . . وإلى هذه الخيوط الكثيرة التي بدأت أمسك بها في يدي . . وكان الليل قد انتصف أو كاد . . فاكثفت بهذا القدر . . وأمرت بإعادة المرأة إلى السجن . . ووضعها في مكان بعيد عن الفتاة . . بحيث لا تتصل بها أو حتى تراها . . ثم استدعيت الفتاة إلى مكثي قبل أن تنصرف . . وكانت شاحبة مضطربة . . مقرحة العينين من أثر بكاء طويل . . وكانت قلقة . . تريد أن تعرف مصيرها . . فطمأنتها وأفهمتها أن الأمر لا يزيد على بعض الإجراءات التي يجب أن تتخذ . . وسألتني . . هل استدعيت أمي . . واستشعرت مرارة لهذا السؤال . . . وأشفقت عليها من قلبي . . إذ ما زالت تظن أن هذه المرأة هي أمها فعلا . . وتذكرت قول المرأة في التحقيق من أنها أشفقت عليها من ذكر الحقيقة . . لأنها خشيت عليها من الصدمة . . وكأنني أنا الآخر أشفقت عليها من الصدمة . . ولذلك قلت لها . . إنه فعلا قد تم القبض عليها . . ولكني لم أسألها بعد . . وكنت قد أرجأت عملية المواجهة حتى يتم القبض على الزوج . . وسأله . . وأواجه الثلاثة بعضهم ببعض . . المرأة والزوج والفتاة . .

ووجدتني وهي تنصرف أزيد من طمأنينتها مرة أخرى كما وجدتني أيضاً أطلب لها طعاماً معيناً . . وأعطى لأحد الحراس خمسة جنيهات ،

لتكون تحت إذن الفتاة تطلب منها ما تريد من طعام مدة التحقيق . .
 ومع أن هذا قد يخالف بعض اللوائح . . إلا أنني باطمئنان وراحة بال
 وضمير . . تفاضيت عما في هذا من مخالفات . . ولما انصرفت . . مكثت
 في مكنتي بعض الوقت . . راجعت فيه بعض صفحات التحقيق . .
 ومطابقة أقوال الفتاة لما قالته هذه المرأة . . وخصوصاً في ما يتعلق بالخجى
 عليها . . وفي ما كان خاصاً بلسوق بالذات . . الذى أصبح هو مفتاح
 كل شيء في هذه القضية . . وفكرت في أن أتصل بنبابة الغريبة . .
 وأطلب من الزميل وكيل النيابة الذى حقق معه تحت إشرافى أول مرة . .
 أن يقبض عليه فوراً . . ويرسله إلى تحت الحراسة الشديدة . . ولكنى لم
 أستصوب هذا التصرف . . وفكرت في طريقة أخرى . . استعملتها كثيراً
 في بعض التحقيقات . . ونجحت معى إلى حد كبير . . وهى أن أدعوه
 لزيارتي . . في القاهرة بحجة أنني أريد أن أراه . . ولا سيما أنني أظهرت له
 إعجابى بشخصيته عندما رأيته أول مرة . . وسوف يصدق هذا بطبيعة
 الحال . . وعندما يجرى إلى مكنتي . . أفاجئه بالحقائق التى ستأخذ بخناقه
 فجأة . . ولا تجعل له فرصة يهيئ فيها ذهنه . . للمغالطة . . والإنكار
 وعدم ذكر الحقائق . .

عدت إلى بيتي في هذه الليلة . . وظروف هذه القضية تستحوذ على تفكيرى كله . . والأقوال التى استمعت إليها . . تدور في ذهنى . . وترن في أذنى . . وظروف هذه الجريمة التى ما زالت حتى الآن غامضة . . تراقص خيوطها أمام عيني . . فقد أصبح من المقطوع به أن الهجنى عليها هى أم الفتاة . . وأنها ولدتها سفاحاً . . وأن الفتاة لم تعرف ذلك إلى الآن . . وأن الأم لظرف ما لم تذكر هذا للفتاة . . وأيضاً لم تتخل عنها . . بدليل أنها ظلت تبحث عنها كل هذا الزمن الطويل . . إلى أن التقت بها فى آخر الأمر تعمل راقصة . . فذهبت إليها تحت زى المعجبة . . والمخلصة . . والصديقة . . حتى اطمأنت إليها الفتاة . . ولما اطمأنت إليها . . حاولت كما جاء فى أقوال الفتاة . . أن تجعلها تمتنع عن الرقص . . حتى ولو تورثها كل ما تملك . . وهذا دليل قاطع على أنها أمها فعلاً

. . . ولكن إذا كانت أمها فعلاً . . كما هو واضح حتى الآن . . فما الذى منعها من أن تعرف لما بالحقيقة ؟ هل خشيت من أحد . . ومن تخشى إذا كانت كما ظهر من التحقيق . . لا أهل لها . . ولا أقارب . . ولا حتى أصدقاء . . وهل كانت تخشى مثلاً الرجل الذى ارتكب معها هذا الإثم . . والذى هو والد الفتاة . . وإذا كانت تخشاه . . وتخشاه

إلى هذا الحد . . فلماذا لم تظل حلاقتها به قائمة . . ولماذا لم تتوجه مثلاً . .
أو على الأقل يتردد عليها . . أو يتردد هي عليه . . وثابت من التحقيق
حتى الآن أنه لا أحد كان يتردد عليها . . ولم يتردد هي على أحد . .
وإذا كانت الجريمة وقعت فعلاً بسبب الفتاة . . باعتبارها ثمرة العار
وعنوانه . . فلماذا لم تقتل الفتاة . . ووسائل قتلها مهينة للجاني تماماً . .
لأنها هي الوسائل نفسها التي هيأت له ارتكاب الجريمة . . باعتبار أن
الفتاة كانت تتردد على البيت نفسه . . وتبيت فيه . . بل في المكان نفسه
الذي ارتكب فيه القاتل جريمته . . وإذا أخذنا بهذا القول . . وقطعنا بأن
الجريمة وقعت بسبب الفتاة . . فمن يكون مرتكبها . . والتحقيق حتى
الآن . . ورغم الحقائق البالغة الأهمية التي أسفر عنها التحقيق . . لم يرسل
حتى بصيصاً واحداً . . نستطيع أن نستدل به على الجاني . .
وتذكرت دسوقي . . وموقفه الغامض حتى الآن . . وكيف أنه
كما أشار التحقيق يكاد يحمل مفتاح السر الحقيقي للجريمة . . ووقف
ذهني عند هذا الرجل طويلاً . . ووجدتني تلقائياً أسأل نفسي هذا السؤال :
— لماذا لا يكون دسوقي هو القاتل . . ولماذا أيضاً لا يكون هو الأب
غير الشرعي للفتاة — وكثير من صفحات التحقيق تكاد تشير إلى هذا —
ولكن إذا كان هو فعلاً . . فلماذا قتلها ؟ . . إن الثابت حتى الآن أن
علاقته بالجنين عليها ظلت — كما ورد في التحقيق على لسان الفتاة ولسان
المرأة أيضاً — على أحسن حال . . من الود . . والإخلاص . . والتفاني

فى خدمتها . . وما دام الأمر كذلك . . فلماذا لم يتزوجا . . ويعترفوا ببنة
الطفلة التى هى ابنتهما فعلا ؟ ؟ وهل منعهما شىء من الزواج . . هل
منعهما مثلا . . ذلك الفارق الاجتماعى بين الاثنين . . هو كخادم . .
وهى كمخدوم . . واكتفيا بأن تظل العلاقة بينهما سرّاً . . وأن لا يذكر
شيئاً للفتاة . . وأن الذى ساعدهما على هذا . . على استمرار هذه العلاقة
بينهما كل هذه السنين . . هو هذا الفارق الاجتماعى بين الاثنين . . هذا
الفارق الذى هو يقدّر ما أبعد عنهما الشبّات . . وطد العلاقة بينهما سرّاً . .
وجعلها قائمة بينهما كل هذه السنين الطوال .

وما إن فكرت فى هذا . . واستوعبته تماماً . . ورجحت عندى كفته
حتى انبثق فجأة أمام عيني خيط باهر النور . . جعلنى أعتقد اعتقاداً
لا يرقى إليه الشك . . فى أن القاتل هو دسوق . . وأن الجريمة لم ترتكب
بسبب الفتاة أو غيرها . . وإنما ارتكبت بسبب الغيرة . . إذ اكتشف
دسوق . . أن للمجنى عليها عاشقاً غيره . . هو الرجل الذى شاهدته الفتاة
يتسلل من مخدع المجنى عليها فى الليل . . ويؤيد هذا القول ما جاء على
لسان الفتاة من وصف دقيق للحادث . . عندما ضبّطت المجنى عليها
ومعها رجل فى مخدعها . . والحال الذى كانت عليها المجنى عليها . . قميص
النوم الذى كانت ترتديه . . وارتباكها الزائد عندما اكتشفت الفتاة أمرها .
وضبطها فى حال تكاد تشبه التلبس .

وكنت قد وصلت إلى بيتى فى تلك الليلة . . وكان البيت الذى نقطنه

قصرأ على النيل . . كانت قد ورثته أمى عن جدّها . . وكانت أهباء
 القصر وحديقته الواسعة مكتظة بالناخبين من أهل الدائرة . . التى كان
 أبى مرشحاً لها لعضوية الشيوخ . . وكان يبنى على نجاحه فى هذه
 الانتخابات الكثير من الآمال العراض . . ولذلك كان اهتمامه بهذه
 المعركة زائداً . . يشغل كل وقته . . وكل تفكيره . . وكنت متعباً جداً . .
 وأشعر بإرهاق شديد . . فقد ظلت ما يزيد على اليومين فى تحقیقات
 دائمة . . ولذلك فكرت أن أتسلل من الباب الخلفى للقصر . . ولا أدخل
 من باب الحقيقة . . حتى لا أشارك فى هذا النفاق الاجتماعى . . وأظهر
 بغير مظهرى . . كما يتطلب حال الانتخابات دائماً . . فأنت فيها مضطر
 إلى أن تعامل السفلة وقطاع الطرق ، كما لو كانوا من الأنبياء والرسل . .
 كما أنك لا تجد فيها من يحتفى بك . . ويشيد بفضلك . . ويعانقك
 بحرارة . . إلا وهو لك من أشد الخصوم . . ولذلك عندما هبطت من
 السيارة أردت أن أتسلل خفية من جانب السور حتى لا يرانى أحد ، غير
 أننى فى أثناء ذلك سمعت صوت أحد الخطباء . . فوقفت أستمع إليه . .
 وقد أطربنى كثيراً إشادته بأبى . . وما أسبغ عليه من صفات ووصفه
 من وصف . . فما جعلنى أكاد من الزهو أهتر فى مكائى طرباً . . ومع
 ذلك عندما انصرفت .. وجدتنى أسأل نفسى .. أهذا الخطيب مأجور ..
 أم هو مقدر ؟ ! وهل هو يقول هذا من قلبه . . ويدافع الحقيقة . .
 أو هو يقوله من جيبه . . ويدافع النقود التى تحتفظ بها حافظته ؟ !

ومع ذلك لم أهتم إلى جواب . . ذلك لأننا أحياناً لا نستطيع أن نفرق بين الزيف والأصل . . ولا بين الصدق والكذب . . إذ في كثير من الأحيان يكون طلاء الزيف أشد إقناعاً . . وتكون حرارة الكذب أشد تأثيراً . .

ثم انصرفت إلى الداخل . . وصعدت مباشرة إلى الطابق العلوى من القصر ، حيث كانت والدتى فى غرفتها تعاني آلام الربو الذى أخذت أزمته تشتد بها فى تلك الأيام . . وكنت من ثلاثة أيام لم أرها . . فجلست معها حيناً . . وأطلعنى على سير المرض . . ونتيجة الدواء . . وكيف أنها بدأت تشعر بتحسن ملموس . . غير أن الذى كان يضايقها هو انشغال أبى فى معركة الانتخابات . . والمتاعب التى يلاقها فى سبيل ذلك . . والمبالغ الباهظة التى ينفقها . . حتى إنه أنفق إلى الآن - ولما تنته المعركة بعد - ما يزيد على العشرة آلاف من الجنيهات . وكانت أوى متاعبة لهذا تأثراً كبيراً . . مما زاد فى أمراضها . . ومع ذلك لم أرد أن أقول لها شيئاً لأننى لم أشأ أن أقول لها الحقيقة التى أعرفها . . عن أبى . . وهى أنه على استعداد لأن يضحى بكل ما يملك فى سبيل الحصول على مجد جديده . . فقد كان طموحاً . . وكان طموحه لا يقف عند حد . . ولذلك فهو على استعداد الآن لأن ينفق مئات الألوف من الجنيهات . . لا عشراتها . . وأن يضحى بكل شئ حتى بصحته . . كل ذلك فى سبيل نجاحه فى هذه المعركة .

لم أشأ أن أقول لوالدتى شيئاً من هذا . . ولذلك غيرت دقة الحديث . . ورحت أتحدث إليها عن المرض ثانياً . . والمريض يلذ له دائماً أن يتحدث

عن المرض والطب والدواء . . وما إلى هذا من أشياء يستشعر هو أهميتها قبل غيره . . ومكثت أتحدث معها بعض الوقت . . وكان أبى قد علم بوجودى فى البيت . . وبأننى فى الطابق العلوى . . فاستدعانى إليه فوراً فى الحديقة ليقدمنى إلى البارزين من أهل الدائرة . . أو على الأصح يقدمهم إلى . . . فقد كان يفخر بى كثيراً . . . ويزهو بمركزى فى القضاء وبمنصبى كأحد رجال الضبط والربط فى الحكومة . . وكان هذا كله من غير شك يقوى من مركزه كوالدى عند هؤلاء السذج من الناس .

وبرغم إرهابى الشديد فقد لبيت طلبه وذهبت إليه ووقفت على قدمى ما يزيد على نصف الساعة . أصافح هذا وأعانق ذاك وأبتسم لهذا ألتئم وأطرب لهذا المديح وأصفق لهذا الخطيب وأستعيد أبيات هذا الشاعر . . حتى كدت أنا الآخر أشارك مشاركة فعلية فى هذا التفاف الكبير ، لولا أننى وجدت أمامى مصادفة . . الشيخ مروان عمدة القرية التى يتبعها دسوق الذى سبق سماع شهادته فى القضية . . والذى هو باعتبار ما سيكون — إذا صدق حدسى — المتهم الأول فى القضية . . وقلت هذه فرصة أستدرج فيها العمدة دون أن يظن لعلنى أعرف ما يهمنى معرفته عن دسوق قبل أن أقبض عليه وأسأله رسمياً ، أو أوجه إليه تهمة القتل .

وانتهزت فرصة حفاوة العمدة بى وسعادته بالجلوس فى حضرتى واسترسلت معه فى الحديث . . وسألته عن حال المحصول الزراعى هذا العام . . وما سببته الإصابات فى محصول القطن هذه السنة . . ثم سألته عن حال

الأمن في الأرياف وأظهرت له إعجابي به وتقديرى له . . لقلة الحوادث في منطقته . . وكثرتها في المناطق الأخرى - مع أن العكس هو الصحيح - فزاد هذا في طربه وسعادته مما جعله يكاد يرقص فرحاً . . وهكذا ظلمت به حتى جعلته هو الذى يطرق حديث القضية . . ويسألنى عما تم بشأنها . . فقلت له دون مبالاة . . وكأننى أتحدث عن شيء لا أهمية له . . إنها أوشكت على الانتهاء . . وسوف تقيد ضد مجهول . . فقد ثبت من التحقيق تعذر معرفة الجناة . . فراح يترحم على المخني عليها . . التى كانت - كما قال - المثل الأعلى للأخلاق الطيبة والسجايا الكريمة . ولما سألته هل كان يعرفها عن قرب ؟ . . قال : إنه كان يسمع عنها فقط . . لأنها كانت تقيم دائماً في القاهرة . . وإنما حدثه عنها كثيراً دسوقي ، الذى كان على اتصال دائم بها . .

وبعنا ذكر اسم دسوقي بطبيعة الحال إلى التحدث عنه كثيراً . وراح الرجل يمتدحه . . ويشئى على أخلاقه ويعدد مناقبه وسجاياه وإيمانه الذى لا حد له ووفاءه الذى كان يشبه وفاء الملائكة للمجنى عليها . . وكيف أنه كان لها أباً وأخاً وخادماً . . وكيف أن حزنه ما زال عليها إلى الآن قائماً . . وبكائه عليها لا ينقطع . . وكان أبى قد حضر طرفاً من هذا الحديث فأمن على القول . . وقال إنه وإن كان لا يعرف دسوقي معرفة مؤكدة أو تربطه به صلة . . إلا أنه سمع عنه الكثير من الثناء . . وانتهزت أنا هذه الفرصة المواتية . . وألقيت بالحجر الذى أريد . . ورحت

أنا أيضاً أننى عليه وعلى ما ظهر لى من أخلاقه الطيبة أثناء سؤاله فى القضية . وكيف أننى أحببت فيه الكثير من الصفات . . منذ ذلك اليوم . . وكيف أنه حاول أن يكرمنى أنا بالذات كرمًا حاتمياً عندما انتقلت إلى بيته أنا والزميل وكيل نيابة الغربية الذى كان يحقق معه بحضورى . . وأن يقدم لنا الفطير والزبد والدجاج وطواجن الفريك المحشوة بالحمام . . مما يجعلنى الآن أفكر فى دعوته لزيارتي فى القاهرة . . ولما أظهرت صادق هذه الرغبة تطوع العمدة سريعاً بتنفيذها . . وأخبرنى بأنه بمجرد وصوله إلى القرية فى مساء الغد . . أو صباح بعد غد على الأكثر . . فسوف يبعث به إلى . . وسوف يسره هذا ويسعده كثيراً . . بل يزيده فخراً . . وشعرت باطمئنان زائد إلى هذه الوسيلة التى سأستدرجه بها إلى دون أن يتسرب إليه أدنى شك فى السبب الذى أدعوه من أجله . . ثم تحدثنا بعد ذلك بعض الأحاديث العابرة إلى أن انفض ذلك السامر الانتخابى الكبير . . وانطفأت شعلة التفاف الاجتماعى التى تشتعل فى هذه المناسبات . . وذهبت لتتروود بالوقود . . لتشتعل وتضيء فى الليلة القادمة . . وجلست مع أبى الذى كان بادى التعب والإرهاق إلى تحد كبير . . بعض الوقت فى الصالون . . ريثما يشرب فنجاناً من القهوة . . فقد كان من عادته أن يشرب القهوة لينام . . وكنت أقدر فيه هذه الأعصاب . . وتطرق بنا الحديث فى هذا الوقت القصير إلى أمور عدة . . تحدثنا عن والدتى ومرضاها . . وعلة الربو التى بدأت تأخذ بمخناقها . . وتحدثنا عن الانتخابات

ومتاحها . . ومركز المنافس لأبي من حيث القوة والضعف . . والأمل الكبير الذى يئنيه أبى على الحفل الانتخابى الضخم الذى سيقمه قريباً . . ويحضره زعيم الحزب الذى ينتمى إليه .

ثم تطرق بنا الحديث إلى عمل وبعض القضايا التى أهتم بها . . وسألنى عن ظروف بعضها وملاساته . . فقد كان دائماً يهتم بعمل ويتبع خطوات نجاحي . . وكنت أحياناً أشرح له بعض الدقائق . . وكان هو يبدى لى بعض الآراء الصائبة . . التى كثيراً ما كنت آخذ بها . . وأذكر أنه ذات مرة وجه نظرى إلى نقطة كانت غائبة عني . . فى إحدى القضايا السياسية الهامة التى كان لها بعض الدوى فى ذلك الحين ، وفعلًا كانت هى نقطة التحول الخطير فى القضية . . والثقب الذى نفذنا منه إلى الحقيقة كاملة .

ثم تطرق بنا الحديث إلى هذه القضية بالذات . . فذكرت له الحقائق الغريبة التى وصل إليها التحقيق حتى الآن . . وكيف أنه اتضح أن الفتاة التى قبض عليها لم تكن ابنة هذه المرأة التى ظلت كل هذه السنين توهمها بأنها أمها . . وأنها ابنة سفاح . . وأن جميع الخيوط بدأت تتجه الآن . . وتستقل من الشك إلى مرتبة اليقين بأنها ابنة المحبى عليها . . وأن القتال هو دسوق . . وفرح أبى كثيراً بهذه المعلومات التى وصلت إليها . . ولكنه اندهش دهشة كبيرة . . إذ كيف يرتكب دسوق هذه الجريمة الفظيعة . . وهو الذى نقول عنه ما نقول ونصفه بما نصف . . وما زالت دموعه على القتيلة لم تجف حتى اليوم . . فأفهمته بأن كثيراً من الذئاب إذا تأصلت

فيها مجنور الضراوة ترتدى زى الحمل . . فازدادت دهشته . . وسألني في استغراب كثير . . لماذا والأمر كذلك لم أقبض عليه حتى الآن . . بل لماذا كنت أتحدث عنه هذا الحديث مع العمدة . . فأفهمته بنظريتي . . فلم يقتنع بها . . وطلب مني سرعة القبض عليه فوراً . . ولكني لما شرحت له نظريتي وكيف أنها نجحت معي في أكثر من قضية . . ومع أكثر من منهم . . انصرف وهو يدعو لي بالتوفيق في كل خطواتي . .

في الصباح . . ذهبت إلى مكتبي . . واستأنفت التحقيق في القضية .
 وكان زوج نظيرة الذى ورد ذكره في التحقيق قد قبض عليه . . وتم ترحيله .
 فاستدعيته إلى " في الحال . . ولا مثل أمامى رأيت رجلاً غليظ القلب . .
 تتسم نظيرته بالقسوة والعنف . . وله تجاعيد متعلو بعضها على البعض
 الآخر . . وملتوية أشبه بالتواء جسم الأفعى . . الذى يكمن وراء الشر . .
 ولذلك انتظرت منه الكثير من المتاعب . . ولكى أحطم فيه هذه
 الغلظة ، وأحد من قسوة هذه النظرات التى تنبعث من عينيه الجاحدين . .
 قلت له في غلظة وأنا أنظر إليه قبل أن أبدأ معه التحقيق ، وأدون أقواله
 في المحضر :

— أنت متهم بجريمة قتل . .
 فلم يحرك فيه هذا القول ساكناً . . أو حتى تطرف له عين . . وإنما
 قال وهو يبتسم في هدوء لا حد له :
 — أما إننى متهم بجريمة قتل . . فهذا شيء . . وأما إننى لم أقتل
 في حياتى حتى دجاجة . . فشئ آخر . .
 وأعجبني منه هذا الرد الذى ينطوى على سخرية لازدة . . وفي الوقت

نفسه ينم عن اطمئنان عجيب . . ثم بدأت معه التحقيق . . وبعد أن سألته عن اسمه وسنه وعمل إقامته . . وبعض أسئلة أخرى سريعة قلت له :

— هل أنت متزوج من نظيرة أحمد البسيوني ؟

— نعم .

— منذ متى تزوجتها ؟

— لا أدري . . وإنما هي سنين طويلة . .

— اذكر التاريخ على وجه التحديد . .

فقال وهو يخرج من صدر ثوبه . . حافظة جلد كبيرة لها عدة أزرار

نحاسية لامعة . . ويخرج منها ورقة . . ويقدمها لى :

— هذه قسيمة الزواج . .

وأدهشنى أنه يحملها فى جيبه . . فقلت :

— هل أنت تحمل هذه القسيمة فى جيبك دائماً ؟

— لا . .

— لماذا إذن تحملها فى جيبك الآن ؟

— احتفظت بها معى عقب القبض على زوجتى . .

ولما قارنت التاريخ والوقائع التى ذكرتها زوجته . . ووجدتها مطابقة

تماماً . . قلت :

— هل كنت تعلم سبب القبض على زوجتك ؟

— طبعاً . .

— ما هو ؟

— علاقتها بهذه الفتاة التى تشغل راقصة .

— فقط ؟

— وعلاقتها أيضاً بتلك السيدة التى وجدت قتيلة فى بيتها . .

— من أين عرفت هذه المعلومات ؟

— من زوجتى . . وأنا أيضاً كنت أعرف بعض المعلومات . .

— ما هى هذه المعلومات التى تعرفها ؟

— أن زوجتى كانت تتبنى هذه الفتاة وهى طفلة . . وأنها كانت

تعرف القتيلة .

— هل كانت زوجتك تتبنى الطفلة . . أو هى ابنتها فعلاً ؟

— لا . . لا . . كانت تتبناها .

— قالت زوجتك فى التحقيق . . إنك اتهمتها يوماً ببثوث هذه الطفلة . .

— شككت فقط . .

— ما هو سبب هذا الشك ؟

— الحقيقة أنى لما وجدت هذا الرجل الرقيق الذى كان يتردد على

زوجتى — قبل أن أعقد عليها . — ليعطيها بعض النقود لتنفق منها على

الطفلة . . ووجدت حبه الزائد للطفلة وعطفه عليها . . وبكاءه أحياناً إذا

رأها . . ورأيت أيضاً تعلق زوجتى الزائد بالطفلة — شككت فى الأمر .

— شككت فى ماذا ؟

— في أن الطفلة ابنة زوجتي من هذا الرجل .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— دسوقي .

— ما هي أوصافه ؟

ولا وصفه وصفاً دقيقاً . . يطابق الحقيقة . . قلت :

— وصفت زوجتك في التحقيق دسوقي بأنه كان على شيء كثير من

التقى والتدين والخلق الحسن . . وأنه كان يصلي دائماً . . فكيف يتسرب
إليك الشك . . إذا كان كذلك فعلاً ؟

— الحقيقة أنا لا أطمئن كثيراً . . لبعض الذين يتظاهرون بالتقوى

والصلاح . . . وكثرة الصلاة . .

— هل كانت زوجتك كذلك ؟

— لا . .

— لماذا شككت فيها ؟

— هكذا حدثتني نفسي . .

— ولماذا لم تطلب من زوجتك التخلي عن الطفلة ؟

— رفضت . . وكنت لم أحقد عليها بعد .

— ألم تذكر لك سبب الرفض ؟

— كانت فرحة جداً بالثلاثة جنينها التي كانت تأخذها في كل

شهر . . والحقيقة أن هذا المبلغ في ذلك الحين كان ثروة كبيرة . .

- قلت إنك كنت تشك . . فإلّا الذى أزال شكوكك ؟
 - الحقيقة . . والأحاديث التى كنت أسمع إليها خلّسة تدور بين
 زوجتى ودسوقى كلما جاء إليها . .

- تقول الحقيقة . . فما هى الحقيقة ؟
 - تأكلنى من أن زوجتى لم تتعرف على دسوقى إلا بعد أن عثرت
 على الطفلة فى الطريق بما يزيد على الشهر . . وبعد أن تعرفت على القتيلة،
 وأن دسوقى لم يكن أكثر من رسول بين زوجتى وبين أم الطفلة . .

- من هى أم الطفلة ؟
 - الله يعلم . .
 - تقول أم الطفلة . . معنى ذلك أنك تعرفها . .
 - أعتقد أنها هى السيدة التى كانت تردّد على زوجتى فى أول الأمر
 من أجل الطفلة . .

- ما الذى جعلك تعتقد ذلك ؟
 - الأحاديث التى أسمعها تدور بين زوجتى ودسوقى . .
 - ما هى هذه الأحاديث ؟
 - عطف دسوقى على تلك السيدة وحديثه عنها بالخير دائماً . . وكيف
 أنها لم تكن لتستحق هذا العذاب الذى تعيش فيه من أجل هذه الطفلة .
 وقوله دائماً كلما سألته زوجتى عن شىء . . إن الله حلّم ستار . . وربنا
 يجازى أولاد الحرام . .

- وهل هذا كاف ليجعلك تعتقد هذا الاعتقاد؟
 — طبعاً . . وإلا فلماذا سعت إليها وتعرفت على مكانها . . وظلت
 تتمد زوجتي بالنقود . . من أجل الطفلة كل تلك السنين ؟
 — إذا كانت ابنتها فعلاً . . فلماذا تخلت عنها ؟
 — ظروف . .
 — قالت زوجتك في التحقيق . . إن هذه السيدة قالت لها إن الطفلة
 ابنة قريبة لها وليست ابنتها . .
 — طبعاً تقول ذلك . .
 — ما الذى يجعلها تقول ذلك ؟
 — الظروف . .
 — ما هى هذه الظروف ؟
 — الله يعلمها . .
 — هل هذه فقط الأسباب التى أزالته شكوكك ؟
 — نعم . .
 — وهل تظنها كافية لتزيل شكوكك ؟
 — طبعاً . . والدليل أننى عندما عقدت على زوجتى . . وطلبت منها
 أن تتخلى عن الطفلة . . تخلت عنها نهائياً . .
 — ولماذا لم تكن قد فضلتك كزوج . . على الطفلة كابنة ؟
 — ليس فى الوجود ما يفضل الضنى . . أو يجعلنا نتخلى عنه . .

— إذن لماذا تخلت تلك السيدة عن طفلها . . وألقت بها في الطريق ؟

— الشرف فقط . . هو الأعلى ثمنًا . .

— أى شرف . . وهى قد ولدتها سفاحًا ؟

— الله يعلم بالأسباب . .

وصمت لحظات . . أستوعب فيها هذا القول . . وأتخيل هذا الصراع الجبار الذى يقوم بين الإنسان وشرفه . . وبين الإنسان وفلذة كبده . . وما هى قوة تلك الأسباب التى تدفعنا إلى التطاول على هذه القديسيات التى تنبض فى دمائنا حتى تجعلنا نلقى بفلاذات أكبادنا على الأرض . . ونلدوسها بالأقدام . . وتجعلنا نبيع بالثمن البخس أعلى ما فى حياتنا . . وهو شرفنا — كما يقول هذا الرجل — وكذبت أسترسل فى هذه الهواجس . . وأنسى ما أنا فيه . . والرجل الذى أمامى ، لولا حركة بلسان فى الغرفة فأيقظتنى وأعادتنى إلى ما أنا فيه وجعلتنى أستاذف أسئلتى له . . فقلت بعد أن رجعت إلى بعض صفحات التحقيق :

— هل شاهدت الطفلة . . بعد أن كبرت واشتغلت راقصة ؟

— لا . . لم أشاهدها إلى الآن . . ومنذ أن كانت طفلة فى الثالثة أو

فى الرابعة من عمرها . .

— تقول زوجتك إنك شاهدتها ترقص فى أحد الأفلام . .

— نعم . . وهى التى تعرفت عليها . .

— وكيف تعرفت عليها ؟

.. بالشبه .. وبجسنة كانت في كنفها .. وقد تحقق أنها هي فعلا ..
 عندما حضرت زوجتى إلى القاهرة .. وتعرفت على عنوانها .. وذهبت إليها .
 — كيف تعرفت على عنوانها ؟
 — أنا الذى تعرفت عليه .

— ممن ؟

— أحد أقاربى .. وهو يبيع اللب والسودانى فى إحدى دور السينما .
 — ولماذا لم تذهب إليها مع زوجتك ؟
 — الحقيقة أنا رجل صعيدى .. والشرف عندى له قيمته .
 — وما دخل الشرف فى هذا ؟

فقال الرجل محتدًا .. وفى صوته غلظة .. وكأنه يؤنبنى :
 — كيف لا تدخل للشرف .. وهى ابنة زنا .. وراقصة ؟
 — إذن كيف سمحت لزوجتك بأن تذهب إليها ؟

فانخفض صوت الرجل .. وقال فى خجل كثير .. وهو ينظر إلى
 الأرض ، وكأنه يؤنب نفسه هذه المرة :

— الحقيقة .. أنا لا أعرف لماذا فعلت هذا ..

ولما أحسست بنجمله حقيقة .. أشفقت عليه .. ووجهت إليه سؤالاً
 آخر .. وقلت :

— هل شاهدت تلك السيدة التى كانت تتردد على زوجتك ؟

— شاهدتها مرة واحدة .. عندما جاءت إلى زوجتى فى البدارى ..

- ما هو تاريخ زهابها إلى زوجتك في البدارى ؟ !
- لا أذكر .
- تذكر . .
- سنة تقريباً . .
- قالت زوجتك تسعة أشهر . .
- هي أصدق . .
- لماذا ؟
- النساء دائماً أقدر على حساب الأيام . .
- سنة . . أم تسعة أشهر ؟
- تسعة أشهر . . وقد تذكرت الآن .
- تذكرت ماذا ؟
- أنها جاءت إلى زوجتي في رمضان . .
- هل كانت وحدها . . أو معها أحد ؟
- كان معها دسوقي . .
- ماذا كان شعورك عندما شاهدتهما معاً ؟
- من أى ناحية ؟
- قلت في التحقيق . . إنك تشك في أن السيدة المذكورة هي أم
- الطفلة وأن دسوقي هو والدها . .
- الحقيقة . . تحول شكى إلى يقين . .

- ما الذى جعلك تؤمن بهذا ؟
- الحب . . والحنان . . والعطف المتبادل بين الاثنين . . والمعاملة التى كان يعاملها كل منهما للآخر . . لم تكن أبداً معاملة خادم مخدوم .. وإنما معاملة أهل أو أصدقاء . . وغير ذلك . . الفرحه الزائدة التى كانت تتألق فى عين الاثنين عندما ذكرت لهما زوجتى عنوان الفتاة فى القاهرة .
- ألم تلاحظ أيهما كان أكثر فرحاً ؟
- هى طبعاً . . لأنها لم تملك شعورها . .
- ماذا فعلت ؟
- احتضنت زوجتى . . وقبلتها . .
- ودسوقى ؟
- فرح أيضاً . . ولكن فرحته كانت أقل . .
- لماذا ؟
- لأنه رجل . . والرجل يستطيع أن يكبت شعوره . .
- ولكنها ابنته أيضاً كما تقول ؟
- ولكنها أيضاً ابنة حرام . .
- وكأننى نسيت ذلك . . لأننى تأملت . . وعادونى إحساس بالعطف الشديد على الفتاة . . ولذلك صمت بعض الوقت . . ثم قلت لأنتى من استعجابه :
- لماذا جاءت الهبنى عليها ومعها دسوقى إلى زوجتك فى البدارى من تسعة أشهر ؟

- لتتعرف منها على عنوان الفتاة .
- وأين كانت كل هذه السنين ؟
- قالت إنها كانت تجهل عنوان زوجتى . .
- ومن الذى دلها عليه ؟
- قالت إنه رنجل كان يبيع الخروب والعرقسوس فى القلعة . . وكان فى السجن وخرج منه . .
- لماذا دخل السجن ؟
- سمعته يقولون إنه كان يتجر فى المخدرات . .
- هل كانت لك علاقة به ؟
- لا ولم أعرفه . . ولم تكن لى به أية علاقة . .
- هل كان يعرف زوجتك ؟
- طبعاً . . وكان يقطن معها فى حى واحد . . وبائع العرقسوس كالمسحراتى يعرف بيوت الحى بيتاً بيتاً . . وأشخاصه شخصاً شخصاً . .
- هل كان هذا الرجل يعرف أن زوجتك انتقلت معك إلى البدارى ؟
- كنت أعتقد أنه لا يعرف عنوانها . .
- لماذا ؟
- لأننى نهيت على زوجتى ألا تذكر عنوانها لأحد إطلاقاً . .
- لماذا نهيت عليها بذلك ؟
- لأننى كنت أريد أن أقطع علاقتها بالطفلة نهائياً . .

— ولماذا كنت تريد ذلك ؟

— لأنها ابنة دنس . . وأنا لا أريد أن أدنس نفسى . .

— وما ذنب الطفلة ؟

— البذرة التى تنبت فى العفن . . تظل رائحتها عفنة، حتى ولو أثمرت

الورد . .

فأعجبنى هذا المثل يصدر من مثل هذا الرجل الرقيق الساذج الذى
شعرت نحوه باحترام زائد وقلت له :

— إذا شاهدت صورة هذه السيدة فهل تستطيع أن تتعرف عليها ؟

— طبعاً . .

فقدمت له نفس المظروف الذى كنت قدمته إلى زوجته والذى يضم
عدة صور لنساء مختلفات من بينها صورة القتيلة . . وما إن فُحص الرجل
وتفحص الصور حتى تعرف على صورة الخبثى عليها . . وقدمها إلى . .
وبذلك انتهت أقواله . . فاستدعيت زوجته نظيرة أحمد البسيونى وواجهتها
به . . ولما شاهدها الرجل ثار عليها ثورة عنيفة . . وكادت يده تمتد إليها . .
لولا أننى انتهرته ، ذلك لأنه اعتبرها المتسببة له فى القبض عليه . . والخرج
الذى هو فيه . . مع أنهما معاً لا دخل لهما فى الموضوع .

* * *

تمت عملية المواجهة . . ولم تأت بمجديد فى التحقيق . . إذ أكد
كل منهما أقوال الآخر جرفياً . . وهى بطبعها متسمة بالصدق طوال

التحقيق . . ومؤكدة من غير هذه المواجهة . . ثم بقي بعد ذلك أن أواجه الفتاة بهما . . وشعرت بثقل هذه المهمة .

وأشفقت على الفتاة من الصدمة . . عندما تواجه بالشاهدين . . وتعرف أنها ابنة زنا . . وأن هذه - نظيرة أحمد البسيوني - التي ظلت كل هذه السنين توهمها بأنها أمها . . لم تكن أمها فعلاً . . وأن أمها الحقيقية . . لم يزل سرها في علم الغيب . . وإن كانت الشكوك جميعاً تؤكد بأن أمها هي المحبى عليها . . وأن والدها هو دسوقي . . وتمثل لعينى هول الصدمة ووقعها على الفتاة . . وفداحة الخطب الذى سينزل بها . . وتذكرت أولئك الذين يرتكبون هذا الخطأ . . ويتسببون في هذا الفعل . . وهل هم يقدرّون نتائجهم . . ويستشعرون السوء الذى يخلفه . . والظلم الذى يوجده . . وهذا الظلام الذى يعيش فيه الأبرياء ؟ . . أو هم لا يشعرون . . أو هم أكثر شعوراً به من غيرهم . . وإحساساً بالظلام الذى يخلقونه . . لأن أيديهم هى التى تطحن المصباح . . ومع ذلك يرتكبونه . . سألت نفسى هذه الأسئلة جميعاً . . وإذا بالجواب يجئنى سهلاً . . وهو كثرة الجرائم الخلقية التى حققت فيها . . أو التى عرضت على . . وقلت ألا ما أبشع الإنسان الذى يرتدى زى الحمل وهو أكثر ضراوة من وحش مفترس . . كما قال أبى ! . .

وكان هذا الذى كنت أفكر فيه من إشفاقى على الفتاة ووقع الصدمة على نفسها . . كان هو تماماً الذى تفكر فيه أيضاً المرأة . . الساذجة

الواقفة أمامي . . لأنها ما إن سمعني أطلب استدعاء الفتاة ، حتى ارتعشت شفتاها وراحت تتوسل إلى أن لا أذكر للفتاة شيئاً عن حقيقتها . . .
 وكانت الفتاة قد حضرت ولاحظت عليها وهي تدخل أنها منطفئة الوجه . . ذابلة النظرة . . كأنها خارجة من كهف . . بعد عديد من السنين . . وما إن وقعت عينها على « أمها » المائلة أمامي . . حتى تقدمت منها . . وقدمت لها يدها . . وصافحتها . . وهي تتسم بصوت خفيض جداً . . وكأنها لا تريد أن يسمعها أحد :
 — أهلاً بأبي . .

فبككت المرأة وسالت دموعها . . فظننت الفتاة تبكي من أجلها . . فراحت تطمئنها . . وتؤكد لها بأنها بريئة . . وأن علاقتها بالجني عليها لم تكن أكثر من صداقة . . وأنها كما قالت في التحقيق لم ترها . . من قبل الحادث بعشرين يوماً . . فازداد بكاء المرأة . . وتعالى نحيبها . . وكأنما ظننت الفتاة تبكي لما تلاقيه هي من سجن . . فراحت تطمئنها من هذه الناحية وتذكر لها عطفي عليها ورعايتي لها في السجن . . والطعام الذي أمرت بتقديمه إليها . . وكانت تشير إلى . . وتذكر لها هذه الآثار . . بنبرات رقيقة . . شفافة . . وباكية في الوقت نفسه . . مما جعلني أزداد إشفاقاً عليها . . وأحاول اختصار سؤالها ثانية بقدر الإمكان . . وأنهى هذا الموقف سريعاً . . هذا الموقف القاسي الذي شاء القدر للفتاة أن تقفه . . ولذلك قلت لها . . وبلا مقدمات . . وأنا آذن لها أن تجلس . . لأنها

كانت متعبة جداً . . . وغير قادرة على الوقوف :

— هل تعرفين هذا الرجل . . فضالى أحمد عبد الموجود ؟

وأشرت إلى الزوج الواقف . . فقالت وهي تنظر إليه فى دهشة :

— لا . . لم أعرفه . . ولم أره فى حياتى غير الآن . .

— إنه زوج نظيرة أحمد البسوفى . .

فندت عن الفتاة أنه حبيسة . . وقالت وهي تعاود النظر إليه فى دهشة

كبيرة :

— زوج أى ؟ !

— إنه زوجها . .

فانخفض صوتها . . وقالت وهي ما تزال تنظر إليه :

— لا . . لم أعرفه . .

فقلت للرجل الذى كان يتأملها من رأسها إلى أخمص قدميها :

— وأنت هل تعرفها ؟

— لا . . وهذه أول مرة تراها عيني . .

— قلت فى التحقيق إنك شاهدها قبل ذلك ؟

— فى السينما . . وهي عريانة ترقص فى الفيلم . .

فنكست الفتاة رأسها وانخفضت نظراتها إلى الأرض . . وواصلت

أنا سؤالى للرجل :

— هل هذه هى التى شاهدها ترقص فى الفيلم ؟

— نعم هي . .

— هل أنت متأكد ؟

— طبعاً . .

فقلت للفتاة وأنا أشير إلى نظيرة أحمد البسيوني الواقفة بجوارها :

— هل تعرفين نظيرة أحمد البسيوني ؟

— إنها أمي . .

نطقها الفتاة في إيمان لا حد له . . وأيضاً في سداجة متناهية . .

فقلت لها وأنا أمسك أنفاسي . . لإشفاقاً عليها :

— قالت نظيرة أحمد البسيوني . . بأنها ليست أمك . . ولست أنت

ابنتها . . وأنه لم يكن لها أولاد . . وأنها لم تنجب في حياتها . . وكل ما في

الأمر أنها كانت تتبناك فقط .

وأغمضت الفتاة عينيها فجأة . . شأن من يفاجأ بنور باهر يصدم

عينيه أو يغرق في ظلام دامس فيمسك أنفاسه . . وقالت وهي تنفوس

في وجوهنا نحن الثلاثة .. بعينين راح جحوظهما الخفيف يزداد شيئاً فشيئاً :

— ماذا تقول ؟

— تقول إنها ليست أمك . . وإنك لست ابنتها . .

فقفزت الفتاة عن المقعد وأمسكت بكتف المرأة الواقفة أمامها . .

وأعادت عليها السؤال في ذهول :

— ماذا تقولين ؟

ولما لم تنطق المرأة . . أوحى تطرف . . صرخت الفتاة في وجهها
صرخة ملوية . . وقالت وهي تهزها في عنف من كتفها . . حتى لتكاد
تسقطها على الأرض :

— انظري . .

—

— تكلمي . . .

—

— قولي . . .

فازداد نحيب المرأة . . وقالت وهي تتألم فعلا . . وتغرق في الدموع :

— ماذا أقول ؟

فصرخت الفتاة في وجهها :

— قولي لماذا تتنكرين لي . . الآنني راقصة . . تتبرئين مني . .

— قلت إنك طاهرة وعفيفة ومتدينة . . وتتصدقين على الفقراء . .

وتعرفين ربك جيداً . .

— لماذا إذن قلت إنني لست ابنتك ؟

— لأنها الحقيقة . .

فازدادت عيناها بجحوظاً . . وعلت وجهها غيرة . . لم أشهدا من

قبل على وجه بشر . . وقالت وهي ترتعش :

— الحقيقة أنك لست أمي ؟ !

— نعم . .

— ومن هي أمي إذن ؟

— يعلمها الله . .

— ومن أين جئت في أنت ؟

— وجدت لك قطعة من اللحم . . ملقاة في الطريق . . فأشفقت عليك
وتبينتك خمس سنوات . .

— إذن أنا . .

نظمت الفتاة هذا في دعر . . وكأنها خافت أن تكمل . . فزمت
شفتيها . . ولم تتم . . ومن ثم أنهارت قواها . . فسقطت على المقعد
الذي كان أمامها تن وتوجع . . وكل شيء فيها يحترق في صمت . . حتى
زفراتها التي كانت تخرج كألسنة النار . . وكأنها تخرج من بركان
ينفجر — كانت ما تكاد تبلغ شفتيها حتى تتحول إلى ما يشبه سحائب
من الدخان مما أثار لإشفاقنا جميعاً . . حتى هذا الرجل الزوج الذي كان
وجهه كالخجر الصلب . . رقى وشف . . وانقلب إلى وجه طفل تغشاه
الدموع . .

وظلت الفتاة كذلك حيناً . . إلى أن استعادت بعض قواها . .
فتفتحت عينيها . . وكأنها تفتحهما على حلم مزعج . . ولما رأتني أمامها . .
ورأت محضر التحقيق لا يزال مفتوحاً أمامي . . ورأت أحد الجنود ملجئاً
بالسلاح . . وما زال يقف في مكانه بجانب الباب . . تذكرت أنها سجين

وأنه يحقق معها وأنها غير قادرة على النطق . . ولهذا نكست رأسها تقول
فى توسل كبير . . وهى ما زالت ثن وتتوجع :

— هل تأذن لى أن أنصرف ؟

— لى أين ؟

— لى غرفتى فى السجن . .

— لماذا ؟

— لأننى غير قادرة حتى على النطق . .

ولما رأيتها متخاذلة فعلا لى حد كبير . . قلت :

— هل أنت مريضة ؟

— لى حد . .

— هل تحتاجين لى طبيب ؟

— أشكرك . .

ورأيت أن أى سؤال يوجه لى أحد من الثلاثة بعد ذلك لن يأتى

بجديد . . أو يضئ على هذه الظلمة التى ما زالت تكتنف الجريمة شيئاً
يفيد . . ولذلك أنهيت التحقيق فى هذه الليلة عند هذا الحد . . وأمرت

بإعادة الثلاثة لى السجن . . كما طلبت لى المسئولين فى السجن وضع

الفتاة تحت المراقبة نظراً لسوء حالتها الصحية والنفسية . . وانصرفت فى

تلك الليلة والفتاة تشغل تفكيرى، وصورتها وهى ثن وتتوجع وتحترق

— كحزمة هشة من القش — تشتعل فيها النار — تروح وتجىء فى خاطرى . .

لقد قدر لى بحكم مهنتى . . أن أشاهد أحداثاً جمّة . . وأرى فواجع كثيرة . . رأيت الإنسان الذى يزدري الحياة فى شخصه . . ويهون عليه للدرجة الانتحار . . ورأيت وهو يموت . . سواء من يميته الندم . . أو من يميته السلاح الذى قتل نفسه به . . رأيت ذلك الإنسان ورأيت تأوهات وصرخاته . . ورأيت الإنسان الذى يلتف جبل المشقة حول عنقه . . وأحسست بمشاعره والحياة الغالية ترقص عارياً أمام عينيه فى هذه اللحظات . . مبرزة له بهجتها ومفاتها . . لتزيده حسرة على فراقها فى لحظات الوداع الحاطفة، ورأيت الإنسان عندما يسفك شرفه . . ولا يجد وسيلة للدود عنه . . فيسفك هو دماء نفسه . . وكيف أن كل نقطة من هذه الدماء كانت تحرق وجهه . . وتنطبع عليه نقاطاً من نار وهى تخنّ خلفها دم ذلك الشرف المسفوك . . ورأيت الأم التى تفجع فى ابنها . . والابن الذى يفجع فى أبيه . . والأب الذى يفجع فى فلذات كبده فلذة إثر فلذة . . رأيت هذه النار وحرقتها . . وهذه الدماء وبشاعتها . . وكل هذه الآلام ومرارتها . . ولكنى لم أر أبداً مثل هذه النار التى تحرق الإنسان عندما يفقد أصله . . عندما يفقد نفسه كل إنسان . . عندما يعرف أنه جاء عن الطريق الذى

تجنّب منه أخط الحيوانات .. عندما يعجز حتى عن معرفة الإناء القدر والكلب الذى ولغ فيه .. عندما يعرف أنه هو نفسه هذه النجاسة التى نضع بها الإناء .. وأن هذه النجاسة لن تلتصق به أو تلاحقه .. وإنما هو الذى سيلاحق بها الناس .. لأنه هو أصلها .. لأنه هو ثمرتها .

ورأيتنى دون قصد أو تفكير أفكر فى هذا كله .. وفى هذه القضية التى أمانى .. والتى قبل أن أصل فيها إلى النجاح أو الإخفاق .. فى وضع يدى على الحائى .. وضعت يدى على مجنى عليه آخر ليس من فارق بينهما إلا أن المجنى عليها الأولى قتلت ولفظت أنفاسها .. وماتت .. وشيعت إلى مقرها الأخير ، أما المجنى عليها الثانية فقد قتلت أيضاً .. ولكنها لم تمت .. وإنما هى تموت .. وستظل تموت .. وستظل تلفظ أنفاسها ولن يغيثها الموت .. ولن يغيثها أيضاً الشفاء منه .. بل ستظل عمرها تموت ..

ومن ثم رحّت أفكر فى الجريمتين .. وفى القتلين .. تلك التى شيعت إلى قبرها الضيق فى الأرض .. وهذه التى شيعت إلى قبرها الواسع فى الدنيا .. وأيهما أسعد حالاً بالسلاح الذى قتل به .. الرصاصات الثلاث التى هتكت فروة الرأس .. وحطمت الجمجمة .. ونفذت إلى الرأس .. وأحدثت الوفاة فى الحال .. أم النزوة الطائشة التى حطمت الكبد .. وطعنت القلب .. وسلبت الفؤاد .. وهرأت الصدر .. وأدمت الضمير .. وقتلت الروح ؟؟؟

وتعجبت من هذه التفرقة حتى في الموت . . ولا أدري لماذا عطفت على الفتاة من قلبي . . ولا لماذا شعرت نحوها بهذه العاطفة التي لم أستشعرها من قبل حتى حيال أقرب الناس إلى . . وقد ازداد هذا الشعور عندما ذهبت إلى بيتي . . وخلوت في غرفتي إلى دوسيه هذه القضية . . ورحت أسترجع ما جاء في التحقيق مرة أخرى . . وأراجع أقوال الفتاة بصفة خاصة . . وما قالته عنها الشاهدة نظيرة أحمد البسيوني . . وزوجها فضالي . . كما راجعت مرة ثالثة . . أو رابعة أقوال هسوقي بالذات . . وأحسست حيال هذا الرجل الذي كنت أحبه بشيء غريب . . لعله أقرب إلى البغض والتخوف منه إلى أي شيء آخر . . فقد استطاع هذا الرجل بدكائه القطري . . ودهائه الكبير . . أن يغير حتى معالم وجهه . . ويجعلني أنا الذي تمرست كل هذه السنين في تفهم نفسيات البشر وسبر أغوار ما في نفوسهم . . أن أعتقد اعتقاداً . . لا يتطرق إليه الشك في سلامة طويته . . وصدق أقواله . . وبعده - البعد كله - عن هذه الجرمية ، أو أن له أية صلة بها . . من قريب . . أو من بعيد . . وأحسست ببغضى له يتزايد . . ووددت لو أني فتحت عيني فرأيتة أمامي . . إذن لأنشيت أظافري في عنقه . . ولن أتركه . . حتى يفصح عن الحقيقة كاملة . . هذه الحقيقة التي يعرفها جيداً . . وهو الوحيد الذي يحمل سرها في قلبه . . ويعرف من الجاني الحقيقي . . وبدأت أشعر بسوء تصرفي لأنني لم أقبض عليه فوراً . . ولذلك كان أول شيء فعلته عندما ذهبت إلى مكنتي في

الصباح أن اتصلت أولاً بإدارة السجن الذى تنزل فيه الفتاة واستفسرت عن حالتها . . فعلمت أنها ظلت طوال الليل تعاني حالة نفسية حادة . . وكانت تنتابها من حين إلى آخر حالات من الهستيرية تجعلها تصرخ وتبكي حتى يغنى عليها . . مما استدعى وجود مراقبة لها فى غرفتها . . وفى الصباح عادها طبيب السجن . . فحقنها بالحقن . . فنامت . . وما زالت مستغرقة فى النوم .

كما أرسلت إشارة عاجلة إلى نيابة الغربية طلبت فيها سرعة القبض على دسوى على حسين السابق سؤاله فى مقتل مخدمته زينب عبد العال الشوباشى . . وأن يرسل فوراً وفى اليوم نفسه تحت الحراسة الشديدة إلى القاهرة . . ثم أنجزت بعض الأعمال فى عدة قضايا أخرى . . قبل أن أذهب إلى الدائرة السابعة الجنائية . . لأترافع فى إحدى القضايا الهامة . . التى وفقت فى المرافعة فيها مما جعل المتهم الأول والثالث والذامن يؤخذون بأقصى العقوبة . . وقد سرفى هذا كثيراً . . وابتهجت له . . إذ ليس أحب إلى المحقق الذى يعرف واجبه . . وله ضمير يحاسبه . . من أن يأخذ الحق مجراه . . فتتمسك العدالة بتلابيب المجرم . . وتمحاسبه أقصى الحساب .

* * *

كانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر . . فذهبت إلى بيتى سريعاً لأحضر الوليمة الضخمة التى أعلها أبى فى القصر لجماعة من الناحيين الذين يعتمد عليهم فى نجاحه فى هذه المعركة الطاحنة التى يخوضها . .

وكان قد أصر على أن أحضر . . وقد شعرت بشيء كثير من الفخر عندما ذهبت إلى البيت ووجدت أبهاء القصر تقص بعلمية القوم من الساسة والعظماء وبعض الوزراء وبعض رجال القصر الملكي الذين كان أبى على صلة وطيدة بهم في ذلك الحين . . وازدادت فخراً عندما استقبلت من الكثيرين منهم بالحفاوة البالغة . . إذ راح أكثرهم - ولا سيما من المسؤولين في ذلك الوقت - يشيدون وبنشاطي وبمركزى المرموق في عالم القضاء . . وبعض القضايا السياسية الهامة التي حققت فيها . . وكان لي فضل اكتشاف الخيانة فيها . . مما جعل أبى وهو يجلس معنا على المائدة يشعر بالكثير من الزهو . . وظللنا في مثل هذه الأحاديث وغيرها من أحاديث الانتخابات . . وسير المعركة فيها . . وكلما استشعرت من هذه الأحاديث أن النجاح هو حليف أبى . . ازدادت فخراً وإبتهاجاً . . وأقبلت على طعامى بشهوة بالغة . . غير أنني وقبل أن أنهى من طعامى . . وكانت الساعة - على وجه التقريب - قد بلغت الرابعة مساء . . استدعيت إلى محادثة تليفونية عاجلة . . ولما ذهبت وجدت المتحدث أنيس أفندى باشكاتب نيابة جنوب القاهرة . . وإذا به يدلى لى بنياً غريب . . اندهشت له دهشة كبيرة . . وفوجئت به مفاجأة مذهلة . . وهو أنه قد وردت إشارة عاجلة الآن من نيابة الغربية تفيد بأن دسوق على حسنين - المطلوب القبض عليه وترحيله إلى القاهرة لسؤاله في القضية رقم ١١٠٧ جنائيات القاهرة الخاصة بمقتل المحبى عليها زينب عبدالعال الشوباشى - قد وجد ظهر اليوم مقتولاً في حقل الأذرة التابع لزمان

ضبيعة المحبى عليها . . إذ أطلق عليه الجناة اثنتى عشرة رصاصة . . مزق جسده . . وأردته قتيلا فى الحال . . وأنه لا أثر للجناة . . أو معرفة أسباب الجريمة . . وأن التحقيق لا يزال جارياً .

وبالرغم من أن هذه المفاجآت . . لم تكن غريبة . . على رجل التحقيق الذى تعود أن يرى فى بعض الجرائم الكثير من العجب . . إلا أن وقع الخبر على نفسه كان ثقيلا . . وشعرت بالصدمة تكاد تهزى ولا سببا عندما تأكدت بأن جميع خيوط الأمل التى كانت تلوح لعينى فى القضية . . قد اجتشبت من جلودها . . بمقتل دسوقى . . وأحسست بتأنيب الضمير . . وبالخطأ الجسيم الذى ارتكبته . . إذ تريت فى القبض عليه . . ولو كنت قد فعلت هذا بمجرد أن ورد ذكر اسمه على لسان الفتاة فى أول التحقيق . . أو حتى بعد أن ذكرت ما ذكرت الشاهدة الثانية نظيرة أحمد البسيونى ... لما كان قد حدث من هذا شيء . . ولما كان الرجل قد قتل . . ولما أفلت من يدى الجاني فى هذه القضية كما أفلت منها الآن إلى الأبد .

وعدت إلى مقعدى من المائدة وأنا فى حالة اضطراب شديد . . مما جعل والذى يلاحظ على ذلك . . ويسألنى أكثر من مرة . . ولم أستطع أن أجيبه . . إلى أن انتهى المدعون من تناول الطعام وتناثروا حول الموائد الأخرى فى الحديقة . . وأبهاء القصر وشرفاته . . يشربون القهوة ويدخنون السجاير . . عند ذلك انتحى بى أبى ركنأ . . وما إن ذكرت له نبأ مقتل دسوقى . . وكيف أن الجناة مزقوا جسده باثنتى عشرة رصاصة . . وكيف

عثر عليه جثة هامدة في حقل الأذرة . . وكيف فر الجناة دون أن يتركوا
 أثراً بحرمتهم . . حتى ذعر أبى ذعراً شديداً . . واربدت سحته إلى حد
 خفيف . . وراح يضرب كفاً على كف . . ولأول مرة أشعر بالغلظة في
 صوته وهو يخاطبني . . ويؤنبني في شيء من التقرير . . لأنني قصرت
 في واجبي ولم أقبض عليه من أول الأمر كما قال لي . . وقد وافقته على
 كل حرف قاله . . حتى في عبارات التقرير التي وجهها إلي . . وانصرفت
 إلى مكنتي فوراً . وأثبت هذه الإشارة التي وردت إلي من نيابة الغربية
 عن مقتل دسوقي رسمياً في محضر التحقيق، وقررت السفر في الحال إلى
 طنطا ، ومنها إلى المكان الذي وقعت فيه الجريمة لأنضم إلى المحقق هناك .
 وأطلع على سير التحقيق . . وهناك وجدت شيئاً غريباً اندهشت له . .
 وعقد الأمور تعقيداً غريباً وأضنى على التخمينات والتقديرات والافتراضات
 جميعها ظلاماً دامساً . . فقد وجدت أن التحقيق قد أوشك على الانتهاء . .
 ولما يمض عليه ساعات . . أو تتجاوز صفحات التحقيق في هذه الجناية
 بضع صفحات . . فالجاني مجهول . . ولم يترك أثراً ولا حتى شبه أثر يمكن
 للمحقق أن يمسك به . . كما أن أهل المحنى عليه لم ينهوا أحداً . . بل إن
 شبهاتهم لم تحم من قريب أو بعيد حول أحد . . وبسؤال جميع الأهل
 والمعارف وأصدقاء المحنى عليه، وحتى غير أصدقائه . . لم يشر أحد إلى
 شيء أو حتى شبه شيء بين المحنى عليه وبين أحد . . بل أجمع الكل
 على أنه كان محبوباً من الجميع . . وكان آخر شيء يفكرون فيه هو أن

يموت هذا الرجل هذه الميعة الشنعاء . .

وجلس مع زميل وكيل النيابة المحقق في القضية نتذاكر الأمور جيداً ونجمع بين طرفي الجريمتين والأسباب الدافعة إلى تلك وهذه . . والأسباب التي جعلت المحنى عليه ينكر في التحقيقات السابقة صلته بالفتاة . . ورؤيته لها تتردد على المحنى عليها . . كما أنكر صلته بأحد غيرها . . مع أن الثابت من التحقيق عكس ذلك . . إذ اعترف الشهود الثلاثة . . الراقصة زينات شوق . . والزوجة نظيرة أحمد البسيوني . . والزوج فضالى أحمد عبد الموجود . . اعترف الثلاثة بصلتهم الوثيقة بدسوق . . ونخرجنا من ذلك كله بأن بدأ في الخفاء هي التي لعبت هذا الدور الخطير في الجريمتين ، وأن هناك صلة من غير شك بين هاتين الجريمتين . . ولكن يندُّ من هي هذه اليد ؟ . . وما هي هذه الصلة ؟ . . كان هذا هو بيت القصيد : وكان هذا هو المحير فعلاً .

وفي طريق عودتي إلى القاهرة . . وبعد أن تحقق الإخفاق في العثور على الجناة . . وأصبح مؤكداً أن جديداً لن يطرأ على هذه الظروف الغامضة التي قتل فيها دسوق . . ازدحمت رأسي بأفكار كثيرة وتكهنت عدة . . وحاولت أن أربط بين الجريمتين والظروف الغامضة التي حدثت فيها . . والأسباب والدوافع التي أدت إلى قتل دسوق بالذات . . وعلاقة دسوق بالمحنى عليها . . زينب عبد العال الشوباشي . . وهل هذه الجريمة التي ذهب ضحيتها دسوق لا علاقة لها بالجريمة التي ذهبت ضحيتها

زينب . . أو أن هذه امتداد لتلك . . وأن الأسباب التي أدت إلى قتل
 المحبى عليها هي نفسها الأسباب التي أدت إلى قتل دسوق ؟
 هذا هو المرجح حتى الآن . . والأقرب إلى المنطق . . ولكن ما هي
 الأسباب . . والبواعث عليها . . والدوافع إليها . . وهل اليد التي ارتكبت
 الجريمة الأولى . . وقتلت زينب عبد العال الشوباشي هي نفسها اليد التي
 ارتكبت الجريمة الثانية وقتلت دسوق على حسنين ؟ ١
 لقد كان من الممكن ترجيح ذلك أو على الأقل الميل إليه . . لو أن
 للمحبى عليها مثلاً . . أحد الأهل . . أو الأقرباء . . ولو حتى من
 بعيد . . علم بالعلاقة الآثمة التي كانت بين المحبى عليها وبين دسوق . .
 وأراد أن يلود عن عرضه . . فقتل الاثنين . . ولكن الثابت من التحقيق
 أن لا أحد إطلاقاً من الأهل أو الأقارب لها . . وإذا افترضنا مثلاً وجود
 هذا الشخص . . وسلمنا جدلاً . . بأن التحقيق عجز عن معرفته . .
 أو حتى الظن بوجوده . . فأين كان هذا الشخص . . طيلة هذه السنين
 التي تزيد على العشرين وتتجاوزها ؟ . . وفي أى كهف كان ينام شرفه
 هذا . . الذي استيقظ فجأة وهب لللود عنه بهذه الوحشية التي لا تعرف
 حدوداً في الإجرام وسفك الدماء وإزهاق أرواح البشر ؟ ١٠٩
 أو أن الأسباب تختلف عن هذا كلية . . وأن الدوافع لارتكاب
 الجريمة الأولى هي نفس الدوافع لارتكاب الجريمة الثانية . . وهي الغيرة
 على الإثم . . والحرص على التماهى فيه والرغبة في استمرار سفك هذه

الحرمات التي ظلت تنهك وتسفك دماؤها . ما يزيد على العشرين سنة .. وهذا هو الأقرب إلى العقل وإلى المنطق وإلى الحقائق الكثيرة التي كشف عنها التحقيق . . فقد ثبت من أقوال الشهود الثلاثة . . ولا سيما شهادة الزوجة نظيرة أحمد البسيوني وزوجها فضالى أحمد عبد الموجود . . ومن الوقائع والأسانيد المدعمة بمنطق الحوادث وتسلسلها وتواريخها . . ثبت أن المتهمة الأولى وهي الفتاة زينات شوقى هى ابنة المحبى عليها زينب عبد العال الشوباشى . . وأن المحبى عليها هى أمها فعلا . . وأن هذا لا سبيل إلى الشك فيه . . وأن الدلائل عليه واضحة ومتوفرة وتنطق بها الحوادث جميعاً

مراقبة المحبى عليها للطفلة بعد أن أقيمت فى الطريق . . تتبعها للشاهدة الثانية نظيرة أحمد البسيوني . . ومعرفتها لبيتها . . وذهابها إليها فى صباح اليوم الثانى . . وبكائها . . واضطرابها . . والحالة النفسية التى كانت عليها وهى تقبل الطفلة وتحنو عليها . . وتوصى بها المرأة خيراً . . لإنفاقها على الفتاة بصفة دائمة . . وجعل مرتب دائم ثابت للمرأة التى تبنت الطفلة . . خشيتها من افتضاح أمرها إذا كثر ترددها على البيت الذى تعيش فيه الطفلة . . وانقطاعها عن الذهاب إليها . . وهذا يثبت كذب قولها . . بأنها قريبة لأم الطفلة كما جاء على لسان الشاهدة الثانية . . إنابة دسوقى عنها فى الاطمئنان على الفتاة وتوصيل المبلغ إليها فى كل شهر . . ثم افتقادها للطفلة بعد أن تركتها الشاهدة الثانية وسافرت مع زوجها إلى الصعيد ..

وما بذلته المحبى عليها من جهد فى سبيل البحث عنها طيلة تلك السنين . .
بدليل تعرفها على بائع العرقسوس بعد خروجه من السجن . . وما إن
هداها إلى عنوان نظيرة أحمد البيونى فى الصعيد حتى ذهبت إليها فى
البدارى . . وتعرفت منها على عنوان الفتاة . . وفرحتها البالغة عندما حثرت
على عنوانها . . ومبلغ الحمسة جنبيات الذى أعطته لنظيرة . . لأنها ذكرت
لها العنوان . . ثم طريقة تعرفها على الفتاة فى القاهرة وذهابها إليها فى
الصالة . . أو الكباريه . . وهى كما جاء على ألسنة الشهود جميعاً . .
سيدة وقورة وليست ممن يؤمنون هذه الأماكن . . ثم اسمائها الفتاة إليها ،
وتوطيد صداقتها بها وجعلها تتردد عليها فى بيتها كل يوم وكل ليلة . .
ثم أحزانها التى لا حد لها . . كما هو وارد فى أقوال الفتاة — من أنها تعمل
راقصة . . ومحاولة إقناعها بترك هذه المهنة بأى ثمن . . ثم — وهذا هو
المهم — استعداد المحبى عليها لأن تهيب الفتاة كل ما تملك من ثروة . .
إن هذه كلها أشياء واضحة الدلالة . . ثم يجيء بعد ذلك دور دسوق
فى الموضوع . . والدور الخطير الذى لعبه وإنكاره إنكاراً باتناً لهذا الدور . .
وهذا الإنكار له دلالة . . وهو أنه يعرف من غير شك هذا السر . .
وهو أن الفتاة هى ابنة المحبى عليها . . وأنها ولدتها سفاحاً . . وأنها ألفت
بها فى الطريق . . إلى آخر هذه السنوات الخمس التى ظل هو يتردد فيها
على الفتاة . . والمرأة التى تبنتها . . وذهابه بانتظام ليعطيها المبلغ المتفق
عليه . . ومعنى هذا أن دسوق يعلم كل شيء عن حقيقة أخلاق المحبى

عليها، بل هو الوحيد الذى كان يعلم هذه الحقيقة . والدليل على ذلك أقوال الشهود الثلاثة . . الفتاة والزوجة والزوج . . هذه الأقوال المتفقة فى جميع الوقائع والتي لم تتناقص فى واقعة واحدة وأنه يعلم هذا ويظل طول هذه السنين على هذه العلاقة الوطيدة بالجنى عليها بمعنى ذلك أنه هو نفسه الذى كان على علاقة بها — حتى بغض النظر عما جاء فى التحقيق من شبهات كثيرة تؤكد أنه هو والد الفتاة غير الشرعى — واستمرار هذه العلاقة وتوطيدها إلى هذا الحد له دلالة أخرى لا تكاد تقبل الشك وهى أن دسوق كان يحب الجنى عليها ويتخذ منها عشيقاً له وأنها هى أيضاً تحبه وتتخذ منه عشيقاً لها وليس لها عشيق غيره وظل يعتقد هذا ويؤمن به إلى أن تبين خطأ هذا الاعتقاد واكتشف أن للمجنى عليها عشيقاً غيره وهو الرجل الذى ضبطته الفتاة يتملص من مخدع الجنى عليها فى الليل ولا بد — بل من المقطوع به — أنه كان لهذا العشيق الحديد مميزات كثيرة جعلت الجنى عليها تفضله على دسوق فهو من أبناء الخضر ووجهه وطويل القامة عريضها وأنيق الملبس مما يدل على أنه من أبناء الثراء كما جاء على لسان الفتاة التى رآته رؤية العين وبديهي أن دسوق — وهو الرقيق الملعوم ، الرث الثياب أو المهملها على الأقل والذى لم يزد فى نظر التى يحبها على أنه خادم عندها بديهي أنه لم يقدر على منافزة هذا العشيق الحديد أو حتى التفكير فى محاربته وعز عليه ذلك عز عليه أن يرضى

بالهزيمة . . وأن تفضل عليه هذه المرأة . . عشيقاً غيره . . بعد كل هذه
 السنين التي قضاهما معها . . فلم يجد بداً من ارتكاب جريمته . . ولكنه
 ارتكبها من سوء حظه في الوقت الذي كان فيه العشيق الجديد قد توطدت
 علاقته بالخفي عايبا . . مما جعله ينتقم لنفسه ولها . . بقتل دسوق . . وهكذا
 تأكل النار بعضها دائماً .

فكرت في هذا كله . . وحالته على ضوء منطلق الحوادث المدعمة
 بالأسانيد التي جاءت على لسان الشهود الثلاثة . . ولما اقتنعت به . .
 أحسست بضيق لا حد له . . فقد وقف في الطريق في هذه القضية عند
 هذا الحد . . بعد أن خيم الظلام عليها إلى الأبد بعد قتل دسوق وموته
 وموت السر معه . .

شعرت بهذا الضيق يزداد عندما ذهبت إلى مكتبي في صباح اليوم
التالي ووجدتني مضطراً وعلى الرغم مني وبعد كل هذا الجهد الذي بذلته ..
إلى أن تخط يدى هذه الكلمات التي أكرهها جداً والتي تشبه سلسلة من
الغباين الضريرة .. تسبق فوق الأوراق: « يحفظ التحقيق وتفيد الجناية
ضد مجهول » . . .

وقد فعلت ذلك مضطراً وأخطيت سبيل الشهود الثلاثة .. وكأنت الفتاة
قد تماثلت للشفاء بعض الشيء .. ولما أخطى سبيلها طلبت مقابلتي ..
ولما أذنت لها وجاءت .. رأيها أكثر شحوباً ووجهها أشد اصفراراً، ومع
أنها جميلة جمالا رائعاً .. إلا أن هذا الجمال اكتشفته فجأة مسحة من
القيح أشبه ما تكون تماماً بتلك المسحة من العار التي تقف حائلاً بين
عينيك وبين الجمال الرائع الذي طمست رواه الأيدي التي استباحته ..
والعيون التي عبثت به .. والفراش الملوث التي تقلب عليه .. ولأنني
أعلم تماماً أنها ليست كذلك .. اندهشت كثيراً وتعجبت لهذه النفوس
الشفافة التي ترميها الخطيئة بحجر .. وكيف تكون آلام هذه النفوس ..
عندما تصيبها الضربة في الصميم .. وكيف تتحول هذه الآلام من كثرة

أوجاعها وحرقة جراحها ولوعة التفكير فيها . . إلى مثل هذه الظلال القاتمة .
 التي تتجمع خيوطها السوداء فوق وجه الضحية فتطمس معالم الطهر والبراءة
 فيه . . وتحوله إلى صورة واضحة للإثم والعار ومهانة النفس . .
 ونظرت إلى الفتاة مرة أخرى ورأيت عينها الواسعتين الكبيرتين . .
 ونظرات الدلّة والانكسار التي تروح وتجيء فيهما خابية شاحبة . . تتأرجع
 كذبالة السراج الذي ينصب زيت . . ويكاد يلفظ أنفاسه . . فأشفقت
 عليها وأحسست وأنا أستقبلها في مكثي كأنني أستقبل قطعة مني . .
 وأذنت لها بالجلوس وطلبت لها كوباً من الشراب المثلج . . وأحسست من
 صمتها ونظراتها الساهرة التي تلتقي بها إلى الأرض دائماً . . وارتعاش شفيتها
 بين الحين والحين . . أنها إنما تريد أن تقول شيئاً . . متحرجة من قوله . .
 فشجعته لكي تقول كل ما تريد . . دون أن تظن إلى مقصدي . . وقلت
 لها إنما لم تجلس أمامي الآن هذه الجلسة كمنهية أمام محقق . . كما كانت
 جلساتها السابقة أمامي . . وإنما هي تجلس أمام إنسان يحترمها ويقدرها . .
 ويقدر ظروفها القاسية . . هذه الظروف التي لا تدخل لها فيها . . والتي
 كانت هي ضحية لها . . وأن هذه الظروف يجب أن لا تؤثر فيها مثل هذا
 التأثير الذي يكاد يقضي عليها . . وهي ظروف حدثت كثيراً لغيرها . .
 وتحدث كثيراً . . وما دام أن هناك شرّاً . . وهناك خطيئة . . وهناك
 ظلاماً . . يعيش فيه بعض الناس . . فلا بد من وجود ضحايا . .
 وقد أثر فيها هذا القول . . ورفع من معنوياتها . . وجعل بعض النور

يتمشى في تلك الذبالة التي كانت توشك أن تنطفيء . . وعاد إلى نظراتها بعض الاستقرار . . كما عاد إلى وجهها بعض الهدوء . . وقالت في صوت خفيض . . وهي ما زالت تنظر إلى الأرض بعينها الخاضعتين بالدموع :
 - إننى لا أعرف كيف أشكرك . .

- إن الشكر الذى أريده منك هو أن تعتبرينى بالنسبة إليك الشخص الذى يهمه أمرك . . وأن تقولى لى دائماً كل ما يحول بخاطرك . .
 قلت لها هذا . . وأنا أقصد شيئاً بعيداً . . لم تظن إليه . . وحتى أنا لم أكن قد فطنت إليه . . إلا بعد أن طلبت الفتاة مقابلتى . . وهو أن أحصل هذه الفتاة تظمن إلى ، وإلى صداقتى ، حتى لو تطلب منى ذلك أن ألتقى بها كثيراً . . وحتى لو كان هذا كما أعرف بخالف العرف والتقاليد المرعية . . انفراد محقق ومهمة أو شاهدة فى قضية من القضايا سواء أزلت هذه الصفة . . أم ظلت باقية . . غير أننى كنت أعتقد أن هذا هو السبيل الوحيد الذى عن طريقه ربما أتعرف من الفتاة على شخصية ذلك العشيق الغائى للمجنى عليها . . والذى قتل دسوقى . . والذى ستوصلنا معرفة شخصه . . إلى معرفة الحقيقة كلها . .

حقيقة إن الفتاة لم تعرف شخصيته حتى الآن . . وهي لم تخف شيئاً حاولت إنكاره فى التحقيق . . ولكنى أعلم بحكم تجاربى الكثيرة وكثرة ما شاهدت من القضايا . . ووقف أمامى من المتهمين . . أن للإنسان . . كل إنسان . . حاسة سادسة تقف بجانبه . . فى لحظات الحرج . . هى التى تجعله

متيقظاً أم غير متيقظ .. وفق ما ترى فيه مصلحته .. وأن هذه الحاسة من الذكاء وقدرة التسلط على صاحبها بحيث تجعله يقول الكذب وهو يؤمن بأنه الصديق .. ويقول الصديق وهو يؤمن بأنه الكذاب .. وتجعله يصف لك الشمس وبهجة نورها وقوة إشعاعها ومقياس حرارتها وصفاً دقيقاً مقنعاً .. في حين أنه لم يكن قد رأى غير الظلام وحلكنه .. وسواده الذى كانت تنخبط فيه عيناه !

فإذا زالت لحظات التخرج .. زالت فيها يقظة هذه الحاسة .. وحاد الإنسان إلى طبيعته .. وإلى تذكراته .. التى كثيراً ما تكون صائبة .. لهذا كانت مجاملتى للفتاة زائدة .. ولهذا قلت لها فى صديق حقيقى .. لأننى أرجو أن تعتبرنى بالنسبة إليها الشخص الذى يهمه أمرها .. وأن تقول لى دائماً .. كل ما يحول بخاطرهما .. غير أنها لم تصدق هذا .. أو لعلها استكثرت على نفسها .. لأنها وقفت عند كلمة معينة قلتها لها .. وكأن ذكاءها اللامح - الذى شهدت لها به أثناء التحقيق - لم يصدقها أو يصدق أننى جاد فيها .. لأنها قالت وهى تتمم فى صوت خفيض جداً هذه المرة :

- تقول إنك تريدنى أن أطلعك - دائماً - على كل ما يحول بخاطرى .. فهل أنت ترحب بلقائى دائماً ؟

فلم أنطق .. لأننى أحسست بقلبي هو الذى يتحدث ويقول :

- لأننى أرحب بذلك دائماً .. علم الله ..

فقلت وقد انفرجت أساريها بعض الشيء وكأنها تريد أن تبسم :

- لأننى حقيقة أشكرك . .

- أشكركم لأننى أرحب بلقائكم ؟

- أنت الوحيد فى هذا الوجود كله الذى أشكر له هذا الجميل . .

- لماذا أنا بالذات ؟

- لأنك الوحيد الذى عرفت من أنا . .

وعاد وجهها إلى الاحمرار . . وعادت نظراتها فانطفأت ثانية وامتلأت

عينها بالدموع ، وقالت وهى تبكى . . معبرة عما يحول بخاطرها حقيقة :

- إننى خائفة . .

- م . . ؟

- أن يقتلنى الرجل الذى قتل أبى . .

وكان صغرى كحقيقى . . أصبحت طبيعة فى . . لأننى قلت :

- وهل أصبحت مقتنعة فعلا . . بأن المحبى عليها هى أملك حقيقة ؟

- طبعاً . .

- وعلى أى أساس بنيت هذا الاقتناع ؟

- أحياناً كثيرة لا يستشعر الإنسان حرارة الشمس إلا بعد أن تغيب !

وأعجبني منها هذا القول . . فنظرت إليها . . فلماذا بها تبكى . .

فركتها إلى أن استطردت وهى تعطف دموعها وتمسح على شفثيها المضطربتين :

- عطفها الزائد . . الذى كنت أنلهش له . . حنانها الذى بلغ

من شدة تأثيره في نفسي أننى أنكرته عليها . . وأسأت به الظن . . وقلت إنه نوع من الشباك تجيد صنعه بعض النساء، لتغطى به ما في نفوسهن من سوء . . ولتقطع به الطريق على الفريسة . . وتوقعها في شباكهها مهما كانت يقظة حذرة عليمه بأنواع الفخاخ جميعاً . . ثم تخرجها الشديد وارتباكها الزائد ، واضطرابها الذى لا حد له . . يوم أن جاءت إلى فى الصلاة . . وطلبت مقابلتي وقالت إنها تحبني وتقدر فى . . وإنها إنما تجيء إلى هذا المكان من أجل فقط . . ومن أجل أن ترائى . . ونظراتها إلى وهى تتحدث إلى فى أول مرة . . ونور الفرحة الذى كان يشع من عينيها . . ونبرات الحنان التى كانت ترن فى صوتها . . وهى تتحدث إلى . . وتنغذ إلى قلبي ووجداني وتضفي على مشاعري إحساساً جميلاً بالحياة والدنيا والناس . . كنت لا أستشعر وجوده . . قبل أن تجيء هى إلى وتحدثني وأتحدث إليها . . ثم تلك الرغبة التى كانت تلح عليها إلحاحاً شديداً . . وتود تحقيقها بأى ثمن وهى أن تهبنى كل ثروتها وكل ما تملك . . فقط أترك مهنتي كراقصة . . وأعيش معها بصفة دائمة ثم واختفت الفتاة . . بالدموع . . فلم تكمل . . واحققت وجهها . . وراحت تبكى . . فلم أحاول أن أجعلها تكمل وتستطرد فى هذه الذكريات المريرة . . بل تركتها تبكى كثيراً وتتألم كثيراً وتكتوى بحرقه الدموع ما تشاء . . إلى أن فقت هذا كله كيائها . . وراحت تلتقط أنفاسها التقاطاً كالنار عندما تخبر جنوتها . . ويفلو التراب أنفاسها وتختنق . . ولا غدت

كذلك .. تمتعت هي من تلقاء نفسها واستطردت تلفظ نار تلك الذكرى
التي تحرقها ..

ثم تلك الكلمة التي لم أستشعر حقيقتها إلا بعد أن ماتت .. والتي
كانت تناديني بها دائماً .. ابنتي .. كلي يا ابنتي .. اشربي يا ابنتي ..
نأى يا ابنتي ..

وكنيت أستمع إلى الفتاة وهي تنطق هذه الكلمات .. وتسترجع هذه
الذكريات .. وأتذكر قولها في أول الحديث : « أحياناً كثيرة لا يستشعر
الإنسان حرارة الشمس إلا بعد أن تغيب » وأتعجب من بعض الظروف
التي يورطنا فيها القدر .. بحيث يجعلنا أحياناً نرى الذهب حديداً ..
والماس زجاجاً .. والبحر العجاج سراباً أو يابسة .. ويعمل أحياناً أكثر
الناس إدراكاً لحاسة الإبصار والسمع أعمامهم بصرأ .. وأغشاهم نظراً ..
وأغلقهم عيناً وسمعاً وإحساساً ..

ونظرت إلى الفتاة مرة أخرى وأردت أن أقول لها شيئاً آخر .. وأن
أستطرد معها في أحاديث أخرى كثيرة .. ولكنني تذكرت شيئاً هاماً
قالته لي وكدت أنساه في غمرة هذه الآلام التي جعلتني أعيش فيها حيناً ..
وأشاركها فيها حقيقة .. فقلت :

— تقولين بأنك خائفة من أن يقتلك الرجل الذي قتل أمك ..

— نعم ..

— ولماذا يقتلك ؟

- ولماذا إذن قتل أمي ؟
 فأحسست بالجواب فاحملاً . . فقلت :
 — من تظنين الذى قتلها ؟
 — لا أعرف .
 — بعد كل هذه الملابس التى كشف عنها التحقيق . . ووضحت
 لك هذا الوضوح . . . أليس فى استطاعتك ولو مجرد الظن معرفة
 من هو صاحب المصلحة فى ارتكاب هذه الجريمة ؟
 — لعلك أكثر منى معرفة بالظروف جميعاً . .
 — أنا أظن أن دسوق هو القاتل . .
 شبهت الفتاة وقالت فى ذعر شديد وهى تتراجع إلى الخلف كمن
 يباغت بشيء يخيفه :
 — لا . . لا . . أبداً . . أبداً . .
 وأدهشنى صوتها هذا المفاجأ . . وذعرها هذا الشديد . . فقلت :
 — ما الذى أخافك ؟
 — هذا القول الذى تقوله . .
 فتركها قليلاً حتى هدأت . . وقلت :
 — وما الذى تستكبرينه فى هذا القول ؟
 — مجرد هذا الظن الذى تظنه . .
 — أنت تستبعدينه . . أم أنك فوجئت به ؟

— أستبعده قطعاً . .

فركتها مرة أخرى قليلاً . . ثم قلت :

— ما الذى يجعلك تستبعدينه . . وترفضين تصديقه . . بعد كل هذه

الحوادث الغريبة التى أثبت التحقيق حقيقتها ؟

— إنك لم تعرف دسوقى . . ولم تعرف طهارة خلقه . . ولا كريم

سجاياه أو نبيل قلبه . . لقد كان هذا الرجل الطيب بالنسبة للناس هذا

الزمن . . أشبه بنبي . .

— هل كان يخلص لها ؟

— كما يخلص العابد إلى معبوده تماماً . . كان لها أكثر من أب . .

وأكثر من أخ . . وأكثر من خادم . .

يجعلنى هذا القول أزداد اقتناعاً بما تحدثت به إلى نفسى والنتيجة

التي وصلت إليها . . من وجود علاقة بينه وبين الهنئ عليها . . ولذلك

قلت . . وكنت أعتمد على بعض الخبث فيما أقول :

— إلى هذا الحد كان دسوقى يحب الهنئ عليها ؟

فقالت الفتاة على الفور دون أن تفطن إلى قصدى :

— كان يحبها إلى حد الجنون . . إلى حد أنها إذا مرضت يوماً .. كان

المريض الحقيقي هو . . وإذا شفيت .. كان الصحيح المعافى هو . . وإذا حزنت

أو غضبت . . كان الحزين هو . . فإذا رآها يوماً ضاحكة أو مبتسمة . .

كاد هذا الرجل العجوز يخرج عن وقاره ويرقص طرباً من فرط فرحته . .

فأحسست بالزهو الذى يحس به من يصدق حلمه . وقلت :

— ألم يداخلك شك فى هذه العلاقة ؟

فاكفهر وجهها فجأة وقالت :

— ماذا تقصد بهذا القول ؟

— أقصد . . أنها أكثر من علاقة بين خادم ومخدومه . .

فازداد وجهها احتقاناً . . وهى تقول :

— ولماذا تسيء الظن إلى هذا الحد ؟

— ولماذا أنكروا هو فى التحقيق أنه يعرفك ؟

— ربما لأنه كان يعرف الحقيقة . .

— أى حقيقة ؟

— أنها أوى . .

— ولماذا لم يذكر هذا ؟

فعادت الدموع إلى عينيها وقالت وهى تنظر فى خجل واضطراب

كثير إلى الأرض :

— هل تريد أن تحقق معى مرة أخرى ؟

فأحسست بأننى نكأت جرحها . . دون أن أدري . . ولذلك قلت :

— إنما أقول هذا فقط لكى أطمئنك بأن الذى قتل المحنى عليها لن

يصيبك أنت بسوء .

فقالته وهى تبكى :

— من يلرى ؟

— لأنه مات . .

ففغرت فاها وهى تقول :

— مات ؟ !

— نعم . .

— إذن أنت كنت تعرفه ؟

— عرفته فقط بعد أن قتل . .

— ومن هو ؟

— دسوقى . .

فجحظت عينها جحوظاً خفيفاً . . وهى تصرخ :

— دسوقى . . هو الذى قتل أمى . . أنا لا أصدق هذا . .

— وأنا أيضاً كنت لا أصدقه . .

فقالت وهى لا تزال شبه صارخة :

— وما الذى جعلك تصدقه إذن ؟

— قتل دسوقى . .

— ومن الذى قتله ؟

— لا أعرف . .

ولم أشأ أن أقول لها بأن دسوقى كان عشيقاً لأمك . . وأنه قتلها

لما عرف بأن لها عشيقاً غيره . . وأن الذى قتل دسوقى هو هذا العشيق

الثاني . . الذى رأيته أنت بعينيك يتسلل من مخدعها فى الليل . . لم أشأ أن أقول لها هذا . . حتى لا أزيد فى جراحها . . هذه الجراح التى كنت أشعر بمدى آلامها فى نفسها . . ولكنها أدركت قصدى . . لأن صوتها اختنق فجأة . . وقالت وهى تحاول أن تجفف الدموع التى كانت تغرق وجهها :

— أرجو أن تذكر . . أنها أمى . . وأنها قد ماتت . . وأن الترحم على الموتى قد يكون ترحماً على الأحياء كذلك . . .
ونفضت لتخرج . . فلماذا أبجد نفسى دون أن أدري ودون تفكير أيضاً . . أمد يدي إلى ورقة أمامي . . وأكتب عليها رقم تليفونى الخاص فى المكتب وأناوله لها . . وأنا أقول . . وكأن كل جارحة فى . . ترجو وتلع فى الرجاء . . أن تتصل بى ثانية . . وتتصل بى فى أى وقت . . وفى أية لحظة تشاء . . وسوف تجلنى دائماً عند حسن ظننا . .
فتناولت منى الورقة . . دون أن تنطق . . لأن صوتها كان لا يزال مختنقاً . . ولما انصرفت ، وغادرت الغرفة . . أحسست بأنها قد أخذت منى شيئاً وانصرفت به . . ولكن ما هو هذا الشيء ؟ . . كنت لا أدري . .

ظل هذا الإحساس يراودنى زمناً .. ويلح على أبناماً .. وكنت كلما
 مر يوم أحسست به يزداد على إلحاحاً .. وأزداد رغبة في رؤيتها .. ولولا
 أننى تماسكت .. لكنت قد ذهبت إليها فعلاً ، ولولا أننى أحاسب نفسى
 دائماً قبل كل خطوة أخطوها .. لكنت قد تصرفت تصرفاً آخر ..
 ولكنى فكرت .. وفكرت كثيراً وطويلاً .. حتى كاد يجهدنى التفكير ..
 أو هو أجهدنى فعلاً .. ماذا أريد من هذه الفتاة ؟ .. وما هو هذا الشيء
 الذى أخذته منى ؟ .. ولماذا أخذته ؟ وهل هى التى أخذته منى ؟ ! أو أنا
 الذى أعطيتها لإياه .. ومن هو المتسبب فى هذا الفعل .. الذى أخذ ..
 أم الذى أعطى .. وعلى من تقع التبعة ؟ ! أتقع عليها هى لأنها أخذت
 ما أخذت .. أم تقع على أنا لأننى أعطيت ما أعطيت ؟ !

وخرجت من ذلك بأن هناك تبعة فعلاً .. بدليل حدوث الفعل وهو
 هذا الشيء الذى أخذ ، ولكن الذى لم أستطع الوصول إليه هو السبب أو
 الأسباب الحقيقية التى دفعت إلى حدوث هذا الفعل .. أهى الظروف
 القاسية التى التقيت بهذه الفتاة فيها .. أم هو هذا الخلق الطيب الذى
 أعجبت به .. وهذا الشعور المرهف الذى شفت حساسيته إلى هذا

الحد .. حد هذه الانطباعات التي ترك أثرها في الغير .. واضحة كل هذا
الوضوح .. معبرة كل هذا التعبير .. الذي لا تستطيع أن تتركه ..
أو تعبر عنه حتى الملائكة نفسها .. أم هو هذا الطهر الأصيل في جوهره ،
الذي لم تزد النار إلا صفاء .. ولم يزد الاحتراق إلا صقلا وحساسية
وإشراقا ..

فكرت في هذا كله .. وفي غيره أيضاً .. من أحساسينس مماثلة ..
تأثرت بها تأثراً كبيراً .. ومع ذلك لم أجد جواباً شافياً أطمئن إليه ..
ولذلك وجدتني أسأل نفسي هذا السؤال المفاجئ .. وكأني محقق أحقق
مع نفسي في قضية هامة يكاد يتوقف عليها مصير إنسان :
— هل أحب هذه الفتاة ؟

وشرق حلقى .. وابتلعت أنفاسي .. وتلعثمت ولم أجب .. ولم يكن
سبب ارتباكى هذا المفاجئ ، وحالة الاضطراب هذه التي التابثني فجأة ،
لم يكن مبعثها عجزى عن الجواب .. لا ، لم يكن ذلك .. وإنما الذي
أربكني إلى هذا الحد وجف له حلقى واضطربت له أنفاسي هو أنني
وجدت الجواب .. يأتي سريعاً وبأسرع مما كنت أنتظر .. و ..
بالإيجاب ..

...

إذن أنا أحب هذه الفتاة فعلاً .. وإذن فأنا المتسبب في الفعل ..
لأنني أنا الذي أعطيت وأعطيت شيئاً غالياً .. أعطيت قلبي .. وأعطيتها

طواعية .. وعن طيب خاطر .. وبلا أدنى مساومة أو فصال .. أو تأثير .. بل حتى دون علم منها أنها أدخلت شيئاً ..

ولكن كيف حدث هذا ؟ وكيف أجمرت هذا الجرم .. بحيث إنى أدس فى يد إنسان شيئاً دون أن يدرى .. شيئاً قد يضر به .. قد يزيده آلاماً فوق آلامه .. ومتاعب فوق متاعبه .. وحتى إن لم يكن ذلك .. حتى لو رجب به .. حتى لو طرب له ورضى عنه .. أفليس هذا فيه تغرير بالغير .. وأى تغرير أكثر من ذلك : تهب للإنسان هبة .. لست أنت وحده صاحب الحق فى التصرف فيها .. إنها ملكك حقيقة .. لأنها قلبك .. ولكن هذا القلب .. هناك كثير من مقومات حياته الأخرى .. لها الحق فيه .. مثلك تماماً .. مجتمعتك .. عملك .. أسرتك .. أبوك .. أمك .. مركزك كقاض .. أكل هذا يجعلك تفرط فى هذا الشيء بهذه السهولة التى فرطت بها أنت .. تبيع لك أن تحب راقصة .. تتزوج من راقصة .. تظهر مجرد الظهور فى المجتمعات مع راقصة .. مع فتاة أنت تعلم قبل سواك .. أنها ابنة سفااح .. ابنة زنا .. ابنة خطيئة .. أمها بغي .. عشقها رجل .. وعشقت غيره .. وماتت وهى تتمرغ فى الوزر .. غارقة فى حمأة الرذيلة .. وأبوها سواء كان دسوقى أم غيره .. هو رجل مجهول .. إلا من الإثم الذى يدل عليه .. والوزر الذى ارتكبه .. والخطيئة التى تشير إلى وجوده ..

وإذا أنت تفاضيت عن هذا كله . . وضربت به عرض الحائط . .
وتحللت من كل القيم . . مجتمعتك الذى تعيش فيه . . أسرتك التى
تنتمى إليها . . مركزك الذى تفخر به . . إذا أنت تفاضيت عن هذا
كله . . وألقيت به خلف ظهرك . . وتحللت منه . . فكيف تتحلل من
ضميرك . . عندما تحنث باليمين المقدسة التى أقسمتها على احترام المهنة . .
والمحافظة على قدسيها . . إذا ما جعلت مطية رغباتك تعبر طريقها فوق
جسر المهنة التى أقسمت اليمين على احترامها . . بأن تحب متهمة . .
كنت أنت تحقق معها فى إحدى القضايا . . ولو لم تكن مهنتك
كمحقق أفكنت تعرفت على هذه الفتاة وأحببتها ؟ .. وهل معنى ذلك أنه
من حقل ومن حق أى محقق آخر أن يحب عشرات الفتيات والنساء اللواتى
يقفن أمامه فى تهم مماثلة . . أو غير مماثلة ؟ !

إنها الآن قد زالت عنها هذه الصفة . . ولم تصبح متهمة . . وإنما هى
الآن حرة طليقة . . شأنها شأن أية فتاة أخرى . . من حقل أن تحبها وأن
تندله فى حبها . . وتزوجها . .

إن هذا قول تغالط به ضميرك فقط . . أو أن ضميرك الذى سكت
عن هذا الجرم هو الذى يغالطك بهذا القول . . وإلا فماذا يكون
موقفك . . لو أنك أحببتها وتزوجتها . . ثم لأمر ما أعيد التحقيق فى
هذه القضية . . واتضح لك أن هذه الفتاة هى القاتلة . . هل تتجرّد
لحظتها من ضميرك . . وتحنث بقسمك . . وتخون الأمانة . . وتخرجها

من التحقيق نظيفة اليد من الدماء التي تلوثت بها . . أو أنك ستقدم رأسها
للمشقة ؟ . . وهبك فعلت . . وكان لك منها أولاد . . وجاعوا يوماً يسألونك
عن أمهم . . هل يصمد ضميرك للسؤال . . أو أنه سيغالطك كما
يريد أن يغالطك الآن . . وكما غالطك من قبل . . عندما كانت صفة
الاسهام لا تزال قائمة وكانت تقف أمامك كتهمة . . وأنت تجلس أمامها
كمحقق . . ومع ذلك . . وباسم العطف . . والشفقة . . واستنكار الظلم . .
وما إلى هذه المملات التي تختفي وراءها رغباتنا الحقيقية . . عندما تجابهنا
ضمايرنا . . إذا ما ثبت أنك حدث عن طريق الحق . . والقانون . .
والعرف . . وتقاليد التحقيقات . . وأنفقت عليها من مالك . . وأعطيتها
نقوداً مما تملك . . وسألت عنها في السجن . . وأمرت بتهيئة أسباب الراحة
لها فيه . .

وسمعت صوتاً في أعماق يصرخ :

— إذن أنا كنت أحبها حين ذاك . .

— ومنذ أن وقعت عينك عليها . .

وبرغم أن هذا الصوت الذي صرخ فجأة من أعماق أروعني كثيراً . .
إلا أن الذي أروعني أكثر أنني وجدته يتلاشى في نفس الأعماق ويلوذ
بالصمت والصمت المطبق . . مما جعلني أتوجس خيفة . . وأخشى أن
يستيقظ ثانية ويغرقني في هذه الدوامة . . التي أروعني هذا الرعب . .

• • •

لكن هذا لم يحدث .. فقد خرجت من هذه المعركة منتصراً .. وبدأت أقدر أشياء .. كنت لا أقدرها .. وأسعد بأشياء كنت أشقى بها .. فقد كنت أظن أنه من أشقى ما يشقى الإنسان هو محاسبته لنفسه .. هذا الحساب العسير .. على كل صغيرة وكبيرة .. وقبل كل فرسخ يقطعه أو حتى خطوة يخطوها .. ولكن بعد أن خرجت من هذه المعركة .. التي حاسبت نفسي فيها هذا الحساب المرير .. أحسست بسعادة بالغة لهذه النتائج التي وصلت إليها .. وهذه الخطوة الأولى التي وقفت عندها .. وسددت بها ذلك الطريق الشائك الذي كنت سأخترقه بجهالة غير فطن إلى هذا الشوك .. الذي على جانبيه .. والذي كنت من غير شك سوف لا أفطن إليه أبداً إلا بعد أن تدمى قدمي .. وأعود مثخن بالجراح .

ومرت الأيام .. وظل الصمت مطبقاً .. حتى عشت العناكب على كل شيء وحجبت في عالم النسيان .. فنسيت كل شيء .. حتى ذلك الشيء الذي كان قد أخذ مني أو الذي كنت قد أعطيته ؛ فقد أصبح الأمر سواء .. سواء الذي أخذ والذي أعطى .. الذي باع والذي اشتري .. طالما أن السلعة قد بارت .. وأصبحت غير ذات موضوع .. وكما هي عادتي غرقت في دوامة العمل .. وحققت عشرات القضايا .. فقدر لي النجاح في أكثرها .. مما جعلني أنسى متاعبي جميعاً .. حتى متاعب الذكري أيضاً نسيتها ولم أذكرها .. إلا كما يذكر المسافر بعض المناظر الجميلة أو القبيحة التي مرت به .

وظللت كذلك . . إلى أن فرحت ذات يوم بأنى إنما وقعت في صلال كبير . . وأن هذا النسيان الذى عشت فيه كل هذه الأيام . . لم يكن إلا نوعاً من التخدير . . وأنى ما زلت أحب هذه الفتاة . . وأن هذه الأيام التى مرت . . وهذا النسيان الذى كنت قد ظننته لم يكن إلا ستاراً . . احتجبت خلفه مشاعرى . . حتى ينمو هذا الغرس . . وتمتد جذوره بحيث لا أستطيع اقتلاعها إذا أردت . . وقد اكتشفت هذا فجأة وبلا قصد مئى أو رغبة في اكتشافه . . فقد حدث أن اتصل بي صديق عزيز من الزملاء . . وأخبرنى بأن صديقاً ثالثاً لنا من الزملاء أيضاً . . قد صلب أمر تربيته . . وأنه يجب أن نقيم له حفلاً بمناسبة هذه الرقية وأن يقتصر الحفل على ثلاثتنا . . باعتبارنا أقرب الأصدقاء إليه . . وطلب منى أن أحدد له المكان الذى مستقضى فيه سهرتنا . . ووجدتنى دون أن أفطن إلى ما أقول أو أفكر فيه أو حتى أتريث في القول . . أختار له المكان . . وأصر عليه بالذات وهو الملهى الليلي الذى ترقص فيه زينات في طريق الهرم . . لنقضى فيه سهرتنا . . والغريب أنه عندما وافق . . فرحت كثيراً وفرحت في جنون . . حتى إننى رحت أعد الساعات الباقية على لقاءنا والذهاب إلى هناك . . ولما التقينا . . أحسست وأنا أدخل معها إلى هذا الملهى لأول مرة في حياتى . . أننى إنما أدخل ابغثة . . ولذلك جلس معهما إلى المائدة أتحدث وأتندر . . وأضحك على غير العادة في ابتهاج شديد . . وفرحة زائلة . . تكاد تنطلق نوراً من عيني تبث في

أركان الملهى . . عن الفتاة . . وكنت أصور وأنا أجلس معهما إحساسى
عندما أراها . . أو إحساسها هى . . ومشاعرها عندما ترائى فى الصالة
وتقع عنها على بين الرواد . . وهى ترقص فوق خشبة المسرح . . وأحسست
بشيء من الضيق . . وظللت زائغ النظرات . . أبحث عنها يمينا وشمالا . . وأردت
أن أسأل عنها أحد الخدم . . ولكنى تحرجت من السؤال لوجود من معى
وأيضاً لوجود بعض الزملاء من القضاة وكلاء النيابة . . يجلسون إلى المائدة
القرية منى مع زوجاتهم . . وأحسست أننى إذا سألت عن راقصة . .
ارتكبت عملاً مشيناً . . وقام صراع بينى وبين نفسى . . حتى إننى
فكرت فى أن أذهب إلى خارج الصالة . . وأتحدى ركناً بأحد الخدم
وأبعثه إليها بورقة منى وأقول لها إننى فى الصالة وإننى أريد رؤيتها بعد أن
تنهى من رقصتها . . ولكنى لا أريد رؤيتها فى الصالة . . حتى لا يراى
أحد معها وأترك لها هى أن تحدد لى المكان الذى سأراها فيه . . فكرت
فى هذا لدرجة أننى كدت أهم بتنفيذه . . لولا أننى استهجنتم هذا
الفعل . . واعتبرت هذا التصرف نزقاً لا يتفق مع شخصى أمام أحد
الخدم . . مهما كان هذا الخادم والنية الحسنة التى ينطوى عليها تفكيره . .
وتريشت . . وانتظرت حتى تظهر على المسرح وقلت لملها عندما ترائى
وهى ترقص تتصرف هى نفس التصرف . . وتعفينى من هذا الحرج أمام
خادم من الخدم . . . غير أن الذى حدث شيء غريب لم أكن أتوقعه . .
فقد حل موعد المرة الراقصة وأعلن عنها فى المايكروفون . . كما هى

العادة . . وإذا بالاسم غير الاسم . . وإذا بالتى ترقص غير زينات . .
 وشعرت بضيق شديد لا حد له . . وظللت طوال السهرة . . مشغول البال . .
 أعيش بعيداً عن نفسي . . وعن الدين معى . . ولولا بعض من عقل . .
 وبقية من تريت . . لافتضح أمرى . . وعرف من معى . . لماذا جئت
 بهما إلى هذا المكان بالذات . . ومن غير شك أن معرفة هذا كان سيسىء
 إلى كثيراً . . وظللت أفكر فى أشياء كثيرة . . لم تكن لتخطر لى على بال
 من قبل . . ولم أكن لأصدق أنه سيأتى اليوم الذى يحلنى أنا بالذات
 أفكر فيها . . وعندما بدأ الليل ينتهى . . وينتهى معه هذا الحفل الساحر . .
 الذى كان إمتاحاً لجميع من شارك فيه إلا أنا . . أحسست بما يشبه
 الاختناق تماماً . . إذ كيف أنصرف دون أن أعرف لماذا هى غائبة ؟
 أو لماذا لم تجئ هذه الليلة . . وهل تغيب هذه الليلة فقط . . أو هى غائبة
 منذ أيام . . وهل هذه هى أول مرة تغيب فيها . . أو هى متعودة أن تغيب
 بين الحين والحين . . وهل هى مريضة . . وهذا هو سبب إمتناعها عن
 الحضور الليلة . . أو أن هناك ما شغلها عن الحضور . . وإذا كان
 كذلك . . فما هو يا ترى هذا الشيء ؟

أحسست برغبة شديدة في أن أعرف شيئاً . . . أى شئ . . . ومع أن الخداع ليس من خلقى . . . وحتى إذا أردت أن أخادع . . . فأنا لا أعرف . . . مع ذلك لحأت إليه . . . والغريب أنني نجحت فيه نجاحاً لا بأس به . . . نجاح من تعود تجربته على الأقل . . . فقد تعلمت أن أترك علبة سبائرى ولا أعنى الذهنية على المائلة . . . عندما انصرفت مع الصديقين . . . وفي أسفل السلم قد كرتهما . . . فتركت من معى في هذا المكان البعيد . . . وعدت إلى المائلة . . . فوجدت أحد الخدم يحتفظ لى بهما . . . فشكرته وأظهرت له سرورى لأمانته . . . وإتهزت هذا الظرف المواقى . . . وألقته ميلافاً ، بسألكه على الفور . . . ولكن دون أن يفتن إلى أهمية السؤال . . . عن زينات . . . ولماذا لم تجئ الليلة . . . وترقص فى الملهى كعادتها . . . ولما قلت له ذلك . . . ارتسمت علام الأسف على وجهه . . . وقال فى صوت حزين . . . وكأنه يتحدث عن إنسان عزيز مات :

— لقد طردوها من المحل .

فاندعشت على الرغم منى . . . وظهر الاستغراب واضعاً على وجهى . . .

وقلت :

- طردوها . . ولماذا ؟ !

- كانت قد اتهمت في جريمة قتل . . وقبض عليها وسجنت أياماً . .
فتجاهلت . . وقلت له :

- قتل من ؟ !

- قتل سيالة من أسرة كبيرة جداً . .

- ولكنها . . على ما سمعت برئت من التهمة . . وخرجت من السجن .
فقال الرجل في سبيلاجة الشرق الطيب القلب :

- لكن المحل يا سعادة البية . . يجب أن يحافظ على سمعته . .
فتركته وانصرفت . . ولا أدري ماذا حدث لي . . ولا ما هي الأفكار
والهواجس التي حشت فيها في هذه الليلة . . ولا في الأيام التي أعقبتها . .
ولنما الذي أدريه هو أنني كنت أشعر برغبة لا تقاوم في رؤيتها . .
وفكرت في أكثر من سبيل إلى ذلك . . فكرت في أن أذهب إليها في
بيتها . . ولكن إذا فعلت . . فهل تستقبلني استقبالا حسناً . . أو هي
ستمتنع عن مقابلتي . . وتظن في ظننا سيئاً . . ومن حقها أن تظن هذا
الظن . . ومن حق أي إنسان غيرها أن يظن هذا الظن أيضاً . . وإلا فما هي
الدوافع والأسباب التي تدفع شاباً مثلي لزيارة فتاة جميلة في بيتها . .
وقد انقطعت جميع الرسميات التي كانت تربط صلته بها . . وهبها كانت
أكرم خلقاً . . من أن تظن هذا الظن السيئ الذي لم يخطر لي على بال . .
ولن يخطر لي يوماً على بال . . أليس مجرد زيارتي لها فجأة في بيتها

وبلا مقدمات . . أو سابق موعد . . كفيلاً بأن يثير الرعب في قلبها . .
ويجعلها تسقط مغمياً عليها ، كما حدث لها أثناء التحقيق . . إذ ستنظن
قطعاً أنني جئت لأقبض عليها ثانية . . وأحقق معها مرة أخرى . . ثم أنا . .
أنا شخصياً ماذا سيظن الناس . . لو تصادف ورائي أجد يعرفني . .
أو وقف أمامي يوماً في قضية . . أو كان يدخل العبارة أو يخرج
منها . . أو هو قاطن فيها ورائي أطرق باب راقصة . .

واستبعدت هذه الفكرة نهائياً . . ورفضتها رفضاً باتاً . . ورحت
أفكر في غيرها . . كأن أبعث لها رسلاً مثلاً . . يخبرها بأنني أريد
أن أراها مجرد الرؤية . . لكي أطمئن عليها فقط . . ولا سيما بعد أن عرفت
أنها تركت عملها . . وأترك لها هي تحديد المكان والزمان الذي تريد . .
حتى هذه الفكرة أيضاً استبعدتها . . ولم أعد أفكر فيها ثانية . . لا لأنها
محفوفة بالمخاطر . . كالفكرة السابقة . . ولكن لأنني لم أجد هذا الرسول
الذي يؤمن بطهارة أخلاق الناس . . وحسن نواياهم .

ومرت عدة أيام . . أنعمت التفكير فيها كثيراً . . وبدأت أشعر
بكرامية لا حد لها لهذا المجتمع الذي نعيش فيه . . والذي يفترض
السوء أولاً . . ويفترضه في كل شيء . . بحيث يجعلك تحتاج إلى جهد
قد يفوق جهد الأنبياء . . لتقنعه بالنية الحسنة . . وهذا بلاء كبير . .
يصاب به الخلق في الصميم . . لأن عهد الأنبياء قد انقضى . . ولذلك
فأنت لكي تصل إلى ما تريد وتحقق رغباتك مهما كانت سامية . . يتحتم

عليك أن تفترض السوء أولاً . . وإن أنت افترضت السوء . . كنت سيئاً . .
أو تصبح على الأقل كالأخرين . . وأنا لا أريد أن أكون كذلك . .
حتى مع نفسي على الأقل . . ولذلك أجهدت نفسي كثيراً لكي أهتمنى
إلى الطريق الذى يوصلنى سالماً إلى ما أريد . . ومكثت كذلك إلى أن حدثت
ذات يوم أن كنت أقود سيارتى فى أحد الشوارع الهامة . . فى طريقى إلى
مستشفى كبير معروف لزيارة مريض هناك . . غير أننى فى وسط المسافة
وجدت الطريق معطلاً . . بسبب حادث تصادم ضخم انقلبت على أثره
إحدى عربات الترام وتحطمت سيارة كبيرة وتناثرت أجزاؤها . . فاضطرت
للعودة واختراق طريق آخر كنت لا أعرف مسالكه جيداً . . ولذلك
كنت بين الحين والحين أضطر للسؤال أو قراءة لافتات الشوارع . . إلى
أن تصادف وقرأت لافتة تحمل اسماً لشارع أذكره جيداً . . وأذكر أن
اسمه تردد أمامى أكثر من مرة . . وأذكر غير هذا . . إن ذاكرتى ما زالت
تحتفظ به إلى الآن . . وتحفظه عن ظهر قلب . . إنه نفس الشارع
الذى تقطنه زينات . . ووجدتني فى تلهف زائد أتلقت على الرقم ١٤
والشقة الثانية من اليمين التى تطل على الشارع . . والغريب الذى اندهشت له
هو الترقى . . والطيش . . والرعونة التى كنت فيها . . وأنا أتلقت ذات
اليمين وذات الشمال باحثاً عن هذا الرقم بالذات وهذه الشقة بعينها . . تماماً
كما لو كنت أعتقد أننى إذا تريت فى البحث لحظات . . انتقل الشارع
من مكانه . . وأقترت معاملته واندثرت المساكن التى فيه . . ومع ذلك

عندما بلغت الرقم ١٤. ووقفت أمام العمارة ورأيت بعيني الشقة الثانية من اليمين المطلّة على الطريق . . لم أفعل شيئاً ولم أحرك ساكناً . . وكل الذي فعلته هو أنني أوقفت السيارة فعلاً . . وهبطت منها حقيقة . . ولكنى لم أُنْجِه إلى تلك العمارة ولم أطرق باب تلك الشقة الثانية على اليمين . . وإنما اتجهت إلى حانوت أمام العمارة مباشرة واشترت علبة سجائر أضفتها إلى العلبتين اللتين فى جيبي . . ومن ثم ركبّت سيارتى وانصرفت على الفور . . .

غير أن هذا الحادث أفادنى من غير شك فائدة كبيرة . . فقد اكتشفت وأنا أشتري علبة السجائر أن بجانب الحانوت وأمام مدخل العمارة مباشرة مطعماً فاخراً ، عرفت فيما بعد أنه اشتهر بتقديم أجود أنواع السمك . . وقد لاحظت على رواده أن أكثرهم من عليه القوم . . وأن مثلى لا يشعر بحرج إن هو جلس وتناول طعامه فيه . . وكان مبعث سرورى فى هذا هو أننى لو تناولت الغداء يوماً فى هذا المطعم . . وجلست فيه أكبر وقت ممكن بحجة تناول الطعام . . فربما شاهدتها . . وهى تدخل العمارة أو تخرج منها أو رأيتها وهى تعبر الطريق مادام أنه يتحتم عليها أن تعبر هذا الطريق بالذات . . ومع أننى بطبعى لا أحب هذا اللون من الطعام . . وأشعر بأن السمك بالذات يسبب لى متاعب صحية كثيرة . . فقد كنت معمولداً . . وكانت معدنى مدللة إلى حد الإزعاج . . ومع ذلك ما كاد يأتى ظهر اليوم الثانى وأفرغ من عملى حتى أسرعرت إلى هناك . . .

وكما أن الآلام — إذا كثرت — تعلمك الصبر والأناة وقوة الاحتمال . .
فكذلك الحب إذا طغى . . يعلمك المكر والدهاء . . ويفتح ذهنك عن
أفكار كثيرة صائبة . . فقد تعلمت أن أوقف سيارتي أمام مدخل العمارة
بالمئات وليس أمام المطعم . . لأن ذلك يحتم على أن أعبر الطريق ذاهباً
وأن أعبه عائداً . . وقد يحقق هذا الحدث الذي أنتظره . . وتحقيق
الصدفة التي أبني عليها الكثير من الآمال . . ولا دخلت المطعم . .
تعلمت أيضاً أن أختار مائدتي بجوار النافذة المطلّة على الطريق . . بحيث
تكون الشقة الثانية على اليمين في مواجهتي تماماً . . وبحيث أرى العابرين
جميعاً . . ومن يدخل العمارة أو يخرج منها بالذات . . ومن ثم جلست
أتناول طعامي الذي لم أر له لوناً . . ولم أعرف أهو سمك أم غيره . .
فقد كانت نظراتي مشدودة إلى الشقة ونوافذها المغلقة التي يرين عليها
الصمت وتكتنفها الوحشة، والتي لولا الشرفة وبعض المقاعد التي فيها لظننتها
خالية مهجورة من زمن بعيد مما جعلني أحس بالضيق . . وجعلني أيضاً
أفكر في العودة إلى ما كنت قد صرفت النظر عنه . . وهو أن أبعث إليها
برسول يخبرها بوجودي في هذا المطعم المجاور لبيتها وأطلب استدعاءها إلى . .
وفكرت فعلاً في أن أبعث إليها بأحد من الخدم الذين في المطعم، ولعل الذي
شجعني على ذلك صبي صغير كان ضمن الذين يقومون بالخدمة في
المطعم . وقد توست فيه الذكاء وارتاحت نفسي إليه . . وإلى الابتسامة
التي تعلو ثغره دائماً . . مما جعلني أألفه وأسأله عن اسمه . . ولكني

لم أفعل . . وكل الذى فعلته هو أننى بعد أن جلست ما يزيد على الساعتين تناولت خلالهما طعامى على مهل ممل وشربت أكثر من فنجان من القهوة لأطيل جلستى ديون فائدة . . وجهتني أضجع فى يدي هذا الصبي مبلغاً كبيراً من المال وأنصرف . .

ترى هل أدخر أنا هذا الصبي لشيء ؟ ؟ !

وكثر ترددى على هذا المطعم بعد ذلك . . وكنت أتناول فيه طعامى كل يوم ، وأجلس إلى تلك المائدة بالذات التى هى فى مواجهة الشقة الثانية على اليمين ، المظلة على الطريق . . حتى إن الخدم تعرفوا على وكانوا من كثرة ما أجزل لهم فى العطاء ولا سيما ذلك الصبي الصغير الذى لا تفارق الابتسامة شفتيه يحرصون على إعداد هذه المائدة لى بالذات ، وقد نتج عن ذلك . وعن السمك الذى كنت آكله كل يوم ، أن أصبت بنزلة معوية حادة . . ومع ذلك لم أصل إلى نتيجة . . فالنوافذ مغلقة بصفة دائمة . والصمت يطبق عليها من كل جانب ، وكما قدمت ، لولا بعض المقاعد التى كانت فى الشقة التى كانت تستبدل أماكنها من حين إلى آخر . . لظننت أن الشقة فارغة ، ومع ذلك لم أياس . . ولم أقطع الأمل . وما كنت أحسب أبداً أن المحب يهون عليه العذاب إلى هذا الحد . . فقد كنت أحتمل هذا كله بهلوه غريب ، وظللت كذلك إلى أن اتخذت مجلسى من المائدة ذات يوم . . وراح ذلك الصبي الصغير الذى كنت أخاله من فرط فرحته بلقاءى يكاد برغم صغرسه وضعف بنيته

يحملني فوق كتفيه حتى يجلسني فوق مقعدي أمام المائدة . . وجلس
في هذا اليوم كما هي العادة أطلع إلى الطريق . . وأنفحص المارة فرداً
فرداً . . وكلما رأيت فتاة أو سيدة تقبل من بعيد وترتدى ثوباً يقارب لونه
الثوب الذي كانت ترتديه زينتا عندما قبض عليها وقدمت لي لأحقق معها . .
خجفت قلبي . . وأحسست بفرحة غامرة يعقبها في الحال ضيق شديد عندما
لا أجدها هي . . وأروح بين الحين والحين أيضاً . . أطلع إلى النوافذ
المغلقة ومتمنأ لو أن نظرائي استطاعت أن تخترق هذه الحجب وتنفذ
إلى الداخل وترى الفتاة رؤية العين . .

وبينما أنا كذلك . . أحسست فجأة بأن شيئاً ما سوف يحدث الآن . .
وقد جعلني أومن بأن القلب يرى قبل العين أحياناً وأنه في كثير من
الحالات . . تسبق مشاعره وأحاسيسه سرعة النظر . . فقد رأيت على حين
فجأة باب الشرفة يهتز من الداخل وكأنه يريد أن يفتح . . ولكن في
حذر . . وقد فتح فعلاً . . وفي حذر شديد أيضاً . . وانفرج عن قدر
تستطيع العين من الداخل أن ترى منه ما تريد . . وكان هذه العين
اطمأنت إلى أن أحداً لا يراقبها لأن الباب فتح بعد ذلك رويداً . . فدق
قلبي دقات سريعة . . ومن الغريب أنه ظل يدق بل تزايدت دقاته حتى
بعد أن فتح الباب على مصراعيه وظهر منه شاب وسيم أنيق الملبس في
ثياب فاخرة . . وتناول في سرعة شيئاً ما كان فوق مقعد في الشرفة ثم ارتد
وأغلق الباب بخلفه سريعاً تماماً كأنه لا يريد لأحد أن يراه . . أو يعرف

أنه الآن داخل هذا المسكن .

من المؤكد أني رأيت ذلك تماماً . . ورأيت بهيئتي . . وما زادني تأكيداً هو قلبي الذي ظلت ضرباته تدق طوال الليل وكأنها أجراس الهزيمة تدق في أذن جيش منكسر يتراجع . . ومع أنني فكرت كثيراً إلا أنني لم أكن محتاجاً إلى جهد كبير لتسويغ وجود هذا الشاب في مسكن الفتاة . . فهي كما وضع لي أثناء التحقيق معها أن ظروفها المالية ليست طيبة وأنها لم تلخر مالا تستطيع أن تنفق منه عند الحاجة وأنها لم تكن لتملك غير راتبها المحدود الذي تنقاضه من الصالة التي تعمل بها كراقصة ، وحتى هذا الراتب كان لا يكفيها لنهاية الشهر بدليل أنها عندما قبض عليها سكادت تموت جوعاً لأنها عافت طعام السجن ولم تكن لتملك نقوداً تشتري بها ما تريد مما أثار عطفي عليها وجعلني أنفق عليها طوال مدة إقامتها في السجن تحت التحقيق من مالي الخاص ، وبما لا شك فيه أنه لما انتهى التحقيق معها وأطلق سراحها كانت تعتمد على عملها في الصالة ، ولكنها طردت من عملها ، وطردت وهي لا تملك ملجأ واحداً . وكان لابد لها أن تعيش وأن تأكل وألا تموت جوعاً ، ولا بد أنها احتملت كثيراً وعانت الفاقة كثيراً ولكنها لم تحتمل . . لم تحتمل الفقر الذي يبلغ بالإنسان إلى حد الجوع . وليس من أحد في الوجود يستطيع أن يحتمل ذلك . : يحتمل الفاقة . . يحتمل هذا الفقر المدقع . . إن الفقر شيء بغيفض . . شيء كريحه . . رحم الله عليّ بن أبي طالب حين قال : « لو كان الفقر رجلاً لقتلته » ، ولكنه

من سوء حظ الإنسانية أنه غير متيسر قتله .. لأنه ليس رجلاً .. ومعنى ذلك أنه قادر على تعليمنا دون أن نستطيع نحن حتى أن نمسه .. أن نراه .. وكيف نرى أو نمس شيئاً لا وجود له إلا في كياناتنا الداخلى فقط .. وما يصنعه في هذا الكيان من عذابات .. ومن غير شك أنها فكرت في هذا كله وعاشت تحت وطأة عذاباته التي لا تحتل والتي لم يقدر على احتمالها حتى الرسل .. ولذلك سقطت صريعة تحت وطأته وانحدرت من فوق القمة إلى هذا المنحدر .. إلى هذا المستنقع .. إلى هذا الشاب تبيع له جسدها لكي تأكل ..

مسيكة المرأة .. إن الرجل إذا تكاثرت عليه ذئاب الفقر ، وأوجعته حدة أنيابها وهي تنغرز في أضلاعه .. وجد ما يلغ به هذه النار عن نفسه أو على الأقل ما يهدئ من اشتعالها .. وجد قوته يحفر بها الأرض .. أو يحمل عليها الأثقال كما تحملها الدواب تماماً .. وشقاء أقل من شقاء .. وعذاب أهون من عذاب .. ونار تحرق ذراعاً أو كتفاً .. أهون من نار تأكل اللحم كله .. أمل المرأة فإذا أعوزها الحياة إلى ضرورة البيع فهي لا تملك غير جسدها تبيعه .. ومن سوء حظها أنه سلعة رائجة ما من أحد إلا ويطمع في شراؤها ويدفع فيها الغالى من الثمن .. والنفيس من المال .. ونعجت من نقائص هذا المجتمع الذى يطرد فتاة من عملها الذى تقتات منه لأنها اتهمت بمجرد تهمة ظالمة من الجائر أن يتهم بها أى إنسان غيرها ، في حين أنه يبيع لهذه الفتاة بالذات أن تعرض جسدها عارياً على

الناس وهي ترقص وأن تساوم علانية على هذا الجسد وأن تبعه في السوق لمن يدفع الثمن أكثر . . وأن يبيع في أكثر الأحيان وهو راض مطمئن صفقة هذا البيع ، ويميز عملية هذا الشراء . .

وارتسمت أمام عيني صورة تقرير الكشف الطبي على الفتاة الذي طلبت توقيعه عليها أثناء التحقيق والذي أثبت أنها عذراء ، كما ارتسمت بجانبه تماماً صورة ذلك الشاب الأنيق الذي رأيته بعيني في مسكن الفتاة وأحسست بشيء في صدري يريد أن يتمزق . . إن التبعة من غير شك تقع على أنا وحدي دون سواي لأنني لو اتصلت بالفتاة عقب الإفراج عنها ولم أتردد هذا التردد السخيف الذي كان يشبه تردد الأطفال تماماً لكنت عرفت على الأقل أنها طردت من عملها ، وكنت مددت لها يد المساعدة ، وكنت بذلك أنقذتها من هذه الهاوية التي تردت فيها . . وحلت بيننا وبين هذا المنقلب الذي انقلبت إليه ، وكان هناك أكثر من سبب يدفعني إلى القيام بهذا العمل الإنساني البحت . . الخلق الطيب الذي وجدت الفتاة عليه . . الظلم البين الذي لحق بها دون ذنب أو جريمة . . الصدمة العنيفة التي هزت كيائها وكادت تطيح بها عندما عرفت أصل مولدها . . وحقيقة الجريمة التي جاءت عن طريقها إلى هذه الدنيا . . وهذا البؤس الذي عاشت فيه طوال حياتها تن تحت ثقل مرارته . . وهذه النار التي ظلت في قلبها كل هذا العمر الطويل . . ومع ذلك خرجت منها سليمة معافاة . . لم يحترق معها حتى ظفر . . كما ثبت ذلك رسمياً في

تقرير الطبيب الشرعى . . . وأخيراً هذا الشيء الذى كنت أنا الوحيد دون
سواى الذى يعرفه أيضاً وهو الإلقاء بها فى خضم هذه الدنيا بعد إطلاق
سراحها دون أن تملك قرشاً فى يدها . . .

فكرت فى كل هذا . . . ثم أحسست بأن ذلك الشيء الذى كان
يريد أن يتمزق فى صدرى يتفجر باكياً وتفرقه الدموع كما أحسست ولعل
ذلك لشعورى بالخطأ البالغ حد الجرم الذى ارتكبته فى حق هذه الفتاة . .
أحسست بأننى إنسان آخر . . يختلف عن الإنسان الذى كنته تماماً . .
إنسان عنده من الجرأة أن يفعل ما يريد . . وعنده من الإيمان الثابت
بطهارة خلقه وحسن نواياه أن يضرب صفحاً عن «أنا» وقدرى
ومركزى ووظيفتى ومجتمعى وأبى وأمى وأسرق وما إلى ذلك جميعه فى سبيل
إنقاذ هذه الفتاة واللاحاق بها قبل أن تأتى النار عليها جميعاً وتتركها رماداً . .
وليس فى هذا ما يشينى أو يشين الفتاة . . فالجرح الذى أصيبت به
لم يكن عن قصد منها وإنما أرغمتها قوة خارجة على إرادتها أن تعرض
نفسها إليه وتطعن نفسها به . . زما من أحد فى الوجود يمسك بسكين
ويطعن بها نفسه إلا إذا كان الموت أحب إليه من هذه النفس . . وأنا
موفقى معها فى هذه الحال سيكون موقف الطبيب الذى يعرف مكان الداء ،
وإذا عرف الطبيب مكان الداء ضمن الشفاء وضمن للمريض البرء منه
نهائياً ، وما من إنسان له ضمير وفى استطاعته أن يشفى إنساناً ، يتخلى عن
هذا الواجب .

ولذلك كان أول شيء فعلته هو أنني ذهبت في ظهر اليوم الثاني وفي نفس الموعد المحدد . . لذهابي كل يوم إلى المطعم . . الذي يواجه العمارة التي تقطن فيها الفتاة وجلست على المائدة نفسها وقد عزمت على أن أفعل شيئاً بالذات . . ولذلك رحت كما هي العادة أتطلع إلى الشقة الثانية على اليمين المطلة على الطريق وإلى نوافذها المغلقة كما هي العادة كل يوم والشرقة التي لم يتغير فيها شيء أو حتى تزحزح مقعد من مكانه . . غير أنني لا أنكر أنني في هذا اليوم كنت أنظر إلى هذه النوافذ المغلقة وأشعر بما يشبه أنياب الثعابين الصغيرة تنغرز في صدري وتقطع في نياط القلب وازددت إحساساً بهذه الآلام أنني بعد أن جلست بدقائق رأيت سيارة أنيقة حمراء تحمل رقماً التقطته سريعاً تقف أمام مدخل العمارة بالذات وخلف سيارتي مباشرة ويهبط منها ذلك الشاب الوسيم الأنيق الذي رأيته بالأمس في شقة الفتاة . . ورأيته أكثر وسامة وأناقة عنه بالأمس ، ورأيته يحمل بعض اللقافات بين يديه واستطعت أن أتبين إحداها وأعرف من طريقة لفها ومن الزجاجاة البارزة من اللقافة أنها زجاجة من الخمر . . وبعد أن أغلق السيارة أسرع بالدخول إلى العمارة وهو يتلفت حواليه كما كان يفعل تماماً وهو يخرج إلى الشرقة أمس وكأنه لا يريد لأحد أن يراه .

رأيت ذلك كله بمعنى هذا اليوم أيضاً . . وكنت أتهوى في مكاني وكان البسمل اللعين قد قدم إلى . . فلم أشأ أن أنظر إليه ثانية . . فقد

تبدى لعيني أشبه بالثعابين التى تنهش فى صدرى والى ازدددت إحساساً
بآلامها بعد أن رأيت الشاب بعيني يدخل بيت الفتاة . .

وكان الصبي الصغير الذى لا تفارق الابتسامة ثغره يروح ويحيى
حول وكأنه كلب أليف يصبصلى بذنبه، وما إن رأيت حتى واتنى بفكرة
نفلتها سريعاً لكى لا أعود فأتقاعس عنها وأخرجت ورقة وقلماً من جيبي
وكتبت للفتاة ما معناه أننى الآن فى المطعم الذى يقابل بيتها مباشرة ، وأننى
أريد أن أراها الآن لأمر هام جداً وأننى فى انتظارها . .

كتبت هذا وأردت ألا أكتب شيئاً آخر . . ولكنى عدت وفكرت . .
ربما والسبب وجود هذا الشاب عندها الآن يتعلل عليها الخروج . . وأحتاج
إلى هذه المحاولة مرة أخرى . . ولذلك زدت على ما كتبت . . وأنه لو تعذر
عليها مقابلتى الآن فإنى أنتظر منها تليفوناً فى وقت حددته لها وعينت لها
ساعته وهو الوقت والساعة الذى سأكون فيهما فى هذا الرقم الذى دونته لها .
دوتت هذا كله سريعاً فى الورقة التى أخرجتها من جيبي وطويتها ثم
أشرت إلى الصبي الصغير بأصبعى فجاءنى يركض ككلب الصيد تماماً . .
فقلت له فيما يشبه الهمس لأننى من غير شك أحسست بمخرج عندما
بدأت أنفذ ما اعتزمت عليه :

— هل ترى هذه العبارة ؟

أشرت له بنصف أصبعى حتى لا يلاحظ أحد . . فقال :

— نعم .

— وترى هذه الشقة الثانية على اليمين ذات النوافذ الثلاث المغلقة ؟

— نعم . . نعم .

فقلت وقد ازداد صوقي خضوتاً وأنا أناوله الورقة :

— أعط السيدة التى تقطن الشقة هذه الورقة . . وانتظر ماذا

ستقول لك وعد سريعاً .

فقال الصبي فى غير مبالاة :

— حضرتك تقصد الست زينات الراقصة ؟

فأنتهجت مطمئناً لأنه يعرفها . . وقلت وأنا أبتسم :

— نعم . . نعم . . هى .

فقال الصبي وقد تلاشت الابتسامة من على ثغره . . شأن من يعجز

عن جميل كان يود أن يصنعه :

— لأنها تركت هذه الشقة منذ أسابيع والآن يقطنها شخص آخر .

إن الإنسان كتلة من التناقضات أو أنا كذلك على أقل تقدير . . .
 فقد كان الذى ينتظر أن يحدث عندما سمعت هذا النبأ . . . أن تأخذنى
 المفاجأة . . . فقد كنت أنتظر كل شيء إلا أن أسمع هذا . . . أو أفكر
 فيه . . . وما دمت قد سمعته فكان يجب علىّ أن أضيق به أولاً . . . ثم أضيق
 بنفسى ثانية وأضيق بهذه السلسلة الطويلة من الهواجس السوداء التى عشت
 فيها طوال تلك الأيام والساعات منذ أن رأيت هذا الشاب ، وظننت فيه
 ما ظننت واتهمت الفتاة بما اتهمتها به . . . ولكن العكس تماماً هو الذى
 حدث . . . لأننى ما كدت أسمع ما قاله الصبي وأعرف أننى كنت خاطئ
 الفهم حتى انتابتنى فرحة جارفة . . . كادت تخرجنى حتى عن وقارى
 الذى اعتدت أن أكونه حتى بينى وبين نفسى . . . ورحت من فرحتى
 أريد أن أفعل شيئاً أو أفعل كل شيء . . . أن أضحك مثلاً بصوت
 عال . . . أحتضن هذا الصبي وأقبله . . . أخرج كل ما فى جيبى من نقود
 وأعطيه إياها . . . أوزعها على هؤلاء الخدم جميعاً . . . أطعم كل هؤلاء الذين
 فى المطعم على نفقى . . . ولما لم أستطع أن أفعل شيئاً من هذا ، فعلت كل
 ما أريد فى طبق السمك الذى أمامى والذى كان يتبدى لعينى من لحظات

قصار أشبه بالشعابين تماماً . . رأيت في عيني كالفرحة التي أنا فيها وفي ثغري أحلى مذاقاً من الشهد ولذلك التهمته التهاماً وأكلته عن آخره . . ولم أفعل ذلك فقط . . وإنما طلبت مزيداً من هذا الطعام الذي هو من أحلى ما تذوقته في حياتي . .

أكل هذا لأنه ثبت لي خطأ ظني في الفتاة . . وأنها بريئة من هذه التهمة الظالمة التي اتهمتها بها وأن عرضها طاهر لم يمس . وأن ذيلها نظيف لم يلوث ؟ . . وهل إلى هذا الحد يهينى شرف هذه الفتاة ؟ وهل هو يهينى إلى هذا الحد الكبير من أجلى « أنا » وخلقى الذى بطبعه يستنكر هذا الجرم ويستبشع هذه الجريمة ؟ أو هو يهينى من أجل هذه الفتاة بالذات . وحرصى على سلامتها من بالذات ؟ من غير شك أنه من أجلها هي . . وليس من أجلى أنا . . أو أجل خلقى . . أو تربيتى . . أو طباعى . . بدليل أننى عندما رأيت ذلك الشاب وظننت فيها هذا الظن الذى بلغ عندي مرتبة الإيمان . . كنت خالصة النية صادق العزم على أن أمد لها يدى وأنتشلها من هذه البئر التي هوت إلى قاعها . . إذن الأمر أمر الفتاة بالذات وليس أمر سواها . وليس هو أمر العطف فقط كما كنت أظن . . أو كما كانت تعالطني نفسي وتريد أن تقنعني . . بأن صلتى بالفتاة هي أننى ربما أستطيع ذات يوم عن طريق هذه الصلة أن أكتشف شخصية ذلك الرجل الذى ضبطته الفتاة في مخدع الخبيث عليها والذى أصبح هو المفتاح الوحيد لهذه القضية بعد قتل دسوقي . .

إذن لم يكن الأمر أمر هذا أو بعضه أو كله . .
 إنما هو أمر الفتاة . . والفتاة بالذات . . وإذن . . أنا أحب هذه
 الفتاة . . .

• • •

كانت المشكلة التي واجهتني والتي شغلت بالي وقتاً طويلاً هي كيف
 أعثر على زينات وأهتدى إلى عنوانها . . وأعرف أين تقيم . . وكان هذا
 بالنسبة لي أمراً عسيراً كل العسر . . فقد تبين بعد كل هذه الأحداث
 جميعاً . . وبعد أن تأكدت هذا التأكد البالغ حد الإيمان والذي لا سبيل
 إلى الشك فيه . . أنني أحب هذه الفتاة . . تبينت أنني ما زلت عند
 طباعى التي سببت عليها . . وهي خجلى الشديد وارتباكى الذي لا حد له
 في كل ما يمس عواطفى الخاصة ويتصل اتصالاً مباشراً بمشاعرى وأحاسيسى .
 وإلا كان عندى أكثر من سبيل لمعرفة مكانها والعثور عليها في ساعات
 ولكننى لم أجرو حتى على مجرد التفكير في ذلك برغم الأسباب القوية التي
 تدفعني دفعاً لرؤيتها واللقاء بها . . لا من أجل الشوق إلى رؤيتها فقط
 أو الرغبة المتزايدة في التحدث إليها والجلوس معها، وإنما لكي أطمئن عليها
 وأعرف كيف تعيش . . ومن أين تترزق بعد أن طردت من عملها . . حتى
 لا تضطرها الظروف إلى التورط فيما كتبت قد ظننتها تورطت فيه واهتمتها
 به ظلماً . . واهتمتها بلا تزيث أو تبصير في خطورة هذه التهم الظالمة التي
 يتهم بها الناس . .

وهكذا مكثت ثلاثة أيام كادت هذه المشكلة تنسفي حتى وجودي ككائن بشري يعيش على وجه الأرض . . . ولا ضائق في التفكير ، وثقل على نفسي . . . وبدأت أستشعر ثقله . . . ومرارته أيضاً . . . فكرت في أن أبدأ إلى وظيفتي وأعيد التحقيق في القضية من جديد . . . ومن السهل وجود الأسباب التي تبرر ذلك وأطلب القبض على الفتاة مرة أخرى ولا بد من أنه سيقبض عليها . . . وبذلك يحل هذا الإشكال ، غير أنني استنكرت هذه الفكرة . . . واستبعدتها لعدة أسباب لعل أهمها الظلم الذي سيقع على الفتاة مرة أخرى . . . هذا إذا افترضنا جدلاً أننا سنجد الضمير الذي يبيع لي أن أرضي رغبتي على حساب المهنة التي أحترمها ، وهذا الضمير لن أجده إلا إذا وجدت الموت ، وأنا لست مجنوناً حتى أبحث عن الموت .

وفكرت في العمارة التي كانت تقطن فيها الفتاة . وفي بواب هذه العمارة بالذات ولاي لم أعرفه ، ولكني أعرف أن بوابي العمارات جنيناً هم دائماً حملة أسرار السكان . . . فالبواب يعرف عن الزوجة ، أكثر مما يعرف زوجها ويعرف عن الزوج أكثر مما تعرف زوجته . . . وهو ودود بطبعه ومتسامح بحكم مهنته حتى الذين يتركون السكنى في عماراته هو أكثر الناس تنبهاً لأخبارهم . . . فلن كان يفضيهم وسره خروجهم فهو يحلو له أن يعرف ما يسببونه من متاعب لغيره وإن كان يحبهم فهو في أكثر الأحيان لا يقطع صلته بهم حتى ولو بعد وادهم عن واديه . . . وفكرت في مطعم السمك مرة أخرى . . . وبرغم الملع الذي أحدثه لمعدني مجرد هذا التفكير . . .

فقد ذهبت إلى هناك وما كنت لأظن أو أتصور بحال من الأحوال أن مجرد هذا الذهاب العابر إلى هذا المطعم سوف يترتب عليه الكثير من الأحداث الهامة ، ويمثل هذه السرعة التي حدثت بها ، فما إن دلفت قدى إلى هذا المطعم ورأى ذلك الصبي الصغير الذى لا تفارق الابتسامة ثغره حتى جاعنى راكضاً تغمره فرحة لا حد لها وتزدحم الكثير من الألفاظ على شفثيه حتى خلته يمسك بها فى جهد كيلا تتساقط قبل أن يدكرها لى . . ولذلك لم ينتظر حتى يخبني كعادته وينحني تلك الإنحناءة السمحة التي تعودها . . وإنما قال على الفور وكأننا أصدقاء خلصاء يجب كلانا الآخر الحب كله :

— أين أنت يا سعادة البك ؟ .. لقد كنت أنتظر مجيئك كل يوم

بفارغ الصبر .

— خيراً . .

— السنت زينات . .

وما إن نطق هذا الاسم حتى خفق قلبي وأحسست بضرباته تتزايد
وقلت :

— ماذا بها ؟

— لقد عرفت سكنها الجديد . . وعرفت أين هيقيم الآن . .

— عرفت بيتها ؟

— نعم .

— وكيف عرفته ؟

— من يومين فقط . . في اليوم الثاني مباشرة لليوم الذي أعقب
مؤالئك عنها لمحتها وأنا أعمل هنا في المحل واقفة أمام العمارة تتحدث إلى
عم خير البواب . فأسرعت إليها في الحال و . .
وأراد الصبي أن يتم حديثه . . لكنني قاطعته في لحظة :
— هل قلت لها شيئاً ؟

— فازدادت ابتسامة الصبي تركيزاً فوق ثغره وقال في كبرياء :
— عيب . . عسوك . . وإن كان صغيراً في السن لكنه يفهم
كل شيء . . .

— فأحسست بكثير من الحجل يلم بي ويجعلني أكاد أتلثم في الحديث
ولكنني قلت :

— وكيف عرفت عنوانها إذن ؟

— كانت قد تركت بعض متاعها عند عم خير البواب . . وهو عبارة
عن أباجرة صغيرة . . وحقيبة بداخلها بعض الملابس وجاءت لتبحث
عن أحد ليوصل لها هذه الأشياء إلى مسكنها الحديد فتطوعت أنا للقيام
بهذه المهمة .

— وابتلع الصبي أنفاسه سريعاً واستطرد قائلاً في نفس الفرحه التي تجعله
يكاد يرقص أمامي وهو يتحدث :

— وقد تطوعت بهذه المهمة عن طيب خاطر من أجل سعادتك فقط .

— لماذا من أجل ؟

— عفواً . . أقصد من أجل أفضالك الكثيرة التى غمرتنى بها . .

— أشكرك على أى حال . . وأين تقيم ؟

— فى مصر الجديدة . .

فقلت فى دهشة :

— مصر الجديدة ؟

— نعم .

— وذهبت أنت إلى مصر الجديدة ؟

— يا سلام . . ولو كانت فى أسوان لذهبت إليها من أجل

خاطر سعادتك .

فازددت خجلاً وازددت أيضاً تقديراً لرقعة إحساس هذا الإنسان

الصغير وقلت له . . ولكن من قلبى هذه المرة :

— أشكرك كثيراً يا عمر . .

— تفضل .

— ماذا ؟

وأخرج عمر من بين طيات ذلك الشريط الأحمر الذى يلتف حول

صدر الثوب الأبيض الذى يرتديه . . ورقة صغيرة ناولها إلى . . فقرأت

فيها الآتى : ١٢٥ شارع السبق . . الدور الأرضى . . شقة رقم ١ —

مصر الجديدة . . .

كان من الأمور التي يسرت لي مهمتي كثيراً وأعفني من أكثر من حرج كنت أنتظره . . المكان الذي ذهبت إليه في مصر الجديدة وموقع البيت الذي تقطنه الفتاة . . فقد كان المكان هادئاً إلى حد كبير . . والبيت يكاد يكون خالياً من كل جانب وأمام البيت يقع الطريق مباشرة وهو طريق عريض جداً . . يليه مباشرة ميدان السبق القسيح وكان الوقت ليلاً . . والطريق خالياً من المارة تماماً . . اللهم إلا سيارة تغدو أو تجيء يقودها عاشق ولهان أو محب تجلس بجانبه حبيبة مدلهة . . أو بعض العشاق من الفتيان والفتيات ينقلون الأقدام في خطواتهم فتتكسر أعطاف العذارى اللاتي تنأيل خصورهن وهن يسرن متأبطات الأذرع بجانب سور الميدان القسيح . ومثل أولئك أو هؤلاء في استطاعة من كان في مثل حالي أن يطمئن إليهم وإلى أن نظراتهم لا تمتد إلى أكثر من وجه الحبيب ، وأن عيونهم لا تبصر غير بسمه الشجر أو علوية الشفاه ولا تتطلع لغير رقة الخد أو لفئة الحيد وإن زادت فلمي استدارة الجبين أو رجة الشعر . . ومع ذلك تريت كثيراً وتصرفت بمنزلة شديد وحرص بالغ الدقة . . إذ قطعت الطريق أولاً عدة مرات رائحاً غادياً . . ومع أني لم أجد إلا كل ما يطمئن . . ومع

وثوق من أن أحداً في هذه الضاحية النائية لا يعرفني من قريب أو بعيد . . .
 فقد ذهبت إلى شارع آخر يبعد كل البعد عن هذا الشارع الذي أريده
 وأوقفت سيارتي هناك . . . وعدت إلى بيت الفتاة على قدمي . . . ومن حسن
 الحظ أنني لم أصعد غير درجات قليلة العدد جداً حتى وجدتني بعدها
 أمام باب مسكن الفتاة مباشرة . . . وقد سرني هذا ووقفت لحظات استعدت
 فيها أنفاسي قبل أن أدق جرس الباب . . . ولما دقت الجرس . . . لم يفتح
 الباب سريعاً . . . ولم يرد أحد في الداخل على الفور مما جعلني أظن أن
 لأحد في البيت ، ولولا أنني رأيت بعض شعاع من نور تسرب إلى عيني من
 خلف شراعة الباب الزجاجية لانصرفت . . . ثم رأيت النور بعد لحظة
 يضيء الصالة من الداخل وسمعت صوتاً أعرفه جيداً وأعرف نبراتة جيداً
 أيضاً يقول من وراء الباب :

— من ؟

— أنا .

— أنت من ؟

فأسقط في يدي وارتبكت ارتباكاً شديداً . . . إذ ماذا أقول لها . . .
 وهل تعرف من أنا إذا قلت لها اسمي . . . وازدادت ارتباكاً وأنا أجيب :
 — أنا فكري . . .

فازدادت دهشة وهي تسأل من خلف الباب أيضاً :

— من فكري ؟

— أرجو أن يفتح الباب . . وستعرفين من أنا . .

ورأيت خيال يدها من خلف الأسطوانة الزجاجية التي تتوسط شراعة الباب تمتد وحركت في بطء مزلاج الشراعة من الداخل . . وسمعت لذلك المزلاج الصغير صوتاً بغيضاً خشناً مما يدل على أنه لم يستعمل منذ وقت بعيد . . وما إن انفرجت شراعة الباب عن نصف وجهها ورأيتى حتى شحب وجهها فجأة وحفظت عينها في خوف شديد وقالت متلعثمة وأنفاسها تندهور في سرعة غريبة ويدها ما زالت ممسكة بمزلاج الشراعة وكأنها ماتت عليه . . ويدها الأخرى تترنح أصابعها فوق الصدر وهي تبحث في اضطراب عن فتحة التمييز عند الصدر وتلم أطرافها فوق الثديين وتخفيهما مع الصدر في طيات الثوب :

— أرجوك . . إن كان معك أحد من الجنود . . فليبتظروا حتى أرتدى ثيابي على الأقل .

فاندھشت دهشة بالغة . . وقلت :

— معي جنود . . ولماذا ؟

— ألم تجئي لتقبض عليّ ثانية ؟

فانخفض صوتي في كثير من الدهشة . . وأنا أقول بألم بالغ :

— أنا أقبض عليك ؟

ثم استطردت على الفور . . ولكن بصوت عال :

— أنا بحثت فقط لأسأل عنك وأطمئن عليك . .

فارتاحت عيناها على الفور وهذأت أنفاسها وقالت مبتسمة وهى تفتح لى الباب :

— أهلا وسهلا . . تفضل . .

ولما دخلت . . لم أرها . . حتى لئن ظننت أنها إنما انصرفت إلى الداخل . . ولكنى لما استدرت لأغلق الباب رأيتها مختفية خلفه تلم — وهى تكاد ترتعش من الحجل — أطراف تلك الغلالة الرقيقة فوق ما تعرى من جسدها . . فأغلقت عيني على الفور . . حتى لا تتسرب نظرة أخرى على الرغم منى — كما حدث — وترى غير الوركين وثنية الساق التى تشع نوراً من خلف نسج الغلالة الرقيقة السوداء وابتعدت خطوات . . كان ظهري أثناءها لها . . ولما انصرفت هى إلى إحدى الغرف وتأكدت من أننى وحدى فى البهو . . فتحت عيني . . فلم أجد غير كنبه واحدة مستطيلة وضعت فى صدر البهو وكانت هى كل شيء تقريباً فيه . . فجلست . . ومن ثم رحت أتلفت حولى وأنطلع إلى متاع البيت البسيط المتواضع الذى ينم عن ذوق من غير شك . . ولكنه فى الوقت نفسه يعبر عن فقر مدقع ويعبر عنه فى صورة واضحة من صوره البغيضة التى تتمثل فى كل شيء . . وشاهدتها فى كل شيء : فى الكنبه التى أجلس فوقها وقد تأكل غطاؤها وبرزت تنف القطن السوداء المغبرة على جوانبها أشبه ما تكون بأمعاء جثة متعفنة .

فى المصباح الكهربائى الصغير المعلق فى وسط البهو يرسل ضوءه

- الشاحب في صمت . . وقد تركت عليه آثار الذباب بقعاً سوداء أشبه ما تكون بآثار الجدرى في الوجه السمح . . كما شاهدت هذه الصورة البغيضة للفقر بشكل أوضح في الطاولة الصغيرة التي كانت بجانب الكنبة . والتي رأيت فوقها بقايا طعام متواضع جداً . نصف رغيف جاف يعيث صرصار في قلبه وطبق صغير به بعض حبات سوداء صغيرة الحجم من الزيتون . . وبجانب الطبق ورقة صغيرة ملفوفة على بقايا من قطع الجبن الروى التي سال زيتها حتى تلوثت به الورقة بحيث أغرى بها صرصاراً آخر راح يلف ويلدور حولها .

رأيت هذا كله وشعرت بشيء من الألم كما لو كنت أنا الذي يعيش في هذا الشقاء . . غير أنني بجانب هذا الألم أحسست بشيء من الاغتراب أيضاً . . لأنني تذكرت هواجسى السوداء التي عشت فيها بعد أن رأيت ذلك الشاب الأنيق في شرفة البيت الذي كانت تقطنه الفتاة سابقاً وكنت أظنه يقيم معها . . والأحزان التي عشت فيها عندما ظننت هذا الظن الأسود . . والتبعة الحسيمة التي ألقيتها على نفسي لأنني تكاسلت في البحث عن الفتاة وتركتها حتى أرغمها الفقر على أن تتردى في الهاوية، ولعل هذا بالذات هو الذي، جعلنى الآن أشعر بهذا الاغتراب الزائد . . لأننى استطعت أن أعثر عليها في الوقت المناسب . . وأن أمد لها يدى في اللحظة الحرجة . . وبدأت - وأنا جالس في مكانى - أفكر في هذه اليد التي سأمدها لها . .

لكن قطع على تفكيرى أن الفتاة كانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأقبلت تقطع البهو في روب غامق اللون سميك النسج من الصوف الحشن أغرقت جسمها كله فيه . . وحجبته خلفه كما تحجب السحاب السوداء وجه القمر وتغطيه وتحجب نوره عن العين . . وكأنها أدركت بفطنها كل ما كنت أفكر فيه قبل مجيئها لأنها قالت وهى تجلس قبالى فوق مقعد صغير كانت قد أتت به معها من الغرفة التى كانت تستبدل فيها ملابسها :

— معلومة . . فأنا ما زلت حديثة العهد بالسكنى هنا . . ولذلك فالبيت لا يزال كما ترى .

— لأنه سكن جميل على أى حال .

وحانت منها نظرة عابرة . . فرأت الطاولة التى كانت يجانبنى . . والصرصار الذى فوقها يروح ويحيى حول ورقة الحبن . . كما يروح ويحيى العابد حول المهراب . . فهضبت سريماً ونحت الطاولة بعيداً ثم عادت إلى مقعدها وقالت فى شيء من الحجل وهى تحاول أن تبعد أشياء معينة بالذات حتى لا نتحدث عنها :

— أصنع لك فنجاناً من القهوة ؟

— أشكرك .

فهضبت ثانية وقدمت لى سيجارة . . فتقبلتها منها وقلت وأنا أتناولها وأشعل لها سيجارتها :

— أما زلت تلهنين كثيراً ؟

— كثيراً جداً . . .

— ولكن هذا يضر بصحتك .

— ومنذ أيام أصبحت بنزلة شعبية حادة . . ألزمتنى الفراش طويلاً . .

فأحسست على الفور بما يشبه وخز الإبرة فى قلبى لمجرد علمى أنها

كانت مريضة . . وقلت :

— لقد سألت عنك . . فى المرقص الذى كنت تعملين به . .

— وماذا قالوا لك ؟

— إنك تركت العمل هناك . .

— شكراً لهم على أى حال .

ثم استطلدت وهى تبسم فى مرارة :

— الحقيقة أنهم طردونى .

فتجاهلت كل شئ . . وقلت :

— طردوك ؟

— نعم . .




— لماذا ؟

فازدادت الابتسامة الشاحبة التى كانت لا تزال مرسمة على شفتيها

مرارة وقالت :

— لأننى مجرمة وقاتلة وخريجة سجون . .

- فأحسست بأن هذه الطعنات كأنها موجهة لى شخصياً . . فقلت :
- كيف يقولون هذا ؟
- أليست حقيقة ؟
- الحقيقة أنه ثبت براءتك بدليل الإفراج عنك . .
- فأنخفض صوتها وهى تقول :
- الناس لما الظاهر . . وليس هناك جناح على ما يقولون .
- وأردت أن أغير هذا الحديث الذى أدركت أنه يؤلفها كثيراً . . فقلت :
- وماذا فعلت بعد أن تركت العمل ؟
- قعدت فى البيت طبعاً .
- ومن أين كنت تنفقين ؟
- الله يعلم .
- ثم اختنق صوتها وهى تستطرد :
- ما زال فى الدنيا بعض الخير . . وقد بعث الله لى بذلك الرجل الطيب . .
- وأردت أن تنطق اسمه . . ولكن الدموع غلبتها . . فركبتها لحالها . .
- ولما هدأت قالت من تلقاء نفسها وهى ما زالت تبكى :
- لقد بعث الله بهذا الرجل . . عم خير . . فكان لى أكثر من أب .
- وكننت قد نسيت هذا الاسم برغم أنى سمعته مرة . . ولكن أين . .
- لا أدرى . . ولذلك سألت :

- من عم خير ؟
- بواب العمارة التي كنت أقطن بها . .
- فأغمضت عيني كما لو كنت لا أريد أن أرى سكيناً تغوص في صدري . . وقلت وأنا مغمض العينين :
- لقد أعطيتك رقم تليفوني . . فلماذا لم تتصل بي ؟
- ولما خففت وجهها إلى الأرض . . وأغلقت عينيها الواسعتين على الدموع الكثيرة التي فيها ولم تجب . . قلت :
- هل ضاع منك الرقم ؟
- إنه الشيء الوحيد الذي أحمله في صدري دائماً .
- وبرغم سوء الحال الذي أنا فيه . . والسكين التي تغوص في صدري وأستشعر آلامها الزائدة . . قلت كطفل داهمته فرحة زائدة :
- أشكر لك هذا الشعور . . وسوف أحفظ لك ما حييت هذا الجميل . .
- أي جميل ؟
- أنك تحتفظين برقم تليفوني . .
- لأنني في الحقيقة إنما أحتفظ بجميلك الذي أسديته لي . .
- إنك أخيراً  أخيراً  فأنخفض  كدت لا أسمعها وهي تقول وكأنها تخاطب نفسها :

— أخت ؟ هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة من إنسان .
ومرت بعد ذلك فترة صمت كانت من أئمن الفترات التي مرت بي
في حياتي .. ولذلك وددت أن تطول .. لولا أن لساني تعجل سؤالها ..
فقطعت هذا الصمت الجميل الذي لا يتوفر كثيراً في حياة كل إنسان ..
وقلت :

— إذن .. لماذا لم تتصلي بي ؟

— خشيت أن أثقل عليك ..

— تثقلين عليّ أنا ؟

قلتها في دهشة أثارت انتباهها لأنها رفعت عينها إليّ .. ولكنها عادت
فخفضتهما ثانية وقالت وكأنها تصر على شيء :

— نعم خشيت ذلك ..

— ما هو بالذات الشيء الذي خشيته ؟

— أشياء كثيرة ..

— مثل ؟

ولما لم تجب .. وتذرعتم بالصمت .. ظننتها تقصد الحرج من المال
ومد يد المساعدة إليها .. ولذلك قلت :

— وكيف تثقلين عليّ في أي طلب تطليبه .. إنك بالنسبة لي شيء

هام .. شيء كبير .. وأظنك قد أدركت هذا ..

فقالت وهي لا تزال تلقى بنظراتها إلى الأرض :

— ولأنني أدركت هذا . . خشيت أن أتصل بك . .

— خشيت ماذا ؟

قلتها في حدة . . وكأنني أنهرُها على عمل مشين ارتكبته . . فقالت

وهي تنظر إلى هذه المرة :

— لم يكن ما ظننت أنت هو الذي خشيته أنا . . فأنت أكرم أخلاقاً
من أن يظن فيك هذا الظن . . وقد وضع كرم هذه الأخلاق عملياً
عند تطوعك بالاتفاق على وأنا في السجن . . ووضح أكثر من ذلك عندما
تكرمت وأعطيتني رقم تليفونك . . ومن غير شك أعطيتني لهذا السبب . .
وليس لسواه . . أنا أعرف ذلك جيداً . . ولكن الذي خشيته حقيقة . .
وما زلت أخشاه . . وسأظل أخشاه . . هو أنني أخاف عليك .

— تخافون على أنا ؟

— نعم . .

— مم ؟

فانخفض صوتها كثيراً جداً وهي تقول :

— أرجو أن لا تنسى أنني راقصة . .

— وماذا في ذلك من خوف ؟

— كلام الناس .

— وهل هم يعرفون عنك مثل الذي عرفته أنا ؟

— الناس دائماً لها الظاهر . .

- وما شأننا بهم ؟
- أنسيت أنهم يكونون المجتمع الذى نعيش فيه . . وأنت واحد من هذا المجتمع . . وأنا واحدة فيه . . وأنت شريف ينظرون إليك بعين الاعتبار والتقدير . . وأنا راقصة ينظرون إلى بعين السخرية والتحقير ؟ . .
- وهل أنت كذلك ؟
- فصمتت حيناً . . ثم قالت ؟
- ألسنت راقصة ؟
- فنطقت فى دهشة بالغة . . وبصوت مرتفع وكأننى أصرخ :
- ماذا تقولين ؟
- هل تريدنى أن أكذب عليك ؟
- أنت محتقرة وموضع سخرية من الناس ؟
- نعم أنا كذلك ؟ . .
- كيف تقولين هذا ؟
- قلت لك إننى راقصة ؟
- الرقص مهنة . .
- والبقاء أيضاً مهنة . .
- قالت ذلك وهى تزم شفيتها فى مرارة . . فقلت :
- كيف تقولين هذا القول ؟
- لا أدرى لماذا . . إذا كذبت على الناس جميعاً . . فأنا لا أستطيع

أن أكذب عليك . .

— وأنا كذلك . .

— إذن . . لماذا تغالط نفسك ؟

— أنا لا أغالط نفسي أبداً . . وإنما أتكلم عنك أنت . . وأتكلم

عني في صدق . .

فاعتدلت في جلستها وتحدثت في روية وهدوء حديث الواصل تماماً :

— أنا لا أتحدث الآن عنى « أنا » وإنما أحدثك عن نفسي . .

أحدثك عن مهنتي كراقصة . .

— الرقص فن . . وفن معترف به . .

— اعترفنا به فقط . . ونبيحه . . تماماً كما اعترفنا بالبغاء . . وقلنا

عنه إنه يدفع عن المشتغلين به غائلة الفقر .

فأحسست بغيط شديد لهذه التهمة الظالمة التي تريد أن تلصقها

بنفسها . . وقلت محتداً :

— كيف تقولين هذا . . وتقرنين السيء بالحسن . . دون مبالاة

بهذا الفرق الكبير بين الاثنين ؟

فقالت في نفس الهدوء الذي تتحدث إلى به :

— هذا الفرق الذي تتحدث عنه — في نظرك فقط — وفي نظر القانون

أيضا . . ولكن لا يعود له أبداً في نظر التي تحترفه . . أقصد في نظر

الأخلاق . . إذا ما أردنا أن نتحدث عنها كأخلاق . . وإلا فقل لي

أنت . . ما الفرق بين التي تعرى جسمها في الظلام لقاء بضعة قروش . .
والتي تعريه علانية تحت الأضواء نظير بضعة قروش أيضاً ؟ . .
وكانها لم تنتظر مني الجواب . . لأنها قالت مستطردة :
— قد تقول إن الفرق في الامتلاك ، وأقول أنا لك حتى هذا الفرق
أدنى إلى الاستهانة منه في النور إلى القذارة والاستهانة به في الظلام . .
ومع أنني لم أفهم هذا المعنى الأخير من قولها . . ومع أنني هممت
فعلاً أن أسألها تفسيراً . . إلا أنها قالت وهي تشير إلى بأصبعها ونبرات
صوتها تكاد تشتعل غلاً وغيظاً وربما خسيفة أيضاً :
— وأعتقد أنك أنت بالذات . . وأنت من خيرة المثقفين اول من
يؤمن بهذا . .

— أومن بماذا ؟

— بأن لا فرق عندك . . بين البغى والراقصة . .
فقلت مستنكراً في شدة :

— هذه تهمة ظالمة . . تلصقنيها بي . .

فكانت في هدوء وهي تنظر إلى الأرض هذه المرة :

— إذن لماذا طلبت توقيع الكشف الطبي علىّ للتأكد من صحة أقوالى

وتعرف أعداء أنا . . أم غير أعداء ؟ . .

وفجأة دارت بي الأرض وأدركت هي ذلك لأنها ابتعلت أنفاسها
سريماً وقالت :

— معبرة .. إذا قلت هذا الآن .. ولم أقله لك في حينه .. وصدقني
أنتى سررت كثيراً لأنك فعلت ما فعلت برغم ما في هذا من استهانة بحرمة
فتاة .. لأنك لو لم تفعل لرميتك بالغباء .. وشبهتلك بالأبله الذى يصدق
أضحى الأكاذيب ..

— أرجوك ... إننى أتألم ..

ولما رأتنى أتألم حقيقة .. قالت وهى تشعل لى لفافة من علبها وتشعل
لها أخرى :

— أظنك الآن أدركت لماذا لم أتصل بك تليفونياً بالرغم من أننى احتفظ
برقم تليفونك لى الآن . وبالرغم من أنه كما قلت لك أعز شىء احتفظت
به فى حياتى ..

— إننى أشكرك .. ولكن الذى أريد أن أعرفه .. طالما أن نظرتك
لمهنتك هى هذه النظرة ، فلماذا تشغلين بها ؟

وكننت أرى من وراء هذا السؤال لى شىء .. فقالت :

— لأننى لا أريد أن أثقل على أحد .. كما أثقلت مثلاً على عم خير
بواب العمارة التى كنت أقطنها سابقاً .. بعد أن طردونى من عملى ..

— يخيل لى أنه رجل طيب فعلاً ..

— وددت لو عشت حياتى بجانب هذا الرجل الطيب العجوز ..

— ولماذا تركت السكنى فى عمارته ؟

— كان الإيجار غالباً وقد ظل هذا الرجل يمعننى لى أن أعجزته

- الظروف عن هذه المساعدة ففضلت هذا السكن لعدة أسباب . .
- أليست مصر الجديدة بعيدة وتكاليف مواصلاتها كثيرة ؟
- لم أعود أن أخرج من بيتي أبداً . . لا في الليل ولا في النهار . .
- إلا في أوقات عمل فقط . . وهذا السكن قريب من عملي الجديد الذي سألتحق به بعد يومين .
- أى عمل ؟
- فقالت وهي تبسم ابتسامة شاحبة ؟
- راقصة طبعاً .
- فى أى ملهى ؟
- عم خير له شقيقة تعمل خادمة فى منزل مدير ملهى حلمية بالاس . . وقد توسطت لى فى العمل هناك برغم تفاهة الأجر . .
- كم مستقاضين هناك ؟
- خمسة عشر جنياً . .
- فقط ؟
- فقط .
- ولماذا قبلت هذا الأجر التافه ؟
- تعبت من التعطل . .
- فصمت حتى أحالج بعض آلامى . . وقلت وأنا أنظر إليها وأريد أن أبكى :

— منذ متى وأنت بلا عمل ؟

— منذ اليوم الذى خرجت فيه من السجن .

— كل هذه المدة ؟

— نعم . .

— ومن أين كنت تعيشين ؟

فقال ضاحكة وهى تنهض لتصنع لى فنجاناً من القهوة بعد هذا الحديث الطويل :

— كان عم خير يردد دائماً مثلاً طريفاً جداً . . وكنت أردده دائماً معه « الحر بيت على الطوى . . ويصبح بالاطمئنان شعبان » . .
— أنت ملاك أينها الفتاة . .

قلتها لنفسى بعد أن انصرفت لتصنع لى القهوة . . غير أنها لم تكده تنصرف حتى عادت ثانية وطلبت منى حلبة النقاب لتشعل الوابور . . فطلبت منها فى إخلاص وصدق ورجاء أيضاً أن تأذن لى فى مساعدتها فى صنع القهوة . . وذهبت معها إلى المطبخ . . ورأيتها وهى تشعل الوابور فى ابتهاج شديد . . ورأيت ناره وهى تنعكس على وجهها وتغير قسماته التى تغيرت فجأة . . من حزن إلى فرحة غامرة زادته بهاء . . وأضفت على سماته لإشراقه من نور إلى يسر العين أن تتطلع إليه . . فلم أملك نفسى من الفرحة وقلت لها :

— أراك الآن سعيدة . . فلماذا ؟

— لأننى أصنع لك بيدى فنجاناً من القهوة . .

— زينات . .

نطقت هذا الاسم دون وعى ، ثم تداركت نفسى سريعاً ، حتى لا أنهار وتنهار قواى أمام هذا الجمال الإلهى . . أمام هذه النفس الصافية التى تشبه تماماً هذه الإشعاعات من النور التى تنبثق من قسبات وجهها . . والتى تتدفق نوراً باهراً يشع من عينيها الواسعتين الجميلتين ، فلا قلبى نوراً ، وصفاء ، وبهجة . . خشيت وأنا أنظر إلى هذا كله أن أخرج راكمأ عند قدميها . . أن أسجد للأرض التى تقف عليها . . ولذلك أمسكت عن القول . . وزمت شفتى . . فلم أنطق بعد (زينات) بحرف . . وكأنها أدركت شيئاً . . أدركت على الأقل أننى كنت أريد أن أقول شيئاً ثم أمسكت عن القول . . فقالت وهى تبسم وتنظر لى نظرة حنان لم أعودها من أحد :

— كنت تريد أن تقول شيئاً ؟ . . .

— وإذا قلت . . فهل تصدقينى ؟

— ثق أننى لو لم أصدق كل كلمة . . تصبر منك . . لما سمحت

لقدمك أن تخطو خطوة واحدة فى بيتى . .

— إذن أنت تتعين فى . .

— كما أتق فى نفسى تماماً . .

— ولأننى بالنسبة إليك شيء هام . . كما أنك بالنسبة إلى شيء

هام جلدًا . . . وكبير جلدًا . . .

فارتعشت يدها . . . وهى تحمل صينية القهوة . . . وتخرج من المطبخ . . .

وقالت ويدها ما زالت ترتعش :

— أنا لا أدري أقلت لك أم لا . . . لأننى منذ أن رأيتك ورغم الظروف القاسية التى رأيتك فيها ورغم الظروف الأشد قسوة التى تكشف عنها التحقيق . . . والتى عرفت منها من أنا . . . وكيف ولدت . . . ومن هى أمى . . . وكيف ماتت . . . والهزة العنيفة التى هزت كيانى . . . وكادت تودى بى . . . ورغم كل هذا . . . أحسست بوجودى فى الدنيا لوجودك أنت فيها . . . فإن كنت قد قلت لك هذا فأرجو أن تصدقه . . . وإن كنت لم أقله . . . فلأن إحساسى يستشعر أنك تعرفه تمامًا . . . ولست فى حاجة إلى أن تعرفه منى . . .

• • •

وكنّا قد وصلنا ومعنا صينية القهوة إلى البهو . . . والكنبة التى كنت أجلس إليها . . . فلم أجعلها تجلس على المقعد الذى كان أمانى . . . وإنما أجلسها بجانبى . . . ومن ثم رحت . . . وفى طفولة بريئة . . . وفى قلب لا ينبض إلا صدقًا . . . وفى أحاسيس ومشاعر لا تنطق عن الهوى . . . رحت أقص عليها كل شىء وأحدثها عن كل شىء . . . وأروى لها فى إنخلاص الكثير من الرغبات . . . وأحسست وأنا أتحدث فى انطلاق السيل . . . والكلمات تزدحم على شفتى وتندفع كاللوج . . . أحسست كقراض . . . أن الخطب والعبارات الزنانة والأحاديث والحمل الطنائة . . . كل ذلك لا قيمة له . . .



ولا نتيجة فيه . . طالما أنه لم يقم على دليل . . لذلك رحت أقيم الدليل تلو الدليل . . وأذكر لها كل دقائق الماضي . . وما حدث فيه . . منذ اللحظة التي ودعتها عيني فيها آخر مرة . . قصصت عليها الجهد الكبير الذي بذلته عندما ذهبت لأول مرة في حياتي إلى « الصلاة » وما قمت به من حيل في سبيل أن أعرف شيئاً عنها واللبلة التي قضيتها مع آلام الدنيا التي تجمعت في مرقدي وأنا أهتف بالغمض لعلني أجده فيه درعاً تقيني من الألم بعد أن عرفت بأنها طردت من عملها . . وبسبب هذه القضية بالذات . . ثم محاولاتي بعد ذلك التي بذلتها في سبيل رؤيتها والاتصال بها . . وما جرى لي في مطعم السملك والتزلزلات المعوية التي أصابت بها . . وتلك الابتسامة التي كانت لا تفارق ثغر ذلك الصبي الصغير . . والتي كانت تخفف عني كثيراً . . والتي كنت أعقد عليها الكثير من الآمال . . ثم تلك الليلة أو الليالي التي قضيتها . . ولا يعلم غير الله كيف قضيتها . . بعد أن وقعت عيني على ذلك الشاب الوسيم الأنيق الذي رأيته في شرفة البيت وكنت أظن أنها لا تزال تقطن فيه . . وذلك الحسيب العسير الذي حاسبته لنفسى والتبعات الجسيمة التي ألقىتها عليها والتقصير الذي اتهمتها به والعذاب الذي عشت فيه طوال تلك الأيام والليالي والذي كنت سأعيش فيه ما حييت لولا أنني اهتديت إلى الحقيقة في آخر لحظة . . واهتديت إليها على يد ذلك الصبي الصغير الذي أدين له بالفضل . . كل الفضل ما حييت . .

قصصت عليها كل هذا . . . وهي صامئة لم تنبس . . . حتى إذا أنهيت حديثي هذا الطويل المدعم بالأدلة والأسانيد . . . فتحت عينها الكبيرتين . . . وشالت بهديها الطويلين إلى أعلى . . . ونظرت إلى . . . وقالت هذه الكلمة التي ما زال رنينها العذب . . . ونبراتها الحنون . . . منطبعة في القلب :

— فعلت هذا كله من أجل ١٩

— إنك أكثر من أخت . . .

— قل هذه الكلمة مرة أخرى . . .

ولما قلها سريعاً مرة أخرى . . . استلقت على صدرى فجأة . . . كطفلة تلوذ بصدر حنون . . . وألقت برأسها الصغير الجميل على كتفى ومن ثم راحت تبكى . . . وتجهش في البكاء . . . ومع أننى لا أذكر أننى بكيت في حياتى أبداً . . . إلا أننى كنت في أكثر الأحيان أستشعر رغبة زائلة في البكاء . . . وأحس أننى إن بكيت . . . فسوف تخفف عني الدموع الكثير من الآلام . . . بل سوف تقل أحزاني جميعاً . . . لذلك لم أشأ أن أسكتها . . . وإنما تركتها تبكى . . . وتتلف الكثير من الدموع دون أن أقول لها شيئاً أو حتى أنبس . . . إلى أن هدأت . . . فجففت لها دموعها بيدي . . . ولم أفعل ذلك فقط . . . وإنما أدخلتها الحمام وغسلت لها وجهها بيدي . . . ولما أعدتها إلى مكانها . . . وأجلستها على الكنبة . . . كنت قد لاحظت وأنا أمر على باب غرفة نومها . . . أن زجاجة صغيرة من الكولونيا موضوعة على الكومودينو بجانب السرير . . . فذهبت أحضرها لها . . . وكانت أول مرة

أدخل فيها مخدعها . . وبرغم الأشياء الكثيرة التي كانت تلفت النظر في هذا المخدع المتواضع جداً . . والتي تم في مجموعها عن فقر وفاقة . . إلا أنني استشعرت هدوءاً وطمأنينة ورائحة زكية أشبه ما تكون برائحة الطهر تماماً ، تملأ نفسي أمناً . . كذلك الذي نستشعره ونحن . . نخفض الجباه . . في مكان له قدسيته . . كما لفت نظري شيء وقفت عنده عيني حيناً . . ورحت وأنا في مكانى أنامله في شيء من الرهبة وأنظر إليه وهو تحت الوسادة وأتذكر ما قالته في التحقيق المتهمة الثانية نظيرة أحمد البسيوفى من أن الفتاة تحرص دائماً على أن تضع مصحفاً كريماً تحت وسادتها لتستأنس به في وحشتها . . ويكون لها هدياً في هذه الظلمة التي تعيش فيها . . وطالت وقفتى أمام لقاء المخدع الطاهر بالمصحف الشريف وأخيراً انتهت إلى زجاجة الكولونيا التي كانت أمامى على الكومودينو فتناولتها وانصرفت . . ولكن بعد أن فعلت شيئاً . . إذ دسست يدي تحت الوسادة ووضعت بجانب المصحف مباشرة كل ما كان فيها . . ولا أدري إلى اليوم ما هو الذي كان فيها على وجه التحديد . . وهل كان الذى فيها ورقة واحدة . . وهل كانت هذه الورقة من فئة الخمسة جنيهات . . أو فئة العشرة أو هى تزيد على ذلك . . وتصل قيمتها إلى شيء كبير . . وهل كانت ورقة واحدة أو أكثر . كل هذا إلى اليوم لا أدري عنه شيئاً . . وكل الذى أذكره تماماً أن كل شيء فى كان يرتعش . . وأنا أفعل خشية أن ترائى . . ولا تأكدت أنني فعلت ما فعلت وأنا فى مأمن من أى عين

خرجت من الغرفة مبتهجاً جداً . . . ومن ثم جلست بجانبها . . . وكانت فعلاً قد هدأت كثيراً . . . دون حاجة إلى ماء الكولونيا . . . وقد أطربني ذلك . . . وما قمت به في الخفاء من واجب . . . لدرجة أنني ضحكت . . . وظللت بها حتى ضحكت . . . وعادت إلى وجهها لإشراقته وإشعاعات النور التي تنبثق من قسماته . . . وظللنا كذلك إلى وقت بعيد من الليل . . . إلى أن أحسست أنني جائع . . . أو بمعنى أصح أنا الذي تعتمد هذا الإحساس . . . وكاد يزعجها أنه لا يوجد في البيت ما يؤكل في هذا الوقت . . . وفكرت في أن تستدعي البواب ليأتي لنا بطعام من الخارج . . . ولكني طلبت منها أن أقوم أنا بهذه المهمة . . . وأشهد بأنها لم تقبل إلا بعد جهد . . . وما زلت أذكر برغم مضى هذا الزمن الفرحة التي أحس أنني أعيشها الآن وأنا أكتبها . . . والتي كانت تغمرني وتفيض على وأنا أقف وسط أول حانوت بقالة التفتت به في هذا الوقت المتأخر من الليل في تلك الضاحية النائية وأطلب ما أريد . . . وكلما طلبت شيئاً غمرتنى فرحة جديدة وكلما رأيت حقيبة الورق التي أمامي تمتلئ ، امتلأت فرحتي وطلبت مزيداً حتى وددت أن أنقل كل ما في ذلك الحانوت الكبير إلى بيتها مرة واحدة ، وشعرت بهذه الفرحة تتزايد وأنا أسير في الليل على قدمي حاملاً بين ذراعي هذه الحاجيات وكأنني أحمل سعادة الدنيا جميعاً . . . ولا دخلت عليها محملاً بكل هذه المؤن وكل هذه المواد الغذائية المحفوظة وغير المحفوظة التي تفيض عن حاجة أسرة كاملة لشهر أو يزيد . . . ففرت فاهاً في دهشة

زائدة ، ورمتهى بالحنون ، واهتمنى بالتبذير وبأننى لا أصلح لكى
أكون رب أسرة أبداً ، وبأنه لو قدر لى أن أتزوج . . كان أول قرار
يجب أن تتخذه زوجتى صباح الزواج مباشرة هو الحجر على . . ولا أدرى
لماذا أحسست فى قرارة نفسى بارتياح لهذا القول للدرجة أننا كررناه ثانية
ونحن على المائدة نتناول طعامنا ونضحك ونتحدث فى كل شىء . .
ونضحك كثيراً . . ولم نمسك عن الضحك إلا عندما تناول حديثنا موضوع
القضية مرة أخرى وتحدثنا فيها طويلاً هذه المرة . . ورحنا نستعرض ظروفها
القاسية مرة ثانية . . وكيف أن دم القتيلة ذهب هدراً بعد أن أغلقت
جميع الأبواب والنوافذ بعد مقتل دسوقى الذى كان الوحيد الذى يمسك
بالخيوط كلها فى يده ، ولم أشأ أن أقص عليها ثانية تكييفى المنطقى للجريمة
وأقول لها إن الذى قتل أمك هو دسوقى بعد أن تأكد أنها أصبحت عشيقة
لغيره . . لم أشأ أن أقول لها ذلك حتى لا أزيدها ألماً ولا سباً بعد أن عرفت
منها أنها منذ أن انتهى التحقيق وعرفت ما عرفت وخرجت من السجن ،
وهى حريصة على أن تذهب فى صباح كل يوم جمعة إلى قبر المحبى عليها
وتقرأ عليها الفاتحة وترحم عليها مبتلة إلى الله أن يغفر لها ذنوبها وأن يجعل
الجنة مثواها . .

لهذا لم يركز حديثنا على المحبى عليها ، ولا على دسوقى أيضاً ، بقدر
ما ركزناه على هذا الرجل الذى شاهدته يخرج من مخدع القتيلة قبل الحادث
بعشرين يوماً كما قالت فى التحقيق . . هذا الرجل الذى ما زالت شخصيته

مجهولة ، وأغلب الظن أنها ستظل إلى الأبد مجهولة لأنها هي نفسها لم تتأكد من رؤيته كل التأكد . . مع أنه لو اكتشفت شخصيته لتغير وجه القضية على الفور وأمكن معرفة كل الحقائق التي لا يعرفها سوى هذا الرجل المجهول .

كان هذا تقريباً هو محور حديثنا في تلك الليلة التي سعدت بها سعادة لا تقدر لدرجة أنني لما انصرفت من بيتها على أن نلتقي في الليلة التالية ، كانت غاية الأمانى عندى أن أغمض عيني وأفتحها على هذه الليلة الثانية التي سأراها فيها ، وأنس إليها كما رأيتها وأنست إليها في هذه الليلة . غير أن الأمانى جميعاً حتى التي نشقى منها ليس من السهل تحقيقها ، وإن هي تحققت فدون ذلك العذاب ، والدليل أنني بعد أن خرجت من عند زينبات في تلك الليلة لم يتغير شيء ، فقد ظل الليل يسير في بطاء كماداته من ملايين السنين ، والقمر في السماء يسير إلى مستقر له كماداته أيضاً لم يتغير فيه شيء ، وحتى الشمس عند ما جاء الصباح طلعت كماداتها من الأفق ، وظلت تسير في بطاء وتكاسل ممل طوال اليوم كله ، لم يتغير حتى لون إشعاعها ، وكذلك عقارب الساعة لم يتغير شيء فيها هي الأخرى ، منذ أن وجدت من مئات السنين ، بل أغلب الظن أنها قد تغير فيها شيء لم أفطن إليه إلا هذا اليوم ، فقد بدأت تواصل سيرها في ملل وضيق وجبن . . وفي خوف كذلك . . فقد كانت دقائقها مضطربة أشبه ما تكون تماماً بضربات قلب الخائف الرجل .

مرت الساعات التي كانت باقية على لقائنا الثاني وكلها ملل وضيق ..
ولما جاء الموعد سبقتني الفرحة إلى هناك .. وقد بلغ من فرط إحساسي
بذلك أنني شعرت وأنا في الطريق إليها بشيء من الغيرة حيال هذه الفرحة
التي سبقتني إلى هناك . إذ كيف يسبقني إليها شيء ، حتى لو كان
هذا الشيء هو فرحتي باللقاء .

ولما ذهبت إليها في الموعد المتفق عليه ، وكانت الساعة الثامنة والنصف ،
أطربني أنني وجدت عندي من الشجاعة والجرأة ما جعلني أوقف
سيارتي أمام منزلها مباشرة ، ولم أبحث عن مكان خفي أوقفها فيه ، كما
حدث مثلاً في الليلة الماضية ، وكذلك وجدت عندي من الجرأة والشجاعة
ما جعلني أهبط من السيارة علانية وأدخل البيت وأصعد ذلك السلم الموصل
إلى باب مسكنها دون حرج أو خوف من أن يراني أحد . . . غير أنني
عندما طرقت الباب فوجئت بشيء غريب لم أصدق في أول الأمر . .
ولكني تأكدت منه أخيراً . . وهو أنها ليست في البيت تنتظرنى كما كنت
أتوقع . . . وإنما وجدت البيت مظلماً . . بل مغرقاً في الظلمة والصمت ..
فاندعشت . إذ أنها لم تتعود الخروج من البيت كما قالت لى . . ولم يحن

بعد موعد ذهابها إلى الملهى الذى ستعمل فيه ابتداء من الليلة . . فقد أخبرتنى أنها لن تذهب إلى هناك الا عند الحادية عشرة ، وهو الموعد الذى ستقوم فيه برقصها كل ليلة . . وقلت إنه لا بد أن يكون قد طرأ طارئ استدعى خروجها الآن ، وتمنيت مخلصاً أن يكون خيراً ورحت أنتظر . . وانتظرت طويلاً جداً حتى تعبت قدمائى من كثرة الذهاب والإياب أمام المنزل فى انتظار هودتها كما تعبت أيضاً من طول جلستى فى داخل السيارة أنظر إلى كل غاد ورائع . . ومكثت كذلك حتى اقتربت الساعة من الحادية عشرة وقطعت الأمل من مجيئها . . وكان لابد لى أن أراها على أى وضع لكى أطمئن عليها ، ولذلك لم أجد بداً من الذهاب إلى الملهى . . وكانت هذه أول مرة أذهب إلى هذا الملهى الليلى ، وابتعت تذكرة ووقفت فى وسط هذا المكان الجميل الهادئ أنظلع إلى مائدة بعيدة عن الرواد ، أجلس إليها . . إذ شعرت بخرج إذا أنا جلست بينهم . . فقد لاحظت أن كل رجل يجلس معه سيدة قد تكون زوجته وقد تكون غير ذلك ، ولكنها سيدة على أى حال . . ولم أرواحداً يجلس بمفرده حتى الذين جاءوا دون أن يصطحبوا نساء معهم . . إنما فعلوا ذلك لغرض ، وهو صلتهم ببعض الفتيات اللواتى يعلمان فى الملهى واللواتى يجلسن معهم حلانية على الموائد أمام الجميع ، وغير ذلك فلم أر مائدة واحدة خالية من الخمر وأنا لا أشرب الخمر أبداً ، فكيف أجلس فى وسطهم بلا خمر وبلا نساء . . لهذا كله بحثت عن مائدة بعيدة عن

الناس جميعاً ، وجلست إليها . . ومن ثم رحت أنظر من بعيد إلى هذا الخليط الغريب من الناس ، وإلى هذه الأماكن بالذات . . التي تظهر فيها أخلاق الناس على حقيقتها . . وإلى هذا التنافر العجيب وهذا التناقض الذي لا تجده إلا في هذه الأماكن ، أو هذه الأوضاع التي لا تقبلها كرجل شريف إلا في هذه الأماكن فقط . . وتعجبت لماذا نحن نقبلها وفي هذه الأماكن بالذات . . ورحت أتأمل هذه المائدة التي يجلس إليها زوج وزوجته ، وتلك التي تجاورها تماماً ويجلس إليها عشيق وعشيقة ، وكيف أنك تستطيع بسهولة أن تبين هذا من ذاك وأن مجرد نظرة عابرة إلى هذا الرجل المتزمت الذي يصطنع الوقار اصطناعاً والذي يضع نصف تقطيع دائمة فوق جبينه ، تستطيع أن تعرف أنه زوج ، ونظرة إلى ذاك الذي يضحك ويهرج ويتحدث بهذا الصوت الصاخب وهذا الانطلاق بلا تحفظ تستطيع أن تعرف أنه عشيق .

وكللك النساء فأنت من السهل عليك جداً في هذه الأماكن بالذات أن تعرف بمجرد النظرة الخاطفة إلى شخصية كل واحدة منهن . . فهذه التي تجلس مرتدية كل هذه الثياب من الوقار والحشمة والتزمت الذي تعرف كيف تصنع منه في لحظة واحدة عدة ألوان . . والتي تجلس وكل آمالها أن تسبق رفعة المائدة حتى تبعد أكثر وأكثر عن الرجل الذي تجلس معه . . هذه هي زوجة من غير شك . . أما تلك التي على نقيضها تماماً والتي تغافل حتى نفسها وتقرب مقعدها من حين إلى حين إلى مقعد الرجل

الذى معها حتى تكاد تلتصق به من غير أن تدرى .. فهذه حشيقه من غير شك .. ورحت أتعجب من هذه الأوضاع التى كان يجب أن تكون على العكس تماماً .. وأتأمل حياتنا الغربية التى نعيشها والتى نرتدى فيها دائماً ثوب النفاق .. دون أن نرغمنا على ذلك أحد .. كأن النفاق فريضة فرضتها علينا الأديان التى نعتقها .. أو كأن العرلة التى يجب أن نجاه بها أنفسنا جريمة نعاقد عليها ؟

وكدت أغيب فى دوامة هذا التأمل .. لولا أن أقبل الجرسون وانحنى أمامى تلك الانحناءة التى يرسم الاحترام الكبير فوق ظاهرها فقط .. وخجلت أن أطلب منه قهوة أو شاياً أو كوباً من المشروبات .. ومع أن هذه الأشياء موجودة فعلاً فى هذه الأماكن وموجودة ليطلبها الناس إذا أرادوا .. ولكن طلبها يجعلك دائماً موضع سخرة .. لماذا ؟ لا أدرى .. ولذلك خجلت فعلاً أن أطلب شيئاً من هذا .. وطلبت زجاجة من البيرة .. ولا جاء بها .. ووضعها أمامى على المائدة .. رحمت أحسبها على مضض .. وظللت كللك أشاهد بعض الألعاب والنمر التى كان يعرضها هذا الملهى على رواده .. إلى أن انطفأت أضواء المسرح فجأة فانطفأ معها شئء كان فى وجهى .. ما هو .. ؟ لا أعرف .. لماذا انطفأ ؟ .. لا أدرى .. ولكن الذى حدث أننى شعرت بانقباض شديد .. وأنا أرى تلك الفرقة الموسيقية تخرج إلى المسرح وتعزف لحناً راقصاً .. ونجاة تعالى تصفيق يكاد يصبم الآذان .. وكان له وقع الصواعق

فى أذنى . . ثم خرجت على إثره زينات تكاد تكون عارية تماماً إلا من بعض قطاعات معددة من جسمها ، وحتى هذه القطاعات أيضاً كادت تبدو عارية لولا بعض الأشرطة الحمراء والصفراء التى انعقد بعضها فوق أسفل البطن . . وتلى بعضها الآخر وتناثر فوق الوركين ومؤخرة الأرداف . . وما إن رأيت ذلك حتى أحسست بما يشبه النار فى عيني . . فأدبرت وجهى حتى لا أرى هذا الجسد يتعري هكذا أمامى وأمام هذا الجسد الكبير . . وتذكرت حديث زينات لى ، عن الفرق بين البغى والراقصة ولست أدري لماذا أحسست أنها كانت على حق عندما عقدت هذه المقارنة وأن الفرق لا يكاد يذكر ، أو هو يذكر فعلاً إذا ما تحدثنا عن الأخلاق . . — أى أخلاق — وقارنا بين التى تدفعها الحاجة إلى أن تتعري فى الظلام ولعين واحدة . . وهذه التى تتعري تحت الأضواء وثلاث العينين . . ورحت أسأل نفسى ... ما هو الشرف . . وما هو مفهومه عند المرأتين وما هو الشرف فى مفهومه عند المجتمع ؟ . .

وظللت كذلك إلى أن دوى التصفيق فى أذنى مرة أخرى . . فاستدعيت الخادم وأنقذته ثمن زجاجة البيرة وأجزلت له بعد ذلك فى العطاء . . وأعطيته ورقة لزينات قلت لها فيها . . إننى فى الصلاة وإننى أنتظرها . .

ومن ثم رحلت أنتظر . . وانتظرت فعلاً ساعات طويلة . . ولما انصرف الناس جميعاً . . ولم يبق غيرى تقريباً . . نظرت فى ساعى

فوجدتها الثالثة صباحاً . . اندهشت وسألت عنها أحد الخدم . . فقال
 ساخراً وهو ينظر لى فى كثير من الازدراء . . بأن الست زينات إنما
 انصرفت من ساعات طويلة . . أى عقب أن أنهت رقصتها مباشرة . .
 فازدادت دهشنى وانصرفت . . وذهبت إلى بيتها . . ولكنى عندما بلغت
 البيت انصرفت على الفور لأننى وجدت نفسى فى حاجة إلى جرأة أهل
 الأرض جميعاً . . وحتى لو ظفرت بها لما استطعت أن أدخل بيت راقصة
 فى هذا الوقت المتأخر من الليل . . وفى اليوم الثانى . . وجدت نفس
 الشئ . . ذهبت إليها فى البيت فلم أجدها . . ولم أشأ أن أذهب إليها
 فى الصلاة ثانية . . فقد أحسست أنى لن أقدر على هذا مرة أخرى . .
 ومر يوم آخر . . ولم أجدها أيضاً . . وهكذا مرت ثلاثة أيام لم أرها ولم
 تحاول هى أن تتصل بى بما زاد مخاوى وجعلنى أترك عملى وأذهب إليها فى
 النهار ما دام قد تعلم على وجودها فى الليل .

لا حظت شيئاً غريباً عندما وصلت إلى البيت .. فإنا كدت
أوقف سيارتي وأهبط منها وأصعد إلى باب المسكن حتى رأيت رجلاً
عملاقاً .. عرفت فيما بعد أنه البواب - يعترض سبيلي .. ويسألني في غلظة
وخشونة عما أريد فارتبكت .. وشعرت بشيء كثير من الحرج ..
إذا ما قلت له عما أريد .. وبشيء كثير من الحرج أيضاً إن لم أقل
له شيئاً .. وماذا سأقول له إن أنا أنكرت عنه الحقيقة ؟ وكأن الرجل
لاحظ على هذا الارتباك لأنه قال مستطرداً وقد ازدادت لهجته جفاء :
— إذا كنت تريد الست زينات .. فهي لا تريد أن تقابل أحداً ..
— هي التي قالت لك ذلك ؟ ..
— طبعاً ..

فلم أنطق .. ورحت أهبط الدرج ثانية .. وكان هو أيضاً يهبطه
خلفي .. فقلت له ونحن عند الباب الخارجى :
— قد تكون الست زينات تعني أحداً آخر لا تريد مقابلته ؟
ثم استطردت وأنا أخرج ورقة من جيبى لأكتب عليها شيئاً :
— فهل لك أن تخبرها بوجودى .. وتعطيها هذه الورقة ..

فلم يشأ الرجل حتى أن يصغى إلى .. وإنما قال وهو ينصرف ليني
الحديث :

— أنا لا أعرف أحداً آخر يتردد عليها ..

فوقفت خزيان .. إذ فهمت من حديث الرجل أنني المقصود
بالذات .. وما يزيد هذا تأكيداً .. محاولة تهريبها مني في الأيام الثلاثة
الماضية .. وقد اندهشت دهشة كبيرة لهذا الانقلاب الغريب ، إذ
مازلت أذكر اللحظة التي ودعتها فيها .. ونحن على أحسن حال ، وبعد
أن تفاهمنا تفاهماً صريحاً وجميلاً .. وطيباً في الوقت نفسه ..

ورحت أفكر في شتى الأسباب البعيد منها والقريب .. . والطيب
منها وغير الطيب .. وحتى الحديث الذي لا يتأتى إلا لنوى النفوس
السيئة .. ومع ذلك لم أهتم إلى سبب واحد معقول أو حتى غير معقول ..
يجعل زينات تفعل بهي هذا الذي فعلته .. ولو كنت وجدت سبباً ،
ولو كان تافهاً ، فربما كنت أرحت نفسي من هذا العناء ، وعملت
أنا من جانبي على تلبية هذه الرغبة ، ولكنني لم أجده .. ولذلك كان على
أن أراها .. وأن أراها بأي حال ، ومهما كلفني ذلك من ثمن .. ولهذا
قمت بعمل جرىء لم يكن أمامي سواه .. وهو أن أنظرها عند منتصف
الليل أمام مترها .. فهي كما قد عرفت تنهى دائماً من رقصتها في الملهى
حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف .. وهي كما تعودت وعرفت أيضاً ..
تنصرف عقب الانتهاء من عملها مباشرة .. وهي تنصرف دائماً إلى

بيتها . . وسواء أكان ذلك أم غيره فهي لا بد أن تذهب إلى البيت . .
ولاذن فخير السبل إلى أن أراها وأتحدث إليها وأعرف منها حقيقة هذا
التغير الغريب هو أن أنتظرها في هذا المكان بالذات .

* * *

ما كادت الساعة تقترب من منتصف الليل حتى كنت أجلس
داخل سيارتي أمام مدخل البيت مباشرة . . ومن ثم رحت أنتظر . . ولا
أدرى هل انتظرت طويلاً أولاً . . ولا أدرى حتى ما هي الأفكار التي
كانت تدور برأسي طوال ساعات هذا الانتظار . . وهل كانت من
السواد بحيث إلى كلما حاولت أن أبغدها اقتربت هي . . أو أنها كانت
من الأفكار المطمئنة التي تريح البال وتجعل الإنسان يتمسك بها ويدور
ويلف حولها كما تدور الفراشة حول مصباح من نور . . أو تلف النحلة
حول زهرة متضوعة العطر . . وإنما الذي أدريه تماماً هو أنني رأيتها بعد
منتصف الليل بعشر دقائق على وجه التحديد . . وهو القدر الذي قطعته
في الطريق من الملهى إلى البيت بعد أن فرغت من عملها مباشرة . . رأيتها
مقبلة من بعيد في سيارة أجرة . . ولما وقفت بها السيارة بالقرب من البيت
وهمت بأن تغادرها كانت قد رأيتني ، فإذا بها ترتد سريعاً إلى داخل
السيارة وتختبئ في قلبها وهي تأمر السائق بأن ينطلق سريعاً وقد انطلق
بالسيارة وبها فعلاً . . فاندھشت . . اذ تأكدت من أشياء كثيرة . .
كنت أجادل أن لا أصدقها . . أو حتى أسمح لنفسي بالتفكير فيها . .

وما دامت قد حدثت .. وما دمت قد تأكدت منها .. فلا بد لي على الأقل أن أعرف أسبابها .. ولذلك تصرفت تصرفاً لا يصدر عن عاقل أبداً .. إذ كنت أشبه بصبي صغير حدث السن .. وأنا أطاردها بسيارتي وأتبعها في كل مكان تخفي سيارتها فيه .. ولا أدركت أن لا مفر لها وأنني سوف أتعقبها مهما حاولت الهرب مني .. أوقفت السيارة وهبطت منها وصرفت السائق ثم جاءتني حانقة ثائرة وقالت وكل شيء فيها يرتعش من الغيظ :

— لماذا أنت تتعقبني ؟

— ولماذا أنت تهريين مني ؟

— أرحوك .. ابتعد عن طريقي ..

فازدادت دهشتي وقلت :

— هكذا دون ما سبب ؟

— أجل .. دون سبب .. دون سبب ..

فقلت وأنا أنظر إلى وجهها المحترق وعينيها المغروقتين بالدموع :

— لا بد من سبب ..

— السبب هو أنت .. أنت ..

— أنا ؟

نطقها في ذهول لاحد له .. ثم أطبقت ولم أنبس .. ورأيت كل شيء فيها يرتعش ويهتز .. ففتحت باب السيارة وأجلستها بجانبني ومن ثم قلت

لها وأنا أنظر إلى شيء في عينيها يحترق :

— أنا السبب . ١٩

فانفطرت الدموع من عينيها وقالت :

— أجل . . أنت السبب . .

فتوجست خيفة . . وظننت فعلا أنني إنما ارتكبت شيئاً أغضبها
وأغضبها إلى هذا الحد . . حد أنها تهرب مني . . وحد أنها تبكي بهذه
الحركة . . ولهذا سألتها وأنا أضطرب كما لو كنت فعلا قد ارتكبت عملاً
مسيئاً :

— لماذا أنا السبب . . وماذا فعلت ؟ ١٩

فلم تجب . . وصمتت بعض الوقت . . ولما جففت دموعها قالت
وكأنها تخاطب إنساناً لا تعرفه ولم تره من قبل :

— ماذا تريد مني ؟ ١٩

وكنيت أنتظر كل شيء إلا أن أسمع منها هذا القول الذي أخرجني
حرجاً شديداً . . وزادني حرجاً أنني لم أجده جواباً أرد عليها به . . ولذلك
صمت . . ومرت فترة ضمت ثقيلة كدت أرزح تحتها خجلاً ومع ذلك
استطعت أن أخرج من هذا الصمت وأن أتكلم . . وقلت لها :

— أنا أريد لك . . ولست أريد منك .

— تريد لي ماذا ؟ ١٩

— الخير .

فقال في سخرية جارحة وهي تبسم في مرارة :
 - حتى الذى يسرق .. يظن أحياناً أنه يفعل الخير ..

- وهل أنا لص ؟

فقال في خشونة :

- إنك تريد أن تكون كذلك ..

- إنك تجرحينى بهذا القول ..

- بل أنت الذى تريد أن تجرحنى .. وكأن تلك الجراح التى
 تعرفها .. لم تؤثر فيك .. حتى تريد أن تجرحنى هذا الجرح الذى
 سيؤدى بجبانى ..

فخرجت من طورى حتى كدت أحنقها .. ولكن يدي تجمعت
 بجبانى .. وقلت :

- ما هذا القول الذى تقولينه ؟

- بل قل أنت .. ماذا تريد منى .. وماذا يريدك شاب فى مثل
 سنك من فتاة مثلى .. لماذا يريد أن يصادقها ، ويوطد علاقته بها ..
 ويتردد عليها فى بيتها .. ويلاحقها فى كل مكان تذهب إليه ..

فنظرت إليها لكي أتأكد من أن هذه هى زينبات التى كنت أحدث
 إليها طيلة أسس الأول حتى الثالثة صباحاً .. ولا تأكدت من أنها هى
 فعلاً .. قلت وكأننى أهلى :

- ما الذى غيرك هذا التغيير المفاجئ ؟

— أرجوك .. إنني أسألك ماذا تريد مني ؟

— قلت لك لا شيء ..

— إذن .. لماذا لا تتركني ؟

— لأنني لا أستطيع ..

— ولماذا لا تستطيع ؟

— فازددت حرجاً .. وارتبكت ارتباكاً شديداً .. ولما لم أجب ..

قالت وكأنها تريد أن تصرخ :

— قل .. تكلم .. لماذا لا تستطيع ؟

— لأنني أحبك ..

نطقها سريعاً .. وبلا تريث .. وبلا وعى أيضاً .. فقالت وقد

هدأت على الفور وكأنها ما كانت تريد سوى أن تتترع مني هذا

الاعتراف :

— هذا ما كنت أخشاه ..

— تخشين أني أحبك ؟

— أجل ..

— ولماذا تخشين هذا ؟

فقالت .. وكأنها تتترع القول انتزاعاً :

— أتريدني أن أصدقك القول ؟

— من غير شك ..

— لأننى لا أحبك ..

— أنت تكذبين .. لأن ما لمسته منك حتى ليلة أمس الأول على

الأقل يؤكد غير ذلك .. ثم إنه لا يمكن أن يكون هذا هو شعورى

نحوك وأنت لا تبادلينى نفس الشعور ..

— جائز جداً ..

— لا ..

— أمن الحتم أن نبادل الشعور ؟

— إن الزهور دائماً لا يصدر عنها غير العطر ..

— كثير من الزهور لا عطر لها ..

— ليست من فصيلة الزهور إن لم يصدر عنها العطر ..

— أليس من الجائز أن يكره الأخ أخاه ؟

— فى السراء فقط .. أما فى الضراء فهو شقيقه ابن أمه وأبيه ..

فأخنتى صوتها كثيراً وهى تقول : ..

— وهذا هو الضر الذى أخشاه ..

— أى ضر ؟

— أن تحببني وأن أحبك ..

— أضرب .. أننا نتحاب ؟

— بالنسبة لى على الأقل ..

فازددت حيرة وقلت :

- أتشكين في حبي لك ؟
 - ليس هذا هو الذى يعذبنى ..
 - ما الذى يعذبك إذن ؟
 - أنك تحبى كل هذا الحب ..
 فأمسكت بيديها ووضعتها بين يدى .. وقلت وأنا أنحس ظهر
 يدها وكأننى أنحس شغاف قلبى :
 - إذن ما الذى تخافينه ؟
 فاختق صوتها مرة أخرى واغرورقت حينها بالدموع ثانية وقالت :
 - إبنى أسأل نفسي .. ما هو مصير هذا الحب .. وما هى
 نهايته ؟ ؟
 - لن تكون له نهاية أبداً ..
 - لكل شىء نهاية ..
 - شيطان ليست لهما نهاية .. الله .. والحب ..
 - ومع ذلك فلنى خائفة ..
 - مم ؟
 - لا أدرى ..
 - هل تشكين فى طهارة خلقى ؟
 فقالت صارخة وهى ترمى على صدرى وتبكى :
 - لا .. لا .. لا .. ليس هذا ما أخافه .. ليس هذا ما أخافه ..

— فم الخوف إذن ؟

فأجهشت في بكاء طويل وقالت في خوف شديد وهي تلوذ بأحضاني مرتعشة .. وكأنها تبحث بين خبايا صدرى عن مكان تختبئ فيه :

— إننى خائفة عليك .. خائفة عليك منى .. أفهمت ؟

فربت على صدرها المحتبئ في صدرى وقلت :

— تحدثنى .. قولى كل شىء .. تخافين علىّ مم ؟

— قلت لك منى .. منى ..

ولا كانت تثقى في خلقها فوق الشبهات جميعاً .. قلت :

— منك أنت بازيئات ؟

— لست أخاف عليك من زينات التى تعرفها أنت .. وإنما أخاف

عليك من زينات الراقصة التى يعرفها الناس ..

فأدركت على الفور كل ما تعنى .. وكل ما يحول في خاطرها ..

كما أدركت أيضاً لماذا أغلظت لى في القول أول الأمر .. ولماذا

كانت تريد أن تنصرف عني .. وكيف أنها كانت جادة عندما تهربت

منى .. ولا أدري لماذا قدرت لها هذا الشعور تفديراً معيناً .. وتأثرت به

إلى حد أننى كدت أبكى وأنا أضمر شغاف القلب على هذا الشعور النبيل

وهذا الجميل الذى جعلنى أحس لأول مرة في حياتى بأن لى في هذا الوجود

من يحببني ويحرص على ويريد لى أكثر ما يريد له لنفسه من خير ، والشعور

بذلك ليس من السهل احتمال السعادة به ولا الصبر على الاعتراف به ..

فمظهره والاعتراف به هو خير حافظ للفضل نفسه .. إن كنت حقيقة تريد أن تبقى عليه وتثبت أنك جدير به .. لهذا كله لم أمتلك نفسى فبكيت حقيقة .. بكيت وأنا أضمر هذه السعادة كلها إلى صدرى وأحتويها بين حنايا الضلوع .. وأنا أربت على كتفها الصغيرة التى كانت لا تزال مستلقية على كفى .. ودموعها لا تزال تنساب دافئة فوق صدرى .. ولما أحسست بذلك الدفء يتسرب إلى قلبى رفعت ذلك الرأس الصغير الذى أحبه إلى عيني ومن ثم تحسست بشفتى ذلك النور الذى فوق الجبين وعند مفرق الشعر تماماً. أودعت قلبى التى قدر لها منذ هذه اللحظة أن تكون العنوان الجميل لكتاب حبنا السماوى ... حبنا الذى عشنا له وبه زمناً .. فكان هو الزمن وكان هو العمر وكان هو الدنيا وهو الحياة .. حبنا الذى كان لنا أشبه بالكتاب المقدس الذى يهتدى إلى سواء السبيل ويعلم الطهر والصفاء .. والخلق الطيب .. ويخلق من البشر أناساً يرسمون خطى الملائكة فيما يقولون وفيما يعملون وفيما يحبون لأنفسهم ويحبون لغيرهم من الناس.

* * *

وبهتدى من هذا الطهر والصفاء .. والبعد عن الغرض .. توطلدت علاقتنا واستقامت حياتنا بعيدة عن الشوائب وبعيدة أيضاً عن كل ما يعتمل فى النفس من سوء أو ما يشوبها من متاعب .. فقد تجنبنا كلانا كل ما يضايق الآخر. وكل ما يؤذى شعوره أو يسبب له المتاعب. فقد كان أشد ما يؤذيها أن ترى قدى تنزلق إلى الصلاة التى تعمل فيها ، ويرانى أحد

روادها وأننى لا أزيد أو أنقص عن أولئك الذين يعيشون فى الظلام كما
كانت تسميم . . وكان أشد ما يؤذى شعورى ويؤرقنى طوال الليل
ويجعلنى أقلب على فراشى أتوجع من حرقه النار المشتعلة فى مرقدى هو
أننى أراها ترقص أمام النلس وأن أرى تلك العين النهمة وهى تنطلق
معربة كالسهم وتنغرز فى كل موضع تعرى من جسدها أو اختفى
خلف الثياب . . ولا أدري لماذا كان هذا يسبب لى كل هذه الآلام . .
وكل هذه النار التى تحرقنى فى الليل وفى النهار . . تحرقنى وأنا مغمض
العينين تحرقنى أيضاً وأنا مبصر أرى تلك العين التى كانت تنغرز سهامها
المأوثة فى قلبى أنا . . لقد كنت أحس وأنا أتوجع حقيقة أننى إنما أتوجع
لنفسى وليس لأحد آخر . . ولشد ما كان يزيدنى هذا الإحساس توجعاً
فلا أملك غير أن أبكى وأبكى طويلاً دون أن تنسكب دموع واحدة من
عينى . . ولقد علمنى هذا أن حر البكاء وأشد حرقه وإيلاماً هو المنى
من غير دموع . . ولما أدركت هى هذا بقطبتها . . وكنت أخرج فى أن
أظهرها عليه حتى لا أزيد من آلامها امتنعت عن الرقص وطلقت هذه
المهنة ولم تعد إليها بعد ذلك أبداً . . وكانت بهذا سعيدة . . سعادة لا تقدر
كما قالت لى فيما بعد . . لأنها استطاعت بذلك أن تجعلنى أجنب مواطن
الزلل . . بأن أبتعد عن ارتياد هذه الأماكن التى كان انهيار القيم فيها
وتحطيم المقدسات وركلها بالنعال . . هو غاية كل من يرتادها كما
كانت تقول!

استأجرت لزينات شقة صغيرة منعزلة في حي هادئ من أحياء القاهرة..
 وأثنائها أثنائاً لا بأس به .. وزودناها بكل ما تحتاج إليه فتاة في مثل
 خلق زينات .. أحب الأشياء إليها هو أن تكون بعيدة عن الناس وأسعد
 الأيام عندها هي التي تقضيها وحيدة بين جدران بيتها لا ترى أحداً
 ولا يراها أحد .. . وكنت أتردد عليها من حين إلى آخر .. لأطمئن
 عليها أو أقضى لها ما تكون في حاجة إليه ..

وعلم الله الذي أشهده على نفسي وأنا أدون الآن هذه المذكرات، والقلم
 يرتعش في يدي .. ويكاد يرتعد فرقاً كلما اقتربت من الأحداث الجسام
 التي أروىها في صدق وأثبت كل صغيرة وكبيرة فيها بأمانة وإخلاص ..
 أقول أشهد الله على أنني ما ترددت على بيتها الجديد بعد ذلك أو ذهبت
 إليها فيه مرة في الليل أو في النهار إلا كما يتردد العابد على المحراب ليستمتع
 بلحظات من الهدوء والسكينة ورضا النفس والزلزلى إلى الله بالنية الحسنة
 واطمئنان البال .

وبرغم أن ترددي عليها كان قليلاً نظراً لكثرة مشاغلي التي كانت
 أحياناً تستغرق مني النهار والليل كله .. فقد كانت تطرب له كثيراً
 وتفرح له فرحاً زائداً .. وكان هذا يسرني سروراً بالغاً .. إذ كان أقصى

أمانى أن أنزل الطمأنينة إلى قلبها دائماً ، وكنت كلما وجدت متسعاً من الوقت قضيته معها إما في البيت أو في نزهة بالسيارة في الخلاء وأحياناً كنا نذهب إلى السينما ، وكثيراً ما كنت أسأل نفسي وأنا معها . . لماذا أنا سعيد كل هذه السعادة وأنا في صحبتي ١٩ وكانت هي أيضاً تسأل نفسها هذا السؤال عينه . . وكان الجواب يجيء دائماً واحداً لا يتغير .. لأننا نحب لغير ما غاية ولغير ما هدف كان حبنا كالزهر تماماً .. غاية ما ننشده منه هو أن نظل راحته تتضوع عطراً .

وهكذا ظللنا وظلت سفينة السعادة تمخر بنا حباب النعيم تحيطها إشعاعات من نور باهر الضياء يهديها دائماً إلى الطريق القويم ويجنبها عواذى الغرق أو يكتسح أمامها الصخور حتى لا ترتطم بصخرة منها فتحطم . . وما كنت لأظن أبداً أو حتى يظن القدر نفسه أن سفينة سعادتنا هذه سوف تتحطم وبهذه القسوة وهذا العنف . . وأن موجة عاتية سوف تقلد بها فجأة فتجعلها في سرعة الغمض تتحطم وتتناثر أشلائها فوق الصخرة وتذهب معالمها في جوف البحر وأن يحدث هذا كله سريعاً جداً . . وقبل أن تقوم من مقامك . . أو حتى قبل أن يرتد إليك طرفك . فقد كنت في تلك الليلة على موعد مع زينات لنشاهد فيلماً كان يعرض إذ ذاك في سينما « ديانا » بشارع ألفي بك . . وبينما كنت أنتظرها على باب السينما . . شاهدت سيارة أبي الحمراء الكبيرة يجيء بها عم أحمد السائق ويقف بها أمام مطعم سان جيمس ، كما شاهدت

أبى خارجاً من المطعم بعد تناول العشاء وكان فى صحبته أحد أعيان الدائرة الانتخابية الذى سيساعده فى الانتخابات ، وكنت لم أر أبى من عدة أيام فذهبت إليه وصافحته وتحدثت إليه فى بعض الشئون ، وسرني كثيراً أننى وجدته مبتهجاً إلى سبر المعركة الانتخابية التى قربت نهايتها والتى تبشر بالنجاح المؤكد ، ثم صافحني مرة أخرى وانصرف مع من معه وانصرفت أنا أخترق عرض الطريق لكى أنتظر زينات . . عير أننى شاهدتها واقفة فى الظلام على الطوار الجانبى بجوار مطعم نيو كورسال فذهبت إليها وما إن اقتربت منها حتى وجدتها فى حالة اضطراب شديد وذهول يكاد يفقدها صوابها . . فاندعشت وزادت دهشتى عندما وجدتها تمسك بذراعى يديها المترعشتين وتسألنى وهى تكاد من الخوف تصرخ فى الطريق :

— من هذا الرجل الذى كنت تتحدث إليه ؟

وكانت طريقة إلقاء السؤال غريبة . . ومريبة فى الوقت نفسه .. فقلت :

— لماذا ؟ ..

فهزنى فى عنف من كنفى وهى تصرخ هذه المرة :

— تكلم . . قل . . من هذا الرجل الذى كنت تتحدث إليه ؟

— لماذا أنت مضطربة هكذا ؟

فقالت وهى تكاد تسقط لإغماء . . لولا أنها استندت إلى كنفى :

— هل تعرف من هو هذا الرجل ؟

— من ١٩

— إنه الرجل الذي رأيته بعيني هاتين يتسلل من مخدع « أمى »
 قبل أن تقتل بأبام ..
 ففتحت عيني وأغمضتها آلاف المرات .. قبل أن ألتقط أنفاسي
 وقلت وكأنني أخاطب شبحاً خرج إلى في الظلام :
 — ما هذا القول ؟

فلم تصنع إلى ما أقول .. واستطردت وهي ما تزال تهزني من كفتي :
 — لماذا أنت تنتظر .. أستيظ .. أسرع خلفه .. أمسك به .. اقبض
 عليه .. إنه هو الذي قتل أمى ..

فلم أستيظ كما كانت تريد .. وإنما ظللت في مكاني متحجراً
 أشبه ما أكون بتمثال من الحجر تماماً .. ولم أفق إلا على شيء
 يتسرب من بين أصابعي ويتطاير في الهواء .. عرفت فيما بعد
 أنه كان تذكار السينا .. ثم ذهبت معها إلى البيت ولا أدري حتى الآن ..
 هل ذهبت معها إلى البيت في سيارة أجرة أو في سيارتي .. وهل كنت
 أقودها أو لا .. وهل كنت أرتكب أكثر من حادث في الطريق أو
 أنني كنت ممالكا لقواي العقلية والجسمانية .. وهل كانت هي من
 الإعياء والفرع بحيث حملتها على كفتي حتى أدخلتها البيت أو هي التي
 فعلت معي ذلك .. كل هذا لا أذكر منه شيئاً الآن .. ولكن الذي
 أذكره جيداً هو أنني كنت وأنا معها نتحدث كلما أقفت من غشيق ..

وحادث هي فأكدت أن هذا « الرجل » هو نفسه الذى شاهبته بعينها يخرج من بيت المجنى عليها . . فعلت ثانية إلى فقدان صوابي ، كما أذكر شيئاً آخر وأذكره جيداً . . وهو أنني لم أقل لها من هو هذا الرجل ولا ما هي صلتى به . . وهل أعرفه أنا معرفة جيدة أو هي معرفة عابرة ؟ كما أذكر شيئاً ثالثاً وأذكره تماماً . . لأنه لا ينسى وهو أنني بعد أن غادرت بيتها في الساعة الثالثة صباحاً في هذه الليلة وقطعت ثلاثة أرباع الطريق إلى بيتي . . عدت ثانية فرجعت إليها لأسأله بعض أسئلة جديدة اتضح أنني سألتها لها أكثر من مرة . . مثل هل هي متأكدة من هذا القول الذى تقوله . . ومثل رجائي لها أن تكون مخطئة في الفهم . . ومخطئة في الذنر . . ومخطئة في الرؤية . . ولكن المسكينة لم تستجب لرجائي ولم ترحم قلبي . . فجعته في أعز ما يملك . . وهو حياته . . وراحت تؤكد لي كل حرف قالته . . وتدعم قولها بالأسانيد والأدلة والوصف الدقيق للرؤية . . وهي تعيد على نفس المشاهد التي رأتها بعينها ووصفتها في التحقيق وصفاً دقيقاً وكيف أنه كان يضع صحيفة على وجهه حتى لا تراه . . ولكنه عندما استدار ليخرج من الباب . . استطاعت أن ترى نصف وجهه . . بل ثلاثة أرباع الوجه . . وكيف أنه هو نفس الوجه ونفس الشارب . . . ونفس العين الضيقة التي تميل إلى السواد . . ونفس الياقة المنشأة والدبوس الماسى الذى يلتصق بريقه فوق رباط العنق ، بل نفس الطول والعرض واللون الذى يميل إلى السمرة .



ولما أعادت على مسامعى كل هذه الأوصاف للمرة العاشرة بعد المائة .. أو المائة بعد الألف تركتها وانصرفت ثانية إلى الطريق أو إلى البيت لا أدري .. وأنا أسبح فى دوامة من الهواجس الغريبة والأفكار السوداء .. ترى هل هو أبى حقيقة .. ولو كان هو .. فما هى العلاقة التى كانت بينه وبين هذه المرأة .. وهل أبى كذلك .. ممن لهم علاقات نسائية ؟! ولكنى أعرفه جيداً .. إننى ابنه . . . وأكاد أعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه .. حقيقة إنه كائى إنسان آخر فيه الكثير من صفات الخير ومن صفات الشر .. ولكن صفة الشر هذه بالذات ليست أهدأ من صفاته .. إن كل ما فيه من صفات الشر حقيقة كما أسميها أنا « صفات شر » هو حب المادة .. وجمع المال .. والبحرى خلف الشهرة والمجد بأى ثمن وقد بلغ من ذلك كل ما يريد بل أكثر مما يريد .. فهو يملك ما يزيد على أربعة آلاف من الأفدنة . . . غير العقارات الكثيرة التى تدر عليه أموالاً طائلة .. وبلغ من الشهرة والمجد ما لم يبلغه غيره .. فهو « باشا » وهو مرشح للوزارة .

مثل هذه الصفات أعرفها فى أبى .. ولكن هذه « الصفة » بالذات لا أعرفها عنه أبداً ، ولا أستطيع أن أكون خالص الضمير إذا اتهمته بها .. ولو كان كذلك .. أفىكون هذا مع تلك المرأة ١٩ إنها كما هو ثابت من التحقيق فى الخامسة والأربعين من عمرها . أى أنها عجوز لم يفتها القطار فحسب .. وإنما فات عليها فعلاً حتى كادت عجلاته

تأكل شبابها وتلبس أنوثتها بدليل الآثار التي تركتها في الوجه هذه العجلات
الخمسة والأربعون .. حقيقة إنها كما يتضح من صورها كانت لا تزال
بها بقية من جمال .. وبقايا من أنوثة .. ولكن ليس إلى هذا الحد ..
حد الفتنة والعشق .. و .. القتل أيضاً .

وكدت أسرسل في هذه الأفكار ، وفي غيرها .. لولا أنني فجأة ..
رويت نفسي بالسخف .. وقصر النظر وبلادة التفكير .. إن الذي
يعني الآن ليس هذا أبداً .. ليست هذه العلاقة وأسبابها إن مجرد التفكير
في ذلك معناه أنني قطعت بأنه أبي حقيقة .. إن الذي يتحتم على أن أفكر
فيه أولاً : أهو أبي أم لا .. وكنت كلما فكرت في ذلك ورأيت
الظنون تسبقني إلى تلك النافذة السوداء .. التي سأطل منها على الحقيقة ،
أحسنت بنار السكين التي تنغرز في صدري .. وكلما فكرت في العكس
أو أملت في أن يكون العكس هو الصحيح أحسنت بتلك السكين تنسل
من صدري وتخرج منه .. والغريب أنني كنت أشعر في الحالين بنفس
الأوجاع .

واتتني فكرة لا أدري لماذا ارتحت إليها بعض الشيء . . وأحسست بعدها أن آلامي قد نامت . . كما تنام تماماً آلام الطفل الذي تلهب رأسه الحمى إذا ارتفعت درجة حرارته إلى حد الهذيان .

إن زينات قد رأت أبي وهو يتحدث إلىّ في الليل ، وعيون الليل مهما كانت مبصرة فهي لا ترى ما تراه عيون النهار . . فلماذا لا أمكن لزينات من رؤية أبي مرة ثانية في النهار . . ومن المقطوع به أنها بذلك سوف تزداد تأكيداً إن كان هو أم لا . . ولكن كيف أمكن لها من ذلك دون أن أجعله يراها . . حتى لا يعرفها . . حقيقة إنه من المقطوع به حتى الآن أن أبي لا يعرف زينات ولم يرها في حياته . . ولكن إذا كان هو فعلاً الشخص الذي شاهدته زينات يتسلل من غرفة القتيلة ، هذه الغرفة التي كانت زينات تقف على بابها تلك اللحظة . . فمن المقطوع به أنه رآها وأنه سوف يعرفها في الحال إذا وقعت عينه عليها . . وأنا ليس من صالحى ، حتى الآن على الأقل ، أن يعرف أبي من هي زينات . . فكيف إذن أمكن لها من أن تراه دون أن يراها هو؟ ... رباه ! أن رأسى يكاد ينفجر . .

وهكذا مر الليل بطوله . . ولما جاء النهار . . كان أسوأ حالا بكثير

من الليل الطويل الذى مضى ، فقد واثقى فكرة لا أعرف كيف انتهت إليها . . . ولذلك نقلتها فى الحال . . . فقد كانت فكرة صائبة فعلاً . . . كان المكتب الذى اتخذته أبى لنفسه فى ذلك الحين ليدير منه أعماله ويعقد فيه اجتماعاته ويستقبل فيه من يريد استقباله من أهل دائرته الانتخابية يقع فى إحدى عمارات الحديدي بشارع عماد الدين ، وكان المسكن الذى يجاور مكتب أبى مباشرة ولا يفصله عنه سوى باب المصعد فقط هو مسكن مدام إيلين مصممة الأزياء المعروفة ، وكانت بحكم مهنتها تردد عليها نساء كثيرات من شتى الطبقات ، وكنت أعرف ذلك جيداً لأن أمى كانت فى يوم ما إحدى زبائن مدام إيلين . . . وكثيراً ما كنت أذهب معها إلى هناك . . . فقد كانت أمى مقلة جداً فى الخروج ، ولا تخرج إذا خرجت إلا فى مصيبي أنا بالذات . . . فلماذا لا أشتري بعض الثياب لزيينات وأجعلها تذهب بها إلى مدام إيلين وفى وقت يكون أبى فى مكتبه يستقبل ويودع بعض زواره الذين كان يصبر — ولا سيما فى هذه الأيام الأخيرة للانتخابات — على أن يودعهم لا إلى باب المكتب فقط ، وإنما إلى باب المصعد بالذات ، وبذلك تستطيع زينات من خلف شراطة باب مسكن مدام إيلين أن تراه جيداً دون أن يراها هو . . . ونقلت هذه الفكرة . . . وقامت زينات أيضاً بتنفيذ كل ما اتفقت معها عليه بدقة زائدة . . . وجلست أنا أنتظرها فى قلب سيارتى أمام «بارفنيكس» الذى لا يبعد عن العمارة إلا بامتار قلائل . . . وكل جارحة فى وكل نقطة دم

تجبرى فى عرق من عروق ثرىجو وتمنى وتضرع إلى الله أن يخيب ظن الفتاة .. وأن تكون الرؤية التى رأتها خاطئة ... وبرغم أننى انتظرت طويلاً .. وانتظرت ما يزيد على الساعتين تقريباً ، إلا أننى لم أشعر بملل الانتظار ولم أضيق به ، بل العكس تماماً هو الذى كنت أشعر به .. كنت أود أن يطول انتظارى النهار كله والليل أيضاً بل العمر بطوله .. فقط لا تأتى زينات وتقول لى إنه هو .. كنت أشعر فى هذه اللحظات أنه فى مقدورى أن أحتمل كل شيء .. أحتمل حتى أن تموت زينات قبل أن نجى .. إلى أو أن أموت أنا قبل أن نجى .. زينات .. أما الذى كنت لا أستطيع حتى مجرد التفكير فيه فهو أن تتحقق رؤية الفتاة .. وأن يكون الرجل الذى سوف تراه الآن هو نفسه الرجل الذى رآته يتسلل من مخدع المحبى عليها قبل ارتكاب الجريمة بأيام .. ولذلك عندما وقعت عيني على زينات وهى خارجة من باب العمارة .. ذلك الباب الذى ظلت عيني مسيطرة عليه ما يزيد على الساعتين حتى لكان نظراتى مشلوبة إليه بجمل .. أغضفت عيني على الفور .. حتى أطيل فى عمرى لحظات قبل أن أرى وجه زينات .. وأرى الفاجعة مرسمة عليه وعلى قسماته .. ولما أقبلت وجلست بجوارى فى قلب السيارة وفتحت عيني ورأيتها رؤية العين .. كانت كل الأسئلة التى أردت توجيهها إليها تسقى الأجوبة عليها ممثلة فى كل شيء فيها .. فى وجهها الشاحب المصفر الذى يشبه فى صفوته وجوه الأموات تماماً .. فى عينيها المضطربتين ونظراتها الملتبها التى

تتدفق منهما كما تتدفق ألسنة اللهب من فجوتين صغيرتين .. فى شفتيها المرتعشتين كشفاه محموم .. فى صممتها المطبق الثقيل الذى لا يستشعر وطأة ثقله سوى المفجوع فقط .

سارت بنا السيارة وتحدثنا .. تحدثنا أحاديث كثيرة .. ولكنى لا أستطيع أن أذكر من هذه الأحاديث شيئاً حتى أثبتة الآن بحرفيته .. فقد كنا ونحن نتحدث إذا تنفست هى بسهولة واستقامت ألفاظها أصبت أنا بالصمم فلا أسمع شيئاً .. وإذا تفتحت أذناى وأصبحت حاسة السمع عندى قادرة على التقاط حتى صوت تراحم الدموع فى عينيها اختنقت أنفاسها وأطبقت على شفتيها .. فلم تعد تنطق .. ولهذا لا أذكر من هذا الحديث الطويل شيئاً اللهم إلا سؤالها لى من حين إلى حين ... من هو هذا الرجل ١٩ .. وما اسمه ١٩ .. وهل أنا أعرفه أو .. ١٩ : وماذا لم أقبض عليه حتى الآن .

وكذلك لا أعرف أيهما ما الذى حدث بعد ذلك فى هذا اليوم بالذات .. وهل قضيته مع زينات فى بيتها .. أو قضيته بمفردى أسير وحدى على غير هدى كإنسان آلى تحركه قوة هائلة من قوى الشر .. وكنت كلما رأيت هذه القوة تستبد فى نفيت عن خاطرى نقياً باتاً كل هذه الأحداث جميعاً ... المحنى عليها التى قتلت ... القضية التى حققت فيها .. زينات التى تعرفت عليها وأحببتها .. دسوقى الذى اغتيل فى ظروف غامضة .. تكييفى للأحداث بعد مقتل دسوقى .. دسوقى

الذى كان عشيقةً للمجنى عليها .. المجنى عليها التى عشقت غيره ..
 الرجل الذى شوهد وهو يتسلل من مخدع المجنى عليها .. قتل دسوق
 للمرأة التى خاتنه وفضلت عليه رجلاً آخر .. هذا الرجل الذى قتل
 دسوق .. أبى وأنا أتحدث إليه أمام سان جيمس .. زينات التى كاد
 يغنى عليها عندما رآته .. المعينة التى تمت فى الخفاء فى بيت مدام
 إيلين .. كل ذلك كنت أنفيه عن خاطرى .. وأبعده عن يدي
 الاثنين كما يبعد الإنسان الباب من على وجهه تماماً .. ولكن هذا
 الباب وأسفاه كان أقوى من أن تبعده يد .. وكان كذلك أكثر من
 أن تتجاهله عين .. ولو كانت عين .. عين .. ابن ..

وفى الصباح ، ولعل هذا من سوء الحظ أيضاً ، حدثت حوادث
 خلقت الصلدة البحة .. فقد استيقظت مبكراً على غير العادة وارتيبت
 ثيابى وخرجت حتى دون أن أتناول طعام الإفطار كما هى العادة قبل أن
 أغادر البيت .. وبينما أنا أهبط سلم القصر الرخامى التقيت بأبى يهبطه
 هو الآخر .. فقد كان كما قال لى .. على موعد مع أحد الوزراء فى
 بيته فى هذا الوقت المبكر .. فلاحظت وأنا أتحدث إليه شيئاً خفيفاً
 للغاية .. تسمرت نظراتى عليه .. فقد رأيت — ولعل هذا عن طريق
 المصادفة أيضاً — البدة التى كان يرتديها فى هذا اليوم .. ورأيتها
 سوداء مفرقة فى السواد وذات خطوط رفيعة بيضاء .. ولا أدري لماذا
 نظرت إليها جيداً وتفحصتها بعينى بدقة كادت تلفت نظره لولا أننى

كنت أكثر لباقة من أن أجعله يفتن إلى هذا .. ولا انصرف ..
وانصرفت أنا إلى طريقي .. تذكرت أنني استمعت إلى وصف دقيق
إلى هذه البدلة وأن هذا الوصف مدون بحرفيته في شيء ما ، ولذلك كان
أول شيء فعلته ، عندما ذهبت إلى مكتبي هو أنني استدعيت سكرتير
التحقيق وطلبت منه دوسيه الجناية رقم ١١٠٧ .. ورجعت معه أراجع
أقوال بعض الشهود وبعض الذين كانوا قد اتهموا في هذه القضية ..
وقرأت مرة أخرى الوصف الدقيق الذي وصفت به زينات ذلك الرجل
الذي رأيته يتسلل من مخدع الخفي عليها .. ووقفت عيني طويلا على
وصف البدلة التي كان يرتديها ولونها الأسود الغارق في السواد وخطوطها
الرفيعة البيضاء .. . كما استوقف نظري في أوراق التحقيق بعض أشياء
أخرى .. أشياء كثيرة دونتها خلصة في ورقة صغيرة أمامي وأحفظتها جيبي
خلصة أيضاً .. ومن هذه الأشياء التي استرعت انتباهي ... بصمات
الجلاني التي وجدت بعضها فوق مزلاج باب الغرفة التي ارتكب فيها الحادث ...
ووجد بعضها الآخر على « فازه » وجدت ملقاة على الأرض . كان
الجلاني قد قذف بها الخفي عليها قبل أن يرتكب جريمته بالمسدس ..
ومنها أيضاً نوع المسدس الذي استعمل في الحادث .. ولست أدري لماذا
استرعى انتباهي هذا كله .. ولست أدري أيضاً لماذا ضربت بكل
أفكاري السابقة عرض الحائط .. ولم أعد أفكر في غير شيء واحد
فقط .. وهو التأكد أولاً من إبعاد هذا الشك القاتل ، وهو علاقة أبي

بهذا الحادث .. هذه العلاقة التي برغم كل ما حدث مازلت أستبعدها وأنفيتها بكل قوتي .. وكنت كلما نفيتها نفياً باتناً وأبعدتها عن خاطري بعد السماء عن الأرض ، عادت بعض الأفكار السوداء التي لا قبل لي بإبعادها تأكل في خاطري وتقضمه بأنيات موجعة للغاية .. أحاديث أبى معى عن القضية .. حديثه عن دسوق بالذات .. أرض المحنى عليها المتاخمة لمزارع أبى تماماً .. وإمكان إيجاد صلة عن هذا الطريق .. وحتى لا تتناثر أفكارى أو يغيب بعضها عن البعض الآخر ويمتد إلى هذا العذاب المفضى طويلاً .. رحت أدون هذا كله في مذكرات خاصة بى حملتها فى جيبى واحتفظت بها بين طيات ثيابى .

ومن ثم بدأت لإجرائى السرية الخاصة التى قمت بها بمفردى ولا يعلم بها أحد غير الله وأنا وهذه المذكرات التى بدأت تتكاثر صفحاتها ... والتى كنت أدون فيها أولاً بأول حتى أفكارى التى كانت تدور فى الظلام بينى وبين نفسى .. هذه الأفكار التى كانت بالنسبة لى أشبه بالسلم الذى يفرى جسدى ولا سيما عندما أمسك بخيط جديد يزيدينى قرباً من الفاجعة ويجذبني إليها على الرغم منى .. وقد مكثت كذلك إلى أن حدثت فى يومين اثنين فقط بعض الحوادث الهامة جداً التى أطارت صوابى وأطاحت بكيانى من جنوره ..

استيقظت كالعادة في الصباح وارتديت ثيابي . . وكان أبي قد عرف بذلك قبل أن أخرج فاستدعاني لأتناول طعام الإفطار معه كما هي العادة إذا تواجدنا معاً في البيت وقت تناول الطعام.. وبينما أنا أجلس معه على المائدة نتناول طعام الإفطار ونحدث عدة أحاديث كانت تلور جميعها حول معركة الانتخابات التي قربت نهايتها جداً .. لاحظت أنه بعد أن شرب من كوبة الماء التي أمامه على المائدة ووضعها ثانية مكانها . . لاحظت أن أصابعه قد تركت بعض البصمات عليها ، وكانت واضحة تماماً . . ولست أدري لماذا استرعى هذا انتباهي وفكرت فيه جيداً . . ولست أدري لماذا أيضاً تعمدت أن أطيل من تناول طعامي على غير العادة حتى فرغ أبي من طعامه وودعني وانصرف . . وانهزت هذه الفرصة وصرفت عم لإدريس الخادم إذ طلبت منه أن يحضر لي شيئاً من غرقى بالدور العلوي . . وأسرعت بتناول الكوبة في حرص شديد للغاية ووضعها في علبة من الكرتون وجعلتها فوق البوفيه في مائدة الطعام . . وكان بها بقايا من بسكويت ومن ثم حملتها وانصرفت إلى مكبي دون أن يفتن أحد إلى ذلك . . وفي المكتب استدعيت أحد الذين يعملون معي في المكتب

وكننت أثق فيه ثقة عمياء وطلبت منه أن يقوم- وبطريقة سرية للغاية- بمضاهاة هذه البصمات التي تحملها هذه الكوبية بالبصمات التي تركها الجاني على مزلاج باب الغرفة وعلى الفازة في الجناية رقم ١١٠٧ وأن يحضر لي الكوبية ثانية مع التقرير الذي سوف يحىء به إلى بطريقة غير رسمية .

وفي اليوم الثاني . . . مباشرة ولكن في الليل . . . حدث أن ذهبت إلى البيت في وقت متأخر من الليل فوجدت أمي قد انتابها أزمة الربو بشكل مزعج هذه المرة مما استدعى إحضار الطبيب في الحال ، ووجدت الطبيب عندها ومعه أبي في حالة قلق زائد فانضممت إليهما ، وبعد أن أسعفها الطبيب وبدأت عينيها تغفو طلب مني أبي الذي كان بملايس النوم أن أحضر له علبة سجائره من غرفة نومه التي كانت تتجاوز غرفة والدتي مباشرة لا يفصلها عنها سوى عمر قصير لا يزيد على عدة أمتار ، ولما ذهبت لأحضر له علبة السجائر وفتحت باب الغرفة ودخلت . . لغت نظري مسدس أبي ، في جرابه الجلد الأصفر ، موضوعاً فوق الطاولة بجوار علبة السجائر . . وما إن رأيته حتى واتنى فكرة جريئة جداً ومع ذلك نفذتها في الحال . . ونفذتها بدافع قوي لأنه نفس الدافع الذي جعلني اختلست بالأمس كوبية الماء . . ولكن ما هو هذا الدافع ؟ . . لا أدري حتى الآن . . ولكن الذي أدريه هو أنني كما اختلست كوبية الماء ووضعتها في حرص شديد داخل علبة الكرتون كذلك اختلست المسلسل . . واستبدلت به مسلسلاً آخر كنت أحمله في

جيبى دائماً ، من حسن الحظ أو من سوءه لا أدري . . فى نفس الحجم' بحيث لاني لما وضعته فى الجراب وأعدته إلى مكانه لم يتغير شئ . . ومن ثم حملت مسدس أبى فى جيبى وانصرفت . . وأعطيته علبة السجائر . . وظللنا نتحدث أنا وهو والطبيب إلى أن انصرف كل منا إلى حال سبيله .

وما إن انصرفت أنا إلى غرفة نوبى وأغلقت بابها خلفى وتأكدت من ذلك جيداً ومن أننى وحدى دون رقيب حتى أخرجت المسدس من جيبى وتفحصته . . وما إن فعلت حتى شعرت بلوار شديد . . كما شعرت بأن الضوء الذى ينير غرفتى يظلم فى عيني . . أو هو على الأقل ينخفض إلى حد أننى لم أستطع معه أن أدون فى مذكراتى الخاصة هذه النتيجة المرجبة لهذا الفحص الدقيق الذى قمت به والذي ثبت منه ثبوتاً قاطعاً أن هذا المسدس هو نفسه الذى استعمل فى الجريمة وأنه مازكة « براونج » عيار ٧ ، وأن « المشط » الذى يتسع لسبع الرصاصات كاملة العدد ليس به سوى أربع رصاصات فقط . . وأن ثلاث الرصاصات الناقصة هى التى استعملت فى الحادث وهى التى هتكت فروة الرأس وحطمت الجمجمة ونفذت إلى المخ فأحدثت الوفاة فى الحال . . كما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى .

وشعرت بأننى أختنق . . وبأن كل ما تحوى عليه غرفتى من أثاث إنما هو كابوس يحتم فوق صدرى . . ويخنق أنفاسى . . ففتحت الباب

سريعاً وهربت . . وفي الطريق لا أدري أين ذهبت في الليل . . هل رحت
أجوب الطرقات وحدى في الظلام . . أو جلست في قلب سيارتى أحترق
ككومة من نار تندلع منها ألسنة اللهب . . أو ذهبت إلى زينات
وأيقظتها من نومها في هذا الوقت المتأخر من الليل . . وأنها هي التي جعلتني
أنظن إلى ما أنا فيه من سوء حال وإلى النار التي تشتعل في صدري
وجمراتها التي تتقد في عيني . . وكيف أن المسكينة ظلت بقية الليل
تطفئ في هذه النار وتلقى فوق ألسنتها المشتعلة بكل ما تملك من أحاسيس
ومشاعر وروح وقلب ووجدان . . فلم تزد على أنها زادتها اشتعالا . . إلى
أن جاء الصباح . . فركبتها هي التي تحترق وانصرفت . .

وفي مكتبي وحوالى الظهور تقريباً كانت قد حلت الفاجعة . . إذ جاءني
نتيجة مضاهاة البصمات التي تمت بطريقة سرية كما طلبت تماماً فإذا بها
نفسها بصمات القاتل . . وبذلك استقامت أركان الاتهام جميعاً . .
واستقامت بما لا يقبل الشك . . أو يحتاج إلى دليل . . وبذلك أيضاً
انقلبت جميع أفكارى العقلية والمنطقية وحتى الاستنتاجية التي كنت قد
كونتها لنفسى . . فلم يكن دسوقي هو الذى قتل الحبنى عليها . . لأنه
اكتشف أنها فضلت عليه عشيقاً غيره . . ولم يكن ذلك العشيق الحديد
هو الذى قتل دسوقي انتقاماً منه لأنه قتل عشيقته . . وإنما الأمر غير
ذلك كله . . . وأن الذى قتل الحبنى عليها إنما هو هذا الرجل الذى
شاهدته زينات يتسلل من مخدعها في الليل والذى هو . . . رباه ! ...

إننى لا أقدر حتى على مجرد نطق هذا الاسم .. ولكن الذى أقدر عليه وعلى التفكير فيه لأنه فوق طاقة البشر تجاهله ... هو ..
 لماذا ارتكب أبى هذه الجريمة ١٩ .. لماذا سفك دماء الحبنى عليها ١٩ ..
 لماذا قتل أبى زينب عبد العال الشوباشى وأطلق عليها ثلاث رصاصات من مسدسه فأرداها قتيلة ١٩ ..

إن الثابت والمقطوع به .. أنه كان على علاقة مشينة بها .. بدليل
 ترده على بيتها فى الخفاء حتى لا يراه أحد .. وبدليل رؤية زينات
 لهما فى هذا الوقت من الليل وهما فى حالة تكاد تشبه التلبس يقطع
 برينتها أكثر من سبب .. خلو البيت حتى من الخادمة التى أبعدت عن
 البيت لنفس الغرض التى قطعت زينات بأنها كانت خارج البيت
 فعلا، بدليل أنها التقت بها مقبلة من الخارج بعد خروج أبى، وبدليل
 رؤية زينات للحادث رؤية العين ... الاثنان فى قلب المخدع ..
 النور الذى انطفأ فجأة ... ارتباك الرجل وتسله سريعا من قلب الغرفة ...
 ارتباك الحبنى عليها الشديد والحالة المريبة التى كانت عليها ... وقميص
 النوم الخفيف الذى كانت ترتديه .. واضطرابها الزائد عندما شاهدت
 زينات .. كل ذلك يقطع بوجود العلاقة المشينة بين الاثنين .. وهذه
 العلاقة ظلت قائمة إلى ما قبل ارتكاب الحادث بأيام قلائل .. فإما هو
 الذى حدث حتى جعل هذه العلاقة تنقطع فجأة .. وهى لم تنقطع
 فحسب ، وإنما انقلبت إلى هذا المنقلب .. من حب .. وغرام ..

وهيام .. وجرة متناهية في سبيل تحقيق الغاية .. إلى البغض .. والكراهية
 البالغة هذا الحد .. حد القتل .. سفك الدماء .. ارتكاب
 أشنع الجرائم .. ومن الذى يفعل هذا كله ... أبى؟
 ودارت بى الأرض دوراناً شديداً .. وأحسست بمقت وكراهية
 لكل شيء .. للناس جميعاً .. لبيتي .. ولكتي .. ولأبى .. وأمى ..
 وزينات .. وحنى نفسى .. وأردت أن أهرب .. أهرب من هؤلاء
 جميعاً .. وقد هربت فعلاً .. وذهبت إلى فندق متواضع فى حى غير
 معروف .. واضطرت ولأول مرة فى حياتى لكى لا أرى أحداً أو يتعرف
 على أحد أن أزور وأن أقيد نفسى فى الفندق تحت اسم غير اسمى ..
 ومكثت ثلاثة أيام فى غرفتى لم أبرحها .. ثلاثة أيام هربت فيها فعلاً ..
 من الناس .. والدنيا .. وكل ماله صلة بالحياة .. وبهذا العالم الذى
 نعيش فيه .. ومع ذلك لم أقدر على أن أهرب من نفسى .. من الشيء
 الحقيقى الذى وددت أن أهرب منه .. من المذكرات التى بلغت الكثير
 من الصفحات .. وإلى دونت فيها هذه الأحداث جميعاً .. واحتفظت
 بها فى جيبى .. بين طيات ثيابى .. بين محاجر عيني .. خوفاً من أن
 يراها أحد غريبى .. ثم خرجت بعد هذه الأيام الثلاثة وبى رغبة ملحة
 إلى شيء .. شيء أحسست أننى لو عرفته فربما انطلقت هذه النار التى
 كادت تخلف جسدى تراباً .. هذا الشيء هو أن أعرف لماذا ارتكب
 أبى هذا الجرم .. وقتل هذه المرأة فى عقربدارها ؟ ..

رجعت إلى بيتي في مساء اليوم الرابع .. وما كنت أقرب من
 مدخل القصر حتى رأيت شرفاته وردحاته وحديقته الواسعة تموج بجموع
 من الناس تهتف وتصفق وتلأ ضحكاتها أرجاء القصر .. وتعطر الفرحة
 الكبيرة أبهائه جميعاً .. لقد نجح أبي في الانتخابات ونجح الحلم الكبير
 الذي كان يسمى إليه ودخلت في غمار هذه الجموع وضحكت أنا
 أيضاً مع من ضحكك وصفقت أنا أيضاً مع من صفق وارتجت في أحضان
 أبي وعانقته وذابت الفرحة التي غمرتني في خضم الموج الزاخر الذي كان
 يصطبغ في صدر أبي أنساً وفرحاً وإبهاجاً .. ومن ثم انتحيت جانباً ..
 وجلست أجدف العرق الذي كان يتصبب مني بفزارة ، والذي لا أعرف
 حتى الآن سببه .. ورحت وأنا في جلستي هذه أقرب أبي وهو يروح
 ويحيى وكل شيء فيه يرقص .. حتى الأرض التي يسير عليها .. حتى
 الملابس التي يرتديها .. حتى تلك الياقة المنشأة وذلك الدبوس الماسي
 الذي تتحلل به ربطة العنق .. ولا أدري لماذا استقرت عيني على هذا
 الدبوس بالذات وهذه الياقة المنشأة بالذات .. وتذكرت أنني شاهدتهما
 كثيراً من قبل .. وأني أيضاً استمعت إلى وصف دقيق لهما ذات

مرة أو ذات مرات . وأن هذا الوصف مدون في بعض الأوراق .
 ومر أبى من جوارى وهو يروح ويحيى بين الناس وأقبل على مرة أخرى
 وقبلى مرة ثانية مهنتاً بنجاحه .. كأنه نسى أنه هنأتى وقبلى من قبل ..
 وأطال هذه المرة من تقبيلى ومذاعبى ، وراح يربت على وجهى بأصابعه
 وأحسست بدفء هذه الأصابع وحلاوة حنانها وهى تمر على وجهى ...
 وتعبت كيف يمكن لهذه الأصابع التى تعرف مثل هذا الحنان وتعرف
 مثل هذا العطف والتى لها مثل هذه اللمسات الإلهية التى تلذّب رقة
 وحناناً .. وجباً .. كيف يمكنها أيضاً أن تضغط فى قسوة وفى ظلم
 وفى وحشية على مفتاح مسدس لتزهق روحاً من الأرواح ..
 ومكثت كذلك فوق مقعدى أشبه ما أكون بحجر كبير وضع فوق
 قاعدة من القواعد .. لا أنطق ولا أتحرك .. ولا أتكلم .. إلى أن أنصف
 الليل وانصرف الناس وخلا القصر من الزوار جميعاً ... ولم يبق فى
 هذا القصر الفسيح الأرجاء سوى أنا وأبى فى الدور الأول الذى ما زالت
 الأنوار تتلألأ فى قاعاته كالشموس المشرقة .. وأبى فى الدور العلوى
 راقد فى فراش المرض كجثة مخنطة حديثاً وموضوعة فى حوض من
 البثور .. ونظرت إلى أبى وهو يجلس أمامى فى إحدى شرفات القصر
 التى تطل على الحديقة الواسعة ، وتأملته وهو يرفل فى الفرح التى تحيط به
 من كل جانب .. وأحسست بالدموع تغمر عيني .. لماذا ! ؟ ...
 لا أدرى .. كما أحسست بأنى أريد أن أقول له شيئاً .. وأن قوة فوق

طافقي تدفعني دفعا لأن أقول له هذا الشيء .. ومع ذلك لم أقدر .. كانت شفتي أشبه بقطعتين من الجلد الجاف تماسكتا والتصقتا بحيث لا ينفذ من بينهما حتى خيط من هواء .. وكأنه لاحظ على ذلك فسألني : لماذا أنا صامت هكذا ؟ .. فلم أجب .. وزاده صمتي إصراراً على السؤال أو زاده إحساساً بما أعانى من فزع وخوف .. فقال وهو ينظر إلى شفتي المطبقتين المرتعشتين :

— إنك تخفى شيئاً ..

ولما لم أجب أيضاً .. تحققت شكوكه .. وقال وعلائم الدهشة ترسم على وجهه :

— إنك تريد أن تقول شيئاً ..

— فعلاً .. أريد أن أقول أكثر من شيء ..

فقال وهو يقترب مني في حنان الأب ويضع يده على كتفي :

— أعرف أنك غير راض من أول الأمر عن هذه المعركة الانتخابية التي خففتها والتي كبدتني هذه المبالغ الطائلة .. ولكن العشرة آلاف جنيه التي أنفقتها ليست بذات بال إزاء هذا النجاح البلى جعلني الآن أكاد أجلس فوق كرسي الوزارة .

يا الله ! .. إنه ما زال يتحدث عن أطماعه .. وعن كرسي الوزارة الذي يحلم به .. لماذا لم يفتن إلى ما في خاطري .. ويحدثني عنه ؟ .. رباة ! .. لماذا لم يجعل للبشر حاسة سادسة أو سابعة أو ثامنة تمكن لهم

من معرفة ما يلور فى نفوس الغير .. وما يحرق هذه النفوس حتى كان أبى على الأقل يعرف ما بخاطرى ويحدثنى هو عنه ، حتى لا يكلفنى هذا العناء الشديد .. وحتى لا يترك لهذه العقدة تمسك بشقى كما تمسك بها تماماً أنياب أفعى قاتلة تنفث السم ١٩

ولما رأيته يريد أن يستطرد ثانية فى أحاديثه هذه البغيضة إلى نفسى .. عن المجد والطموح والعظمة وكرسى الوزارة الذى بات يحلم به .. لما رأيته كذلك قلت له وأنا أخفض صوته .. فقد كان منأى أن لا يسمع ما أقول :

— إن الذى أريد أن أقوله .. فوق هذا كله ..

— ما هو ؟ .. وماذا تريد أن تقول ؟

— إنك متهم بجرمة قتل ..

فاربدت سحنة الرجل على الفور .. وقال :

— إنك تهلى ..

— ليتنى كنت كذلك ..

فانقبضت قسمات وجهه .. وهو يقول ثانية :

— قلت لك إنك تهلى ..

فاخنتى صوته حتى كدت لا أستطيع التنفس .. وأنا أقول :

— من المؤسف أننى مازلت مهالكا لكل قوى ..

فلوى صوته كالرعد هذه المرة ..

— كيف تجرؤ على أن توجه إلى أليك مثل هذه التهمة ؟
 — لست أنا الذى يوجهها . . وإنما الذى يوجهها هو القانون . .
 فغابت التجاعيد التى على وجهه . . خلف مريحة داكثة من السواد . .
 وقال وكأنه هو الذى يهذى حقيقة :
 — إننى ألقى بك من هذه الشرفة . .
 وأخرج المسدس من جيبه سريعاً وهو يستطرد :
 — أو أفرغ هذه الرصاصات فى صدرك . . قبل أن أسمع منك
 هذا القول عن أليك .
 فنظرت إلى المسدس الذى فى يده . . وتذكرت المسدس الآخر الذى
 أحفظ به . . وقلت وأنا أتلقى من الألم :
 — إنه من السهل عليك أن تفعل ذلك إن أردت . . أن تلقى بى من
 الشرفة . . أو تفرغ رصاصات هذا المسدس فى رأسى . . ولكن ليس
 من السهل أن يعفبك هذا من تهمة القتل . .
 — أى تهمة يا مجنون ؟
 — تهمة قتل الخفى عليها زينب عبد العال الشوباشى . . .
 — إننى لا أعرف واحدة بهذا الاسم . .
 فنظرت إليه فى دهشة غريبة . . دهشة امتزجت فى نفسى بفرحة
 زائلة حتى إننى وددت لو أنه يعيد على مسامعى هذا القول مرة أخرى .
 كما أحسست بشيء آخر . . وددت لو يدوم إحساسى به وهو أن بى

رغبة أكيدة لتصديق هذا القول .. ولماذا لا أصدقه .. ولماذا لم يكن حقيقة ١٩ .. ولماذا لم يكن أبى صادقاً فيما يقول ٩٩ .. ويكون هو المفترى عليه .. وأنا الذى يفترى ... حقيقة إن عهد المعجزات قد انقضى .. وإن طاقة فى السماء لن تفتح مرة أخرى .. ويتسلل منها نور يضيء الكون أو ظلام يعتم الدنيا .. أو يخرج منها للناس رسول يهdy إلى الحق أو نبى ينصف الناس .. حقيقة إن هذا كله قد انقضى ولن يرجع إلى أن تقوم القيامة ويخلق الله الناس خلقاً جديداً .. ولكن لماذا هذا القطع .. لماذا نحن البشر نقطع بذلك .. أليس هذا فيه ما فيه من جحود .. أليست اليد التى خلقت كل هذه المعجزات من أجل هئاة البشر قادرة على أن تجنب فئة أخرى من الناس هذا الشقاء الكبير الذى يعيشون فيه .. حتى لو تطلب هذا خلق معجزة جديدة ... رباه .. إنه شقاء كبير فعلاً ... وأى شقاء يكون هذا الذى يتعذب به ولد من أجل والده ١٩

ووضعت آمالى جميعاً فى هذه المعجزة .. التى سوف تبعد ذلك الرجل عن أبى وتبعد أبى عن ذلك الرجل .. وتستبدل قتيلة بأخرى لا يعرف أبى عنها شيئاً ولم يسمع باسمها من قبل كما قال لى الآن.. رباه ! اللهم اجعل قول أبى هو الصديق .. فليس سوى هذا يطفى هذه النار التى تحرقنى ... رباه ، إنك أعلم بحرقه النار لأنك أعلم بقلبى الذى يتمزق ! تعلقت بأذيال هذا كله سريعاً .. ودعوت الله من أجل أبى .. ثم

قلت وأنا أنظر إلى وجهه الذى تغيب ملامحه أمام عيني فى أفق مظلم
حالك السواد :

— ولكن ماجاء فى التحقيقات يثبت أنك تعرفها .. ويؤكد أنك
قتلتها .

— قتلت من ؟ !

فقلت مرة ثانية :

— المحبى عليها زينب عبد العال الشوباشى ..

— ومن الذى يثبت ذلك ؟ !

فأشفت عليه من الإجابة .. وصمت .. ولم أنطق .. فقال وهو
يدق الأرض بقدميه .. كما يدقها تماماً الثور الهائج .. وقال :

— أكمل هذيانك وقل .. ما الذى يثبت ذلك ؟

— أشياء كثيرة جداً .. الراقصة زينات شوقى التى شاهدتك تخرج
من مخدع المحبى عليها قبل الحادث بأيام .. تعرفها عليك عندما
شاهدتك بعد الحادث .. وصفها ..

فقاطعتنى وكأنه يبعد شيئاً عن أذنيه :

— لإننى لا أسألك عن الراقصة زينات شوقى .. وإنما أسألك عن

جريمة القتل .. ما دليلك عليها ؟ ..

— البصمات التى تركها الجانى والتى اتضح أنها بصماتك أنت

بالذات ..

— ولكن أحداً لم يأخذ بصماني .. حتى يتحقق هذا ..

فلم أصغ إلى هذا القول .. واستطردت :

— والمسدس الذى استعمل فى الجريمة .. واتضح أنه مسدس أنت .. ماركة براونج عيار ٧ والرصاصات الثلاث التى أطلقت منه على رأس الهنقى عليها فأردتها قتيلاً للحظتها ..

— ولكن مسدسى فى جيبى لم يأخذه منى أحد حتى يعرف ذلك .. قال هذا وأخرج المسدس من جيبه .. ولكنه ما كاه ينظر إليه حتى جمحت عيناه جحوظاً غريباً خيفاً وقال وهو ينهار أمامى فوق أحد المقاعد ويجهش باكياً كطفل ..

— كيف سولت لك نفسك أن تفعل هذا ؟

فأغمضت عيني .. لأننى لم أجرؤ على أن أرى الدموع تنهمر من عينيه .. ولما كرر على السؤال اضطرت إلى أن أرى له الحقيقة كاملة .. وهى أننى فعلت ذلك اضطراراً بعد أن عجزت عن احتمال ذلك الشك القاتل الذى كان يفرس أنيابه البسامة فى صدرى .. وكانت كل آمالى أن أثبت لنفسي سوء الظن وأن أقطع لها براءة أبى .

فظل يبكى .. ولما نزف الكثير من الدموع تتم وهو يتلوى وكأنه جواد جريح مضروب على أم رأسه :

— وبعد أن عرفت ؟

— أسألك لماذا قتلت ؟

- وهل يعنى هذا من الجريمة ؟
 — قد يخفف هذا من الجرم .
 — إننى أسألك . . هل يعنى هذا من الجريمة ؟
 — لا . .
 — ولو اعترفت بالجرم ؟
 — ولو اعترفت بالجرم . .
 — ولو كانت الدوافع قاسية ؟
 — ولو كانت الدوافع قاسية .
 فيكى ثانية . . وصمت مرة أخرى . . ثم استعرد وهو يخفف دموعه :
 — وليو أن الذى قتل أب . . من أجل ابنه ؟
 فجحظت عيناي . . ونظرت إليه . . وقلت مشدوهاً :
 — أى . . . أب وأى ابن ؟
 — ألم تسألنى لماذا قتلت ؟ إننى قتلت . . . من أجلك أنت يا بنى ..
 — من أجل أنا ؟
 فلم ينطق . . وظللت أنظر إليه جاحظ العينين . . ومرة فترة صمت
 لا أدرى حتى الآن كيف مرت ولكن الذى أدرى أنها طال إلى حد
 كبير . . كبير جداً . . وظللنا كذلك أنا وهو إلى أن نهض متهاكاً على
 نفسه . . وجلس يجوارى . . ومن ثم أمسك يدي التى كانت ترتعش
 وهتز بين يديه وإلى كانت تزداد ارتعاشاً كلما تساقطت عليها نقاط

الدموع التي كانت تتساقط من عينيه كنقاط من نار .. والتي ظلت تتساقط طوال هذا الحديث المفزع الذي كنت أستمع إليه .. قال أبي وهو يرحلني أن أصغى إليه جيداً .. وهل كنت أملك غير أن أصغى إليه جيداً :

— تعرفت على المحنى عليها منذ ثلاثين عاماً أو يزيد .. وكنت إذ ذاك لا أزال في ريعان الشباب .. وكنت فقيراً معدماً لا أملك سوى راتبى الذى كان فى ذلك الحين لا يتجاوز الخمسة جنيهات وكانت هى كل أجرى الذى أتقاضاه عن عملى كناظر للزراعة فى أحد تقائش جلدك لأملك هذه .. وكان هذا لا يرضى طموحى وأطماعى التى كانت عريضة واسعة لا يعرف لها حدود .. وكان هذا يقض مضجعى ويؤرق عينى فى الليل وفى النهار أيضاً .. ولذلك كانت عيونى دائماً مشبوبة بأفاق عليا .. أفاق مليئة بكل شهوات النفس التى كنت أحلم بها .. من مجد وجاه ومال وثناء .. ومن يكن كذلك لا يغمض له طرف .. لأنه يكون دائماً أشبه بالصائد الذى يتتبع القنينة بعين يقظة .. وإلا غيبته عنه فى الأرض .. أو غابت عن عينيه فى السماء .. إن (الفرصة) كالعقاب الذى لا يخلق إلا عالياً جداً لكى يتغلر عليك رؤيته ولذلك فهو لا يقع عليك أبداً .. وإنما عليك أنت أن توقعه .. ولكى تتمكن من ذلك يتحتم عليك أن تكون صياداً ناهراً تحرق فنون الرماية ويجيد إصابة الهدف .. ومن سوء الحظ أنه كانت عندى هذه القدرة .

أعرف أن هذا سوف يؤلك يابنى .. ولكنى الآن أعترف ..
والاعتراف لا يكون مطهرًا للنفس إلا إذا نبع من ذات النفس التي
تعترف بأثامها .. عند ذلك يكون الاعتراف صادقاً .. والصدق حسنة
.. حسنة قد لا تكون بذات بال عند ابن .. ولكنها عند قاض شريف
شيء له قيمته ..

قال ذلك وصمت لحظات .. جفف خلالها بعض الدموع ..
ثم استطرد في هدوء .. وفي وضوح أيضاً .. وقال :

— وذات يوم واثت الفرصة .. وكانت مغرية بحيث انشبكة عيني
فيها على الفور وتعلقت بها ، حتى في لحظات الغمض كانت عيني أشد
تعلقاً بها .. كما لو كانت في الحلم أكثر منها لغراء في الحقيقة ..
وهكذا دائماً يكون الشيء الثمين .. تفكر فيه وهو في يدك كما تفكر
فيه وهو في قاع البحر .. إنه في يدك تخاف عليه .. وفي قاع البحر
تبحث عنه .. ومن الغريب أن أملك في الحصول عليه لا يقل عن أملك
في الاحتفاظ به .. حتى الفرصة ذاتها أمل .. ولذلك عندما جاءت
كانت هي أملى .. التي عشت عليه حياتي كلها .. هذا إذا افترضنا
أنه كانت لي حياة في ذلك الحين ..

كانت أرض هذه السيدة — زينب عبد العال الشوباشي — تقع
بجوار التفيش الكبير الذي كنت أدير أعماله .. والذي أصبح فيما بعد
ملكاً لي كما هو اليوم .. وكان موقع هذه الأرض غريباً .. وقد اتخذت

من غرابته هذه وسيلة لأول حجر ألقيت به فوق الشجرة لكى يطير
العصفور وأخرجه من عشه حتى أراه ، وأصوب له البندقية ..
كانت هذه الأرض التى تملكها هذه السيدة .. وتزيد مساحتها على الخمسين
فداناً .. تقع بين فكى تفتيشنا الكبير .. كانت أشبه ما تكون باللسان ..
وأرض هذا التفتيش الواسعة هى فكاه .. وكانت هذه السيدة قد مات
عنها زوجها وهى فى العشرين من عمرها .. فترملت عليه برغم هذه السن ..
وبرغم جمالها الذى كان يضرب به المثل بين النساء والرجال معاً .. فقد
كانت جميلة جمالا ليس من سبيل إلى وصفه .. كما كانت أيضاً
طيبة العنصر .. دمثة الخلق .. متدينة إلى حد كبير .. وقد قنعت من
الغنيمة بالإياب .. فلم تشأ أن تتزوج ثانية .. ولم تفكر فى ذلك .. أو
حتى تدخله فى حسابها .. ولكن هذا لم يمنع من التفكير فى الزواج
منها .. ومن تنفيذ رغبتي مهما أصرت هى على الرفض .. ذلك لأننى
إن فعلت وأمسكت بهذا الشيء الثمين فى يلى فسوف أربح أرباحاً
طائلة .. سوف أربح جمالا .. وأربح أخلاقاً .. وأربح عنصراً
كرماً .. ونفساً طيبة .. وقلباً طاهراً .. وأربح كذلك مالا ..
حقيقة إن المال عندى كان هو الريح الحقيقى الذى أطمع فيه وتصبو
إليه نفسى .. وخسون فداناً ليست بالريح القليل .. وهذه بالذات
سوف تكون أكثر ربحاً إذا ما جعلتها هذه الصفات الأخرى .. ولكن
السبيل إلى ذلك كان صعباً وطويلاً .. كان كالطريق الطويل فى

الصحراء القاحلة ليس فيه سوى الرمال الى تحرق قدميك .. ومع ذلك
عرفت كيف أقطعه .. دون أن تتعثر قدمي ...

أعلنت عليها الحرب في الخفاء .. وأعلنتها حرباً لا هوادة فيها ..
اتخذت من طبيعة الوضع الجغرافي للأرض التي تملكها هذه السيدة ساحة
لهذه الحرب التي أعلنتها .

فهي إن طلبت الماء منعتة عنها .. وهي إن استكفت منه أغرقها به ..
وإن هي زرعت شيئاً زرعت أنا غيره .. وهي إن تصادف وانطلقت دابة
من أرضها وخطت حتى مجرد الشبر فوق أرضنا ، أطلقت أنا دواب
التفتيش جميعاً وماشيته تلوس أرضها .. ومع أن هذا فيه ما في من
ظلم وافتئات على الحقوقي وعدم مراعاة للحفاظ بالبحار .. إلا أنه كان
السيبل الوحيد لمزيمتها ، وليس من سيبل سواه .

وهكذا ظلت هذه الحرب قائمة بيننا ثلاث سنوات .. ثلاث
سنوات كاملة .. ثم انتهت آخر الأمر باتفاقنا .. اتفقنا على كل
شيء .. على الحب وعلى الإخلاص وعلى الوفاء .. ثم أخيراً على الزواج
الذي سوف نتوج به هذا كله آخر الأمر .. وأشهد بأنني كنت مخلصاً
في ذلك الإخلاص كله .. وكنت محباً لها أيضاً الحب كله .. مما جعلها
ترك زمام أمورها جميعاً إلى .. حتى زمام نفسها .. شخصيتها ..
ذاتها .. حياتها .. كل ذلك أتصرف فيه كما أريد .. وكما أشاء ..
وتشاء رغباتي جميعاً .. حتى تلك التي تعيش منها في الخفاء .. وفي

ذات كل إنسان .. وترسب في باطنه .. ولا نفطن إليها إلا في ظروف معينة .. وحين تتحرك من تلقاء نفسها وتنمطى كما تنمطى الأفعى الملتفة حول نفسها في قلب العشب .. حتى هذه الرغبات أسلمت لى قيادها أيضاً .. وتركتنى أحققها على الوجه الذى أريد .. وأشهد أن هذا كان فيه سعادتها .. لأنها وجدت فيه سعادتى .

وهكذا عشنا زمناً كما يعيش العشاق تماماً لا عمل لهم إلا البحث عما ينمى سعادتهم ويزيد من الهناءة التى هم فيها .. وعشنا أيضاً كزوجين لا ينقصهما غير التوقيع على ذلك الصك الذى نعلن به على رؤوس الأشهاد زواجنا .. ولكننا لم نفعل ذلك .. أو حتى نفكر فيه .. ولم يكن هذا لسبب من الأسباب ولكن لأن تيار سعادتنا كان جارفاً بحيث أبعدنا عن الناس بدرجة أننا نسيناهم ولم نذكرهم إلا عندما جدت بعض الظروف التى أرغمتنا على ذلك ، وكثيراً ما تأتى بعض الظروف التى لم تكن فى الحسبان فزغملك على تنفيذ ما كنت أهملت تنفيذه .. أو هى تذكرك به على الأقل .. فقد جاءنى زينب ذات يوم وأخبرتني بأنها حامل .. ولا بد لنا من أن نعقد العقد حتى لا يفتضح أمرنا .. ورحبت بهذا ترحيباً كبيراً لأننى كنت خالصة النية - فى كل ما اتفقت معها عليه - واتفقت معها فعلاً على اليوم الذى سنتزوج فيه وحددناه .. غير أنه حدث فجأة حادث غريب لم نكن لنتنظر حدوثه .. وهو موت جدك الباشا لأملك هذه .. وكان رجلاً محبوباً منا جميعاً .. ومنى أنا

بالذات . فقد كان رحمه الله يحبنى ويعطف علىّ ويقربنى منه ويعتبنى كشخصه تماماً بدليل أنه كان يطلق يدي في كل شؤونه جميعاً .. في هذه الأموال الطائلة . . والتفتيش الكبيرة التي تريد مساحتها على الأربعة الآلاف من الأفدنة .. كان كل ذلك زمامه في يدي أتصرف فيه كما أريد .. ويعلم الله أنني كنت حقيقة جديراً بهذه الثقة . . مخلصاً لهذا الرجل الذي لم ينجب غير ابنة واحدة قدر لها منذ طفولتها أن تصاب بمرض في ساقها كثيراً ما كان يقعد بها عن السير . . وأخفى بها والدتك هذه .

وكان لوفاة هذا الرجل الطيب وقعه السيئ على نفوسنا جميعاً ولا سيما على نفسي أنا بالذات ولذلك كان من غير المعقول أن أتزوج عقب وفاته مباشرة . . وهذه تقاليد لها في الأرياف اعتبارها الكبير . . وأحسست أنني لو فعلت ذلك وتزوجت زينب في ذلك الحين برغم هذه الظروف القاهرة التي كانت تدفعني إلى ذلك فسوف أفقد احترام الناس جميعاً ، - وعلى رأسهم - جدتك التي حزنت حزناً شديداً على وفاة زوجها ، وربما أثر هذا علىّ كشرف على هذه الأعمال جميعاً ، وباعتبارها هي صاحبة هذه الأملاك بعد وفاة زوجها أردت أن أكون عند حسن ظنها .

وقد تقول لماذا لم أتزوج زينب في الخفاء . . طالما أنه قد حدث ما حدث . . ثم أعلن عن زواجنا في الوقت المناسب . . وقد فكرت في ذلك فعلاً . . وفكرت فيه جديداً .. فاتضح لي كما اتضح لزينب أيضاً أن مثل هذا الزواج وفي الأرياف بالذات سبة تظل عالقة بالزوجين إلى

الأبد .. وتزول الدنيا ويفنى العالم ولا تزول الأبدى أو تفنى الحجارة التى يرى بها مثل هذا الزواج .. وأنا أريد أن أكون زوجاً شريفاً فى نظر الناس طالما أنا كذلك فعلا فى نظر نفسى أو على الأقل كنت أظن أننى كذلك .

لهذا اتجه تفكيرى إلى وسيلة أخرى ووافقتنى عليها زينب عن طيب خاطر .. ورحبت بها ترحيباً كبيراً .. وهى أن أسافر معها سراً إلى القاهرة وهناك بواسطة أحد الأطباء نزيل هذه العقبة التى ترغمننا لإرغاماً على أن نسرع بالزواج حتى إذا ما انتهت هذه الظروف القاسية ومرت أيام الحداد التى يمتد طولها فى الريف إلى ما يزيد على العام أتممنا العقد وتزوجنا علانية وأعلنناه على رؤوس الأشهاد .

وصبت أبى الحظائب .. كانت برغم قصرها طويلة ممضبة فى الطول والقل .. ثم استطرد حديثه بعد أن جفف دموعه الغزيرة التى كانت تحرق عينيه .. قال :

— غير أننا عندما ذهبنا إلى الطبيب وعرضت زينب نفسها عليه وفحصها فحصاً دقيقاً اتضح أن أى إجراء يعمل لإزالة هذه العقبة فيه خطر كبير على حياتها، ولم يكن هو وحده الذى قرر هذا ، وإنما قال به كل الأطباء الذين عرضتها عليهم .. وقد أثر هذا فى حالتها النفسية فرضت مرضاً خطيراً وأصبحت بتفخيم فى الكبد ... وهبوط شديد فى القلب مما استدعى ملازمتها للفراش عدة شهور ، وقد اضطرها هذا إلى

أن تخفى عن الناس ، فاستأجرت لها مسكناً في القاهرة ظلت فيه طوال شهور المرض . . . ولما تماثلت للشفاء كانت شهور الحمل قد أوشكت أن تنتهى . . . وبدأت آلام الوضع تتأبها وكانت تعيش بمفردها وليس معها في البيت أحد . . . وكنا حريصين على ذلك حتى لا يقف الناس على سرنا . . . لذلك نقلتها إلى المستشفى لتلد هناك ولتكون تحت الرعاية الكافية . . . فأدخلتها مستشفى (فؤاد الأول) للولادة وأنزلتها باسمى — أى أنها زوجة لى — ولم أجد أية غضاضة في ذلك فقد كانت زوجتى فعلاً أمام الله وعماً قريب سوف تصبح زوجتى أمام الناس .

وكانت دموع أبى طوال هذا الحديث لا تنقطع . . . وكان لا يصمت إلا ريثما يجفها فقط . . . ولست أدري لماذا كانت هذه اللحظات القصار التى كان يصمت فيها أبى ليحفف دموعه تأثير الرعب في قلبي . . . لقد كنت أنظر إليه وهو يتحدث وأنظر إلى شفتيه وهى تتحرك وتهم بالكلام كما أنظر تماماً إلى شفتي قاض تعلق مصير حياتى بكلمة سوف تصلر من هذه الشفاء .

واستطرد أبى بعد صمت قصير ، قال :

— وكنت وهى في المستشفى تنتظر الوضع أتردد عليها بين الحين والحين . . . كنت أجيء إليها من الريف في أول النهار ثم أعود في آخره . . . أو أسرق نفسى في الليل وأذهب إليها ثم أعود إلى عملى في الصباح . . . وكنت في كل مرة أجيء فيها إلى القاهرة أدعى بأننى إنما أجيء بسبب أعمال تتعلق

بالتفتيش أو التفاتيش التي أصبحت أدير أعمالها جميعاً بعد أن مات صاحبها . . وذات يوم كنت في القاهرة . . فاستدعنى « أنجه هانم » صاحبة هذا الثراء كله والتي شاء القدر فيما بعد أن تكون هى جدتك لأمنك هذه . . أقول استدعنى إلى القصر وهناك فاجأتنى مفاجأة مذهلة . . مفاجأة لم تكن فى يوم لتخطر لى على بال . . قالت لى إنها بما سوف تطلب منى تنفيذه إنما تنفذ وصية زوجها الباشا رحمه الله وتحقق له رغبة تمنى لو تحققت قبل موته كما أنها هى أيضاً تود أن تحققها قبل أن تموت حتى تموت مرتاحة البال .

قالت لى إنها تعيش الآن فى أيام حياتها الأخيرة وإنها لن تترك لها وريثاً غير ابنتها هذه التى قدر لها أن تعيش حياتها هكذا مريضة بساقها . . وإنها إن ماتت وتركتها دون أن تتزوج فسوف لا يتزوجها إلا طامع فى مالها فقط . . وهذا سوف يسبب لها كآم الكثير من القلق حتى بعد الموت . . ولأنها - أى الأم - تعتبرنى خير من يصلح للزواج منها لأننى خير من يحفظ لها مالها ويحفظ لها أيضاً كرامتها كزوجة ثرية ولكنها مريضة . . لذلك فهى تعرض على الزواج منها طالما أنها تثق فى كل هذه الثقة . . وطالما أئنى غير طامع فى مال . . أو ثراء . . أو جاه يا للعجب !

قالت لى « أنجه هانم » هذا القول . . فندارت بى الأرض وحشت لحظات فى دوامة هذا الحلم الكبير . . الذى كان أشبه بطاقة من السماء

انفتحت لى أنا وحدى دون سائر البشر جميعاً . . لقد كان كل مناى وكل ما كنت أطمع فيه من دنياى . . وتصبو إليه نفسى هو أن أتزوج زينب عبد العال الشوباشى لأمتلك هذه الأفدنة التى لا تزيد على الخمسين . . وأصبح من أصحاب الثراء . . وأحقق حلمى العريض الذى كنت أحلم به . . فما بالك إذا تزوجت « منيرة هانم » وأصبحت أنا المالك الوحيد لهذه الأربعة الآلاف فدان غير كل هذه الأملاك والعقارات الأخرى التى تملكها الآن . . مرة أخرى . . ياللعجب ! . . .

قلت لك إن الحلم كان كبيراً بحيث جرفتنى دوامته . . ولم أفق منه إلا وأنا الزوج الشرعى . . . لهذه السيدة التى شاء القدر أن تكون هى أملك أنت يا بنى .

فهضت وأنا أكاد أصرخ :

— وزينب التى فى المستشفى تضع غلاماً منك ؟

فقال :

— لم أجزؤ على أن أذهب إليها ثانية . . أو حتى أراها رؤية العين . . وإلا فكيف كنت سألتقى بها وكيف كنت سأراها . . وماذا كنت سأقول لها ؟ . .

وصمت لحظات أخرى نظر فيها طويلاً إلى أصابع يديه وهى ترتعش . . ثم قال :

— كل الذى فعلته أننى كتبت لها خطاباً وبعثت به إليها فى

المستشفى .. وقلت لها فيه : إننا أردنا شيئاً .. وأراد القلدر غيره ،
وسألت لها الله أن يمد لها يد العون وأن يخرجها من هذه الأزمة فهي
لا تستحق أبداً كل هذا الشر الذى أوقعها أنا فيه بحسن نية ..

— وهل هذا يكفى ؟

— هذا ما حدث ..

— وماذا فعلت ؟

فأنخفض صوته كثيراً وهو يتحدث ويلقى بوجهه إلى الأرض :
— أشهد بأن الصدمة كانت بالنسبة إليها قاسية لا أعرف حتى
الآن كيف احتملتها .. كانت تماماً أشبه بمن وقع فى الفخ وأطبقت
عليه أسنانه من كل بجانب بحيث إنه لا يستطيع حتى أن يصرخ ...
فهى لا تستطيع أن تطالبني علانية بشيء وسيف هذه الخطيئة مسلط
على رقبتيها . ومثل هذا الجرم قد يغتفر .. يستطيع أن يغتفره حتى الإله
نفسه .. ولكنه فى الريف حيث تعيش هذه السيدة وحيث عاشت كل
هذا العمر تتمتع بالسمعة الحسنة والخلق الطيب .. أقول إنه عندنا فى
الريف ذنب لا يغتفر ذنب دونه القتل .. أو الرجم .. أو
الحرق علانية فى رائعة النهار .. ولذلك فهى لم تستطع أن تبوح بشيء
أو تطالبني بشيء علانية أو حتى فى السر .. كل الذى فعلته أنها بعد
أن وضعت وخربت من المستشفى لم تملك إلا أن تتخلص من هذا العار
بأن تلقى بالطفلة التى ولدتها سرّاً فى الطريق .

فقلت صارخاً .. وكأن شيئاً فى قلبى يتمزق :

— إذن هذه الطفلة هى

فقاطعت أبى على الفور واللموع تغمر وجهه وكل شىء فيه هذه

المرّة يرتعش :

— أربجوك ... دعنى أعترف .. دعنى أطفئ هذه النار التى

تحرقنى .. لقد عرفت الآن حقيقة لماذا يذهب الناس ويعترفون بخطاياهم

من طيب خاطر ..

ولما بكى كثيراً هذه المرّة قال :

— أجل يا بنى .. إن هذه الطفلة باللذات هى التى شاء لها القدر

أن تكون أختك غير الشرعية ..

فصرخت مرّة أخرى :

— زينات .. أختى ؟

— ومن ذات الصלב الذى نجث منه أنت .. علم الله ..

— اسكت .. اسكت .. لا أستطيع أن أسمع .. لا أستطيع

أن أسمع ..

هتفت بذلك مرات فى وجهه ثم انخرطت أنا فى بكاء طويل ..

وظل هو يتحدث : قال .

— كانت عاطفة الأمومة عندها أقوى من أن تجعلها تنظف ثوبها

نهائياً من دم هذه الفتاة ... كما كانت تماماً عاطفة الأبوة عندى أقوى

من أن تجعلنى أسكت على سوء يمسك .. حقيقة إننا أحياناً نقتل أولادنا
 بأيدينا ولكننا لا نفعل ذلك إلا إذا قتلنا أنفسنا أولاً .. إننا حينما نقتل
 أنفسنا وتموت حواسنا وتتجمد مشاعرنا ويحف الدم الذى يجري فى عروقنا
 نهائياً .. عند ذلك فقط نستطيع أن نمد أيدينا ونحنق أنفاس من نحب .
 ولذلك بعد أن ألقت بالطفلة فى الطريق تتبعها خلصة حتى رأت
 اليد التى بعثها الله وجعلها تمتد إلى هذه الطفلة البريئة وهى قطعة من
 اللحم ملقاة فى الأرض .. إننى لا أعرف حتى الآن لماذا يد الله
 التى تمتد بكل هذا الخير والحب والعطف والإشفاق على الناس ... هذه
 اليد التى تصجر الماء من قلب الحجر الصلب لتروى غلة الصادى وتثبت
 الزرع فى الأرض الصماء ليأكل الجائع .. لماذا هى أيضاً لا تمتد إلى
 أنفاس هؤلاء الذين يتعذبون كل هذا العذاب فتريحهم من هذا الشقاء ..
 إننى لا أدري لماذا وجد الموت إن لم نكن هذه هى إحدى حسناته ..
 لماذا لم أمت ؟ ..

واستطرد أبى وهو يبكى بحرقة هذه المرة وكأنه يبكى لأنه لم يمت ..

وقال :

— ثم لما عرفت الأم المكان الذى استقرت فيه ابنتها .. ذهبت إليها
 فى اليوم التالى ، وأوصت التى تكفلت بها خيراً .. وأعطتها المال ..
 وظلت تنفق عليها بعد ذلك إلى أن حدثت كل هذه الأحداث التى
 شاء القدر أن يطلعك أنت عليها وتعرضها أمامك واضحة جلية فى

التحقيق .. أما الذى لم يتوضح إليك حتى الآن فهو أسباب هذه الجريمة والدوافع التى دفعت إليها .. وإليك هذه الحلقة المفقودة .. إليك هذا السر الذى ظل مستراً كل هذا الزمن .. وإليك كذلك هذه الخيوط الدقيقة التى سوف تجعلك تربط بين الخيوط جميعاً وتوضح لك حقيقة الوالد الذى قتل من أجل ولده .. وحقيقة الأم التى قتلت من أجل ابنتها ..

واستطرد أبى فى شجاعة هذه المرة فقال :

— لقد اتضح لى أن نعمة النسيان التى وهبها الله للناس لتسيهم أحزانهم لم تكن قادرة على أن تسيهم الأحزان الكبيرة .

وأن هذه السر السميكة — السوداء أو البيضاء — التى يسد لها النسيان على أحزاننا إنما تبلى أحياناً بمرور الزمن ، وتتهراً بمضى الأيام . وأنها إن بليت أو تهراً نسجها انتكست أحزاننا وعادت إلينا بجراحها أعمق غوراً وأكثر ألماً وأصنف ناراً من لحظات الجراح نفسها .. بدليل أن الأم عندما افصدت الطفلة بعد أن تزوجت نظيرة محمد البسيونى وانتقلت إلى الصعيد مع زوجها وتركت الطفلة ضالة فى الطريق .. ظنت الأم بعد زمن وحيز أنها قد نسيت الطفلة نهائياً ، وإن ظلت تذكرها بعد ذلك ، فلأنما من أجل الذكرى فقط .. كما نذكر موتانا أحياناً ونترحم عليهم بين الحين والآخر ... ولكنها لم تكن لتظن أو يدور بخلدّها فى يوم ما أنها تعيش على هذه الذكرى كل هذه السنوات الطويلة

التي افقدتها فيها، وأن هذه الذكرى هي التي كانت تقيم أود الأم لتميش وتلتقي بابنتها .. وليس أدل على ذلك من الفرحة التي فرحتها الأم لحظة أن علمت بأن ابنتها لا تزال على قيد الحياة وأنها سوف تراها وتلتقي بها .. وليس أدل على ذلك أيضاً من ذلك العذاب الذي تعلبته الأم عندما عثرت على ابنتها ورأتها ورأت ذلك المنحدر الذي انحدرت إليه وجلست تنظر إليها في « الصالة » وهي ترقص .. وترى مئات العيون التي تنهات عليها كالنمل .. وتلف وتدور حول ما تبدى عارياً من جسدها وتتحمسه بهذه النظرات النهمة حتى إذا ما وجدت ملمساً غرزت أيابها فيه ونقشت سمومها .. عند ذلك أحست الأم بأنها هي التي تقف عارية وسط هذه العيون .. وأن هذه النظرات النهمة إنما تحترم جسدها هي وليس جسدها هذه الفتاة التي ترقص أمامها .. فأصابها لوعة وانتابها سعار مجنون جعلها تركب عقلها وتفقد صوابها وتضع الأمور جميعاً في كفة .. والظروف والملايسات والأوضاع الاجتماعية وغير الاجتماعية وسمعة الناس وأقدارها وما يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يحدث وتقويض بيت وهدم أسرة وموت رجل وانتحار غيره .. كل ذلك جميعه وضعته في كفة .. وأن أعترف ببذرة هذه الراقصة في كفة أخرى .

وبدأ أصابعه بحكم العادة ليجفف دموعه .. ولكنها كانت قد فاضت .. ولما لم يجد غير قلة من نقاط حمراء بلون الدم .. وأصل حديثه وهو ينظر إلى أصابعه التي ترتعش :

— أنا أعرف جيداً أنها ابنتى .. وأعرف أننى المتسبب الأول فى هذا الجرم الذى وقع .. وأعرف كذلك أن ضميرى يحاسبنى حساباً عسيراً وكان يثوق عينى ويقض مضجعى وكثيراً ما كان يضغط على قلبى بعنف حتى ليكاد يسحقه .. وكان هذا يسبب لى آلاماً كثيرة لا يعرفها إلا ضمير الأب فقط .. ولكن هذا الضمير نفسه .. هذا الضمير ذاته .. كان أيضاً يحاسبنى على أشياء أخرى .. لعلها كانت عنده أكثر أهمية وهى كذلك فعلاً .. ذلك لأن الشقاء بها فى هذه المرة لن يكون وقفاً على وحدى وإنما هو أيضاً على غيرى من الناس .. لأنه حاسبنى فعلاً على هذا الشقاء الذى سببته لابنتى .. وهو اليوم يريد أن يحاسبنى على هذا الشقاء الكبير الذى أريد أن أسببه لابنى .

إن الذى حدث يختلف تماماً عن الذى يحدث .. إن الذى حدث يكون كالיום الذى مر .. ليس من سبيل إلى إرجاعه .. أو إصلاح الخطأ الزمنى الذى وقع فيه .. أما الذى سيحدث فيكون كالغد .. يتحتم علينا أن نعمل له حساباً .. وإلا تورطنا فى الخطأ نفسه الذى تورطنا فيه بالأمس .. إن هذه الفتاة قد قدر لها أن تعيش كما عاشت وتنشأ كما نشأت وتفتتح بأن هذه المرأة التى تبناها هى أمها ... وترضى بما قسم لها من حظ .. أو تسخط عليه .. على حد سواء .. إن الحظ قد تحدد بدليل أنه حدث .. إنها بذلك قد قطعت الشوط على أى حال .

وجفف أبى دموعه .. وقال :

— إن الذى يرى الموت غير الذى يسمع عنه.. وأنا قد رأيته ..
 عشت فيه .. تعذبت به .. كنت أشعر بأن الذى يموت هو « أنا »
 وليست هذه الطفلة .. وأن الذى يتعذب هو « أنا » وليست هذه
 الابنة .. فكيف أستطيع أن أجربه مرة أخرى .. وعلى صورة أبشع ..
 كيف أقوى على أن أتركك تبدأ الشوط .. وقد رأيت بعينى هاتين
 الجراح التى أثخنت قدمى .. كيف أجعلك تمسى وتصبح فإذا بأخت
 لك تعمل راقصة فى ملهى .. كيف أستطيع أن أغمد فى صدرك هذه
 السكين .. وهل يمرؤ أب على أن يفعل ذلك .. هل يمرؤ والد على
 أن يقتل ولده بيديه ؟ ... إبنى وإن كنت قد فعلت ذلك مرة .. فقد
 فعلته لأننى لم أكن قد عرفت حرقه النار .. لأننى لم أكن قد اكتويت
 بها .. حقيقة كنت أعرف أنها نار .. ولكن معرفتك للشئ غير
 تجربتك له .. إننا مهما شاهدنا اشعال النار .. وسمعنا دملعة جمراتها ..
 فلماذا لا نستشعر حرارة لها إلا إذا احترقنا فعلا .. وأنا قد احترقت
 فكيف كنت أستطيع أن أحترق مرة أخرى ؟ ..

قلت لها هذا كله .. وبصرتها بتناقض هذا كله .. قلت لها إن الذى
 يعيش فى الظلام هو وحده الذى يعرف نعمة النور .. وأنا وهى قد عشنا
 فيه .. أنا وهى .. قد عرفنا قيمة هذه النعمة .. فكيف نحرم غيرنا منها ..
 قلت لها إبنى أدفع لها كل ما تريد .. أدفع لها حياتى .. فقط
 ألا نحرم « ابنى » من حياته .. -

قلت لها إن مالى قسمة بين الاثنين .. ابنى .. وابنتى .. أهب لها نصف ثروتي لتبنيها بدورها إلى الفتاة .. قلت لها هذا .. وكنت من الصادقين .. ولكنها ركبت عقلها وأصرت على تنفيذ ما تريد .. على أن أعترف رسمياً بينة الفتاة .. وإلا أشهرت فى وجهى السلاح الذى تملكه .. ووضعت على رقبتي السكين التى تحفظ بها لهذا اليوم .. وكانت تملك حقيقة هذا السلاح البائر الذى تستطيع أن تقتلى به ... كانت تحتفظ بالخطاب الذى أرسلته لها .. وهى فى المستشفى .. واعترفت لها فيه بينة الطفلة .. وكانت تحفظ أيضاً بهذا التاريخ .. تاريخ اليوم الذى أدخلتها فيه المستشفى لتلد فيه .. وقيدتها فى دفاترها الرسمية بآنها زوجتى ... كانت هذه الأسلحة ماضية من غير شك .. كنت الوحيد الذى يعلم كيف أنها قاصمة للظهر ... لذلك لم أجد بداً من ... أن أفعل ما فعلت .. من أن أرتكب جريئى ... من أن أقتلها ... من أن أسفك هذه الدماء على الرغم منى ... وصمت أنا هذه المرة .. وصمت طويلاً .. ثم قلت وكأننى أناخاطب نفسى :

— ولهذا كان حرصك الشديد على أن تعرف منى أولاً بأول سير التحقيق فى هذه القضية .

— ولم أتم ليلة أن عرفت منك بأن الشبهات بدأت تتجه حول الشخص الذى انتقل إليه مفتاح هذا السر بعد مقتل الهنئ عليها .. من المؤسف

حقيقة أنه كان الوحيد الذى يعلم هذا السر .

— تعنى دسوقى ؟

— أجل . . هذا الرجل الطيب . .

— إذن أنت الذى قتل دسوقى أيضاً . .

— لأننى أردت أن ألقى بالمفتاح الذى كان فى يده إلى القاع . . كان

هذا هو الحل الوحيد . . . كان لا بد لى أن أفعل ذلك . . أن أعيد هذا

المفتاح إلى . . وإلى أنا وحدى . . لقد كان هذا السر كبيراً يابنى . .

فقلت وكأننى مرة أخرى أخطب نفسى :

— وهل فعلت ؟

— من المؤسف حقيقة أننا عندما نطمئن إلى شىء . . نكون قد

فقدناه دون أن ندرى . . إن أستار الظلام عندما تنسلل ويعلو طبقاتها

ذلك السواد الذى لا تنفذ إليه عين . . . عند ذلك فقط تشرق الشمس . .

ومن المؤسف أننى كنت أجهل ذلك . .

ولم يصمت أبى هذه المرة . . . وإنما ابتعد الصوت الذى كان

يتحدث إلى . . . وغاب عن أذنى فى مكان سحيق . . . وتلاشى كنسمة

هواء . . . ذابت فى قبض صحراء يتوهج حرها . . ففتحت عينى . . فإذا

بى وحدى أجلس فوق مقعد من المقاعد كجثة هامدة لاحتراك فيها . .

ترى هل كنت كذلك . . حتى قبل أن يبتعد هذا الصوت . . . ويغيب

عن أذنى فى صحراء كبيرة . . . صحراء واسعة . . .

مكنت بعد ذلك .. عدة أيام ... وحدى ...
 كانت الأيام التى مكنتها وحدى .. تختلف عن هذه الأيام التى
 يعيشها الناس .. ويحيها البشر .. كانت من لون آخر .. وصنف
 آخر .. وطعم آخر .. كان نهارها غير الأنهر التى نعرفها .. وليلها غير
 الليل الذى نراه .. والشمس غير الشمس .. والقمر غير القمر .. حتى
 الناس كانت هى الأخرى غير الناس ..
 هكذا عشت هذه الأيام ..

أنا لا أذكر على وجه التحديد كيف عشتها ... أو كيف
 قضيتها .. أو كيف مرت هى ؟ !
 إن كل الذى أذكره ... هو تلك الأشباح التى كنت أنا واحداً
 منها ...

كنت أرى نماذج غريبة من هذه الأشباح .. تراقص أمامى كلما
 فتحت عيني ... نماذج من الخير ... ونماذج من الشر ... ونماذج
 من الضمائر التى ماتت ... وغدت أشبه بالحدث الذى فى الرسم ...
 ونماذج أخرى من الضمائر الحية ... التى كنت أحس بها تزداد غلياناً،
 وكلما ازدادت إحساساً بالتبعة ازدادت إحساساً بالمسئولية ...

كانت هذه الإحساسات تتبلور في أشياء كثيرة . . . أشياء كانت كلها حية وأسفاه . . الصلات المتعددة التي لا يمكن تجاهلها . . صلوات الدم والرحم والحياة . . وهذا الرباط المقدس الذي يربط بين هذا جميعه . . . هذه الأم التي فعلت ما فعلت . . وأصررت على ما أصررت . . . هل هي محقة أو غير محقة ١٩

وهذا الرباط الذى يربط بين الدم والدم . . بين الرحم والرحم . . بين الأم وابنتها . .
أيمكن أن تغفله ١٩

وهل يكون في مقدورنا إغفاله إذا أردنا ١٩
وإذا نحن لم نقدر . . إذا أبجزناه . . . إذا أبجزنا لهذه الأم أن تفعل ما فعلت . . بدافع من هذا الرباط . . . بدافع الأمومة . . . فلماذا نحن لا نجيز لغيرها ذلك ١٩ إن الصلة هي نفس الصلة . . والدم هو نفس الدم . . والأرحام هي نفس الأرحام . . . والصلب هو نفس الصلب . .

فلماذا لا نجيز للأب في سبيل الدفاع عن ابنه . . ما أبجزناه للأم . . في سبيل الدفاع عن ابنتها ١٩

ولكن هل هذه هي المشكلة فقط . . . ١٩

ألا ليّتها كانت كذلك . . !

وأخففت عيني مرة أخرى .. وفصحتهما ثانية .. ولكن على جثتين
 هامدين .. واحدة هتكت الرصاصات الثلاث لفروة الرأس ..
 وحطمت الجمجمة .. ونقلت إلى المخ .. وأحدثت الوفاة في الحال ..
 وواحدة مزقت الصدر .. وكسرت العظام .. ونقلت إلى الرئتين ..
 وذبحت القلب .. وتركت الجثة مزقاً مزقاً .. وثقوباً ثقوباً .. تماماً كما
 كما يحدث البلى في الثوب ويتركه مزقاً مزقاً .. وثقوباً ثقوباً ..
 ... ورلت في أذني كلمات .. ولا أدري لماذا ارتعدت لها فرائصي
 الآن .. مع أنني عندما استمعت إليها أول مرة ... لم أعرها التفاتاً :
 « أحياناً يكون غير الواجب هو الواجب » .

يا الله ! ... أنثل هذه الروح البريئة ... هذا الضمير
 الحساس ... هذه النفس النبيلة ... يذهب دمها هنزاً ... تزهق
 روحها ظلماً ... يتقطع لحمها هكذا مزقاً مزقاً ؟
 وهذه الأم ... هذه الأم ... التي كل جريرتها أنها طالبت
 بحق ..

دافعت عن حياة ..
 تمسكت بآبنة ..
 استبانت في وجود ..
 .. تموت .. تقتل .. تسفك دماؤها ...
 أين القصاص ١٩

أين السماء ؟

أين عدالة الله ؟

أين الضمير الذى يرضى ؟

وتراقصت أمامى هذه الخيالات جميعاً .. وتراقص أيضاً غيرها

وغيرها ..

إن هؤلاء قد ماتوا ..

توارت جثثهم فى التراب ...

ولكن أولئك الذين يموتون ..

ما ذنبهم ؟

أجل .. ما ذنبهم ؟

هل تركهم .. حتى تزهق أنفاسهم أيضاً ؟

..... زينات

هل تركها هكذا تعيش هذه الحياة ؟

.. رباه .. لماذا أحببت أنا هذه الفتاة ؟

ولماذا أحببتها أنا الآن .. أكثر من ذى قبل ؟

بل لماذا أنا أحببتها - الآن - كل هذا الحب الكبير ؟

... رباه ... إننى أسألك ...

وانسابت اللموع من عيني .. ومع ذلك لم تذهب هذه الخيالات ..

ولم ينقطع هذا الحديث .. ولم تنقطع أيضاً هذه اللموع ...

... هل ستظل هذه الفتاة .. ميتة هذا الموت الديوى .. يلفها
هذا الكفن .. كفن هذه الحياة التى نجياها ؟ !

وهل سيظل المحرم .. يتمتع بكل هذا النعيم .. كل هذا الجاه ؟ !
هل سيظل الوالد ينكر ابنته ؟ !

ويظل الأخ ينكر أخته ؟ !

هل تبدلت الأرض غير الأرض .. حتى يحدث هذا ؟ !
وتبدلت السماء غير السماء ... حتى تتولد بعض الضمائر ...
هذا التبدل ؟ !

.. تموت هذا الموت ؟ !

رباه !!

ومرة أخرى .. رباه !!

لماذا خلقت مثل هذه الضمائر الميتة ... ولماذا أيضاً خلقت غيرها
حية .. تكاد تنوب من رقة حساسيتها .. ولماذا خلقتها كذلك ،
وقدرت لها أن تتورط فيما تورطت أنا فيه الآن ؟ !
رباه ... لماذا فعلت ذلك ؟ ! ..

لماذا حملتنى هذا الحمل الثقيل .. وأنت تعلم أننى بشر .. أننى
من دم ولحم ...

رباه ... لأننى لم أكن رسولا .. ولا نبياً .. وأنت تعلم ذلك جيداً.

• • •

وأغمضت عيني مرة أخرى .. وكان أملى هذه المرة .. أن يظل
 غمضهما إلى الأبد .. ولكن لم يتحقق هذا الأمل .. وأسفاه ...
 لأن تلك القوة التي تفوق قوانا كبشر جعلتني أفتحهما ثانية .. ولكن
 على وجه أبي هذه المرة ..

على وجه من أحب ..

... إنني لا أعرف .. في الثلاثين سنة التي عشتها ...

... في هذا العمر الطويل .. الذي قضية ...

لا أعرف .. أنني أحببت ذات يوم هذا الوجه .. كما أحبه الآن ..

... أنني أتعشقه ... كما أتعشقه الآن ..

أو أنني شعرت بهذه العاطفة الجميلة ... الحلوة ... الرقيقة ...

كما شعرت بها الآن ... كم أنت غالية .. أيتها البنوة ... كم أنت

عزيزة على النفس ... أيتها الأبوة ...

... أهكذا سريعاً .. يمكن الاستهانة بك .. التفريط فيك ...

القضاء عليك ...

ويبدأ من ١٩ ...

رباه ... إن القتلة .. وشاربي الدماء لا يعرّفون على ذلك ...

إن الأنبياء والرسل ... لا يقدرّون عليه ..

وأحسست أنني على استعداد لأن أفعل كل شيء .. كل شيء ..

أجل .. كل شيء .. فقط يبقى لي أبي ..

أحطم الفلسيات جميعاً ...

ولم لا ١٩ ...

أليست هذه هى فلسية أيضاً ١٩ وإن لم تكن هذه فلسية ..

فما هى الفلسيات إذن ١٩

أجل سأفعل كل شيء ..

سأرتكب أشنع الجرائم جميعاً ...

أسرق ...

أقتل ...

أسفك الدماء ...

أنهش قبور الموتى ...

فقط يبقى لى هذا الوجه الذى أحبه ...

وأحسست أننى أريد أن أراه ... أن أرى هذا الوجه .. أرى

أبى ... فقد افتقدته كل هذه الأيام التى مضت ... اليالى السوداء

التي عشتها ... الساعات الطويلة التى مرت وأنا أهتف بالغمض ...

أهتف بمن يطفى هذه النار التى فى عيني ... وكأنه هو أيضاً كان

يحسن هذا الإحساس ... ويتشوف لهذه الرغبة ... لأننا التقينا بعد

عشرة أيام ... التقينا مصادفة .. على باب القصر الذى ما زلنا نعيش

فيه معاً .

حقيقة إننا لم نتكلم .. ولم ننبس .. وإنما نظر كل منا إلى الآخر ..

وانصرف .. وكان كلاً منا يتأسف على شيء .. وكان كلاً منا يتأسف
على هذه النظرة .. التي بدت منه إلى الآخر ..

ولكني رأيته على أى حال .. رأيت أبى .. إن هذا فقط هو الذى
كنت أريده .. والغريب أنه قد أفادتني كثيراً هذه الرؤية .. أفادتني
في أشياء كنت أظن أنني لن أقدر عليها .. لقد شلت من أذى ..
وقوت من عزيمة .. لقد جعلتني أتردد في كل شيء .. إلا فيما كنت
قد عقدت العزم عليه ..

وبهذه العزيمة الصادقة .. وبهذه القوة التي تفوق قوى البشر
جميعاً .. ذهبت إلى مكنتي في هذا اليوم ..

لقد كنت أذهب إلى مكنتي .. في الأيام التي مضت .. والتردد
وخور العزيمة .. وتبليبل الخاطر وضعف الإرادة .. كل ذلك يلزم
كل خطوة أخطوها .. كل حركة تبدر مني .. كل نظرة ألقها على
شيء .. أما اليوم .. فلم أكن أثبت قدماً .. مما أنا فيه الآن ..
لماذا لا أدرى ..

كان أول شيء فعلته .. هو أنني استدعيت سكرتير التحقيق ..
وفاجأته بطلب دوسيه الجناية رقم ١١٠٧ ولما أحضره لي .. طلبت منه
أن يتركني .. أراجع هذه الصفحات مرة أخرى .. وأن لا يأذن لأحد
في الدخول علي .. ولما انصرف .. قمت إلى الباب .. وأغلقت خلفه ..
ومع أنني أغلقتة جيداً وأحكمت رتاجه أيضاً .. إلا أنني عدت إليه مرة

أخرى لكى أتأكد من ذلك .. ومن ثم تناولت هذه الأوراق وراجعتها بدقة ... راجعتها وكأننى أقرأها لأول مرة .. وكأننى لم أكن المحقق الذى حققها . ولما راجعتها صفحة صفحة .. وقرأت كلماتها كلمة كلمة .. تعجبت .. تعجبت كيف أننا أحياناً نؤمن بالباطل كل هذا الإيمان ... ومددت يدي إلى شيء .. والغريب أن أصابعي لم ترتعش هذه المرة .. وهى تمتد إليه .. كما كانت ترتعش فى كل مرة .. تمتد إليه فيها .. مددت يدي إلى ذلك الشيء الذى أحفظ به بين طيات ثيابى .. ولكن لم أكد أفعل حتى أعدته ثانية فى رعب .. وأعدته سريعاً جداً .. لقد أردت أن أتأكد مرة أخرى .. هل أغلقت الباب فعلاً .. وأغلقتة جيداً .. وأحكمت رتاجه إحكاماً دقيقاً .. يا الله ! ... إلى هذا الحد أنا أخاف على هذا الشيء ؟ ترى هل أنا أخاف منه أو أخاف عليه ؟

ولما قمت إلى الباب .. وتأكدت من أنه محكم الإغلاق .. عدت إلى ذلك الشيء الذى أحفظ به بين طيات ثيابى وأخرجت تلك المذكرات .. التى كنت أدون فيها أولاً بأول معلوماتي ... وأثبت فيها جميع الحقائق التى وصلت إليها ..

فردت صفحات هذه المذكرات جميعاً أمامي .. وبدأت أقرأ .. ولكنى توقفت .. أحسست بأن هذه المذكرات ينقصها شيء .. وأن القصة تنقصها النهاية .. ولما كنت أشعر برغبة ملحة فى القراءة ...

وكان من غير المعقول أن أقرأ شيئاً ناقصاً .. مددت يدي .. وتناولت
القلم .. وأكملت النقص ... كتبت كل الحديث الذى دار بينى وبين
أبى .. دونت كل جملة قالها ... وكل لفظ فاه به .. وكل اعتراف
صدر منه .. وحتى كل قطرة من الدموع انسكبت من عينيه ..
صورتها فى موضعها .. ووضعتها فى مكانها من الحديث ..
وبذلك تمت القصة ... واستقامت فصولا .. ورحت أقرأ شيئاً
كاملاً لا عوج فيه ولا لبس ..

• • •

قرأت هذه المذكرات مرات عديدة .. هذا هو الذى تأكدت
منه .. أما الذى لم أتأكد منه حتى الآن فهو عدد هذه المرات بالضبط ..
هل هى عشر ؟ ... هل هى مئة ؟ ... هل هى أكثر ؟ .. هل هى
أقل ؟ .. هذا هو الذى لا أذكره ..
ثم لما استوعبت سطورها جيداً ... وحفظت كل كلمة فيها عن
ظهر قلب .. طويتها لأعيدها إلى مكانها الأمين .. بين طيات ثيابى ..
ولكن هل ستظل هذه المذكرات فى هذا المكان ؟ إلى متى ؟
وهل أنا واثق من هذا المكان إلى هذا الحد .. جد أن أحفظ فيه بهذا
الشيء .. الذى هو حياتى ووجودى وديارى .. دون أن تمتد
إليه يد .. أو تراه عين ؟ ... وما دمت أنا أخاف عليه هذا الخوف ...
ومادام الشر .. فى وجوده .. والإبقاء عليه .. والنفع كل النفع

.. هو في إخفائه .. إلى الأبد .. مادام الأمر كذلك .. فلماذا
أحتفظ به .. لماذا لا أخفيه من التواجد نهائياً .. لماذا لا أجعله كذرة
من رماد .. أتركها تتطاير في الهواء .. إن الهواء هو الشيء الوحيد الذي
لا تراه عين .. ولا تمتد إليه يد ..

واستقر رأيي على أن أفعل ... و ... وفعلت .

مددت يدي إلى علبة من الثقاب كانت أمامي ...

ولكن هنا ؟ في هذه الغرفة ؟ فوق مكتبي هذا ؟ ولم لا ؟ ..
ولكن إذا اندلعت ألسنة النار وتطاير اللهب .. وتجمع الناس حول النار
وأخذوها .. قبل أن يتحول هذا الشيء إلى رماد كما أريد ... وبقيت
قصاصة .. ورقة .. أو حتى كلمة .. فماذا يكون الحال ؟ ! ...
لا .. لا .. إن هذا ليس مكان ذلك ...

... أي مكان إذن ؟ .. أي مكان غير هذا ؟ ... إذن سأظل
أحتفظ بهذا الشيء معي .. حتى أذهب إلى بيتي على الأقل .. وفي
بيتى أفعل ما أريد .. كما يفعل الإنسان في بيته ما يريد ... ورجحت
عندي هذه الفكرة .. وفكرت فيها جيداً .. ولكنني في النهاية .. لم
أستصوبها .. لقد تسلط علىّ وهم غريب .. وهم جعل فرائضي ترتعد ..
من مجرد التفكير فيه .. وهم يجعلني أفلح عن هذه الفكرة .. نهائياً ..
إذ ماذا يكون الحال لو حدث بعد أن غادرت مكتبي الآن وأنا أحمل
هذا الشيء معي ... لو حدث لي حادث ... دهمتني سيارة مثلاً

اصطدمت سيارى أنا ... فاجأتى الموت وأنا فى الطريق ... لا ... لا ... لا ... لا ...

وفكرت ثانية .. ولكنى فكرت هذه المرة .. فى الشقاء الذى يلاقيه السارق .. بعد أن يسرق ... والقاتل بعد أن يقتل ... والمحرم بعد أن يرتكب جريمته ... إن الشقاء لم يكن قط فى السكين التى تقتل بها ... وإنما هو فى السكين التى نخفيها ... وواتنى فكرة .. ولا أدري كيف وواتنى ... ولا أدري كذلك .. لماذا فرحت بها ولما ... وفقدتها على الفور ..

ومددت يدي إلى علبة الثقاب التى أمامي .. ومددت يدي أيضاً إلى هذا الشيء الذى أخاف عليه أو أخاف منه ... لا أدري ! وأمسكت بكل ذلك فى يدي جيداً ...

كانت دورة المياه .. التى نستعملها نحن الرؤساء بعيدة عن دورة المياه العامة ... كانت فى مكان منزول تماماً عن الناس .. فلماذا لا أفعل ذلك هناك .. لماذا لا أغلق هذا الباب على ... وأفعل ما أريد ... وبدل أن تتطاير تلك الذرات من الرماد التى تحلقها النار ... بدل أن تتطاير فى الهواء ... لماذا لا تغيب فى تلك البالوعة القذرة .. التى لا يغيب فيها إلا كل قدر ... وهل هناك أكثر قذارة من هذا الذى سأغيبه فيها ؟ ..

ونهبست إلى الباب وفتحته .. ومن ثم رحت أخترق ذلك الممر الطويل

الموصل إلى هناك . . . وكنت أخترقه برياطة جأش . . . وبقدم ثابتة . . .
 بجداً . . . يعلم الله . . .

* * *

. . . وفتحت الباب . . . ودخلت . . . وفتحت أيضاً عيني ونظرت . . .
 وإذا بي أرى شيئاً عجيبياً لم يكن في تصوّري أبداً أنه يحدث . . .
 أنى سأراه . . .

لقد أخطأت الباب الذى كنت أقصده . . . وقصدت باباً آخر . . .
 كيف حدث هذا . . . ؟ ؟ لا أدرى . . .
 إن كل الذى حدث . . . كل الذى أذكره . . . هو أنى رأيت
 باباً أمامى قد خلت . . .

. . . لم أفطن إلى ما حدث . . . لم أفطن . . . إلى أن هذا
 الباب الذى فتحته ودخلت . . . هو باب غرفة مكتب - رئيس
 النيابة - . . . نعم، لم أفطن إلى ذلك إلا . . . عندما رأيت نفسى أمامه
 وجهاً لوجه . . . وعيناً لعين . . . ووجدتني أضغ كل ما أحمل بين يدي . . .
 من أوراق فوق مكتبه . . . حتى علبة الثقاب وضعتها هي الأخرى أمامه . . .
 و . . . وانصرفت

أنا لا أستطيع بعد - هذه اللحظة - ... أن أدون شيئاً مفيداً ...
 إن كل الذى حدث بعد ذلك لا أعرف عنه شيئاً ... لا أعرف حتى
 أين ذهبت ... أو ماذا رأيت ... أو سمعت ... لقد كانت
 الرؤية غير واضحة أمام عيني ... كنت أرى الأشياء ... ولا أستطيع
 أن أتبينها ... أو أرى الوجوه ... فلا أستطيع أن أتعرف عليها ...
 وكذلك أيضاً كانت أذنى ... كنت لا أسمع شيئاً ... كانت
 الأصوات جميعاً تأتي عند أذنى ... ثم تتضاءل ... تتلاشى ...
 تلويب ... تصير إلى عدم ... كانت مثل المربيات تماماً ...
 يختلط بعضها ببعض فى عيني ... بحيث إننى كنت أجهد نفسى
 كثيراً لأميز بينها ... ومنع ذلك لا أذكر أننى ميزت شيئاً ... إن
 كل ما كانت تقع عيني عليه ... خيالات فقط ... وكل ما
 كانت تسمع أذنى إليه صدى فقط
 غرفة صغيرة .. صغيرة جداً .. كل ما فيها جامد .. صامت ..
 مطبق الصمت .. لا تسمع فيها لغواً .. حركة .. نأفة .. كل ما يأتى
 إلى أذنك فيها شيء .. شيء غريب .. لا هو يشبه الصوت .. ولا هو



يشبه الصمت .. إنه أقرب ما يكون إلى الأنفاس .. الأنفاس المحترقة ..
الأنفاس التي تكاد تتلاشى قبل أن تبلغ الشفاه .. تحترق قبل أن تخرج
إلى الهواء .. ولكن أنفاس من هذه ؟ .. كنت لا أعرف .. كانت
أذنى لا تميز ..

وكأذنى تماماً .. كانت أيضاً عيناى .. ولكنهما كانتا أقدر
إلى حد ما على التمييز .. كنت أنظر إلى الغرفة فإذا بكل شيء
فيها أبيض .. ناصع البياض .. الجدار .. النافذة .. الباب الصغير ..
المشجب .. المائدة .. الإبريق الذى فوقها .. كوبة الماء التى عليها ..
السرير الذى أنام فوقه .. الثوب الذى أرتديه .. الغطاء الذى فوق رأسى ..
وجه الفتاة التى تجلس إلى جوارى .. الثوب الذى ترتديه .. الغطاء
المنشئ الذى فوق رأسها .. الحذاء الذى فى قدمها .. كل هذا كان
أبيض .. ناصع البياض .. لهذا فقط استطعت أن أميز .. استطعت
أن أعرف .. أعرف أنها غرفة فى مستشفى ..

* * *

ضربات قلب .. محصى .. تعد .. درجات حرارة تعلق .. تزداد ..
ترتفع .. تنخفض .. تقاس أولاً بأول .. درجة درجة .. ساعة ساعة ..
محصى .. تثبت على الورق .. خط أسود يرتفع إذا سجلت مرة ..
خط أسود ينخفض إذا سجلت ثانية .. أكياس من الثلج توضع ..
تدوب .. يجمد غيرها .. تدوب أيضاً .. يجمد غيرها .. تدوب كذلك ..

إبر كأياب الأفاعى تغرس فى لحمى .. شراب كأنه العلقم يصب بين
 شفتى .. يغص به حلقى .. تتجمد مرارته فوق لسانى .. فوق شفتى
 لهذا فقط عرفت .. عرفت .. عرفت أننى مريض .

• • •

رجع لممس .. صدى لصوت .. زفرات لآلم .. أنفاس لحزن ..
 همسات لدموع .. مهمة لشفاه .. وشوشة لصمت .. تأتى إلى أذنى من
 مكان بعيد .. بعيد جداً .. ومع ذلك تذهب .. تذوب .. تتلاشى ..
 لا يبقى منها فى أذنى سوى خيالات .. خيالات للألفاظ .. أشباح
 للكلمات .. صور لمعان .. هبوط شديد فى القلب .. انهيال زائد فى
 الأعصاب .. فقدان كبير فى الذاكرة .. لهذا فقط عرفت .. عرفت
 بماذا أنا مريض ..

• • •

طبيب يخرج .. طبيب يدخل .. طبيب آخر يجرى .. ممرضة تنهض
 .. ممرضة أخرى تجلس .. شبح يظهر من بعيد .. يقترب .. يقترب
 .. يقترب .. ثم يختفى فجأة .. يتلاشى .. لا يرى له أثر .. ثم يظهر
 فجأة .. يرجع .. يعود .. يقف أمامى فى ثياب سوداء .. هو فقط
 الذى يرتدى السواد .. يقترب منى .. ينظر إلى .. يخلق فى وجهى ..
 ينفرس فى عيني .. يصمت .. يصمت طويلاً .. لا ينبس .. لا يطوف
 .. لا تختلج له عين .. لا تتحرك له شفاه .. إنه تمثال .. تمثال من

حجر .. تمثال من صخر .. ولكنه يبكى .. تسفك عيناه الدموع ..
دموع .. دموع كأنها النار .. تتساقط نقاطها على يدي .. على وجهي
.. على صدرى .. ترى لماذا هو يبكى ؟ .. ترى من هو هذا الشبح ؟ ..
من هو هذا الشخص الواقف أمامي .. يبكى .. يتعجب .. تسفح
عيناه كل هذه الدموع .. من هو ؟ .. ما صلته بي .. ترى هل
رأيتك قبل الآن ؟ .. ومتى رأيته ؟ .. وأين وقعت عينى عليه لأول مرة ؟ ..
ولماذا هو يبكى كل هذا البكاء ؟ .. لماذا هو يرتدى السواد ؟ ..
هل هو الوحيد الذى يرتديه ؟ .. هل هو يعلم أننى سأموت ؟ .. أو
أن أحداً تربطه بي صلة قد مات ؟ .. وما صلته بي .. بي أنا ..
.. أجل أنا .. أنا من ؟ كنت لا أدري ..

ولما كان يجهدنى التفكير كنت أعود فأنظر إليه ثانية .. ولكنى أراه
قد غاب .. ذهب .. تلاشى .. صار إلى غدم .. إلى خيال .. حتى هذا
الخيال كان غير واضح لعيني .. كان يبدو لى أشبه ما يكون بفتاة أعرفها
.. تربطنى بها صلة .. صلة كبيرة .. عزيزة .. جميلة .. حلوة ..
كنت أحبها ذات يوم .. وكانت هى أيضاً تحبني ذات يوم .. ولكن
من هى هذه الفتاة التى كنت أحبها كل هذا الحب ؟ .. ما اسمها ؟
ملى أسرتها ؟ .. من أبوها ؟ .. من أمها ؟ .. كيف ولدت ؟ ..

كيف نشأت ؟ .. كيف عاشت ؟ .. كيف تعرفت عليها ؟ .. كنت
لا أعرف .. أجل ، كنت لا أعرف ..

هكذا كنت .. وهكذا ظلت .. ظلت طويلاً .. حتى بعد أن
شفيت وأذنوا لي بالخروج .. كل الذي كنت أراه خيالات .. خيالات
قط .. وكل الذي كنت أسمع إليه صدى .. صدى .. صدى
قط .. حتى الذي حدث لي أخيراً .. كان هو الآخر صدى .. صدى
لا أذكر منه شيئاً .. ولا أستطيع حتى اليوم أن أميز منه شيئاً .. كل
الذي أذكره .. أميزه .. هو هذه الخيالات .. هذه الخيالات التي
ما زالت تروح وتجيء أمامي إلى اليوم ..

قاعة رحية .. رجة جداً .. فسيحة إلى حد كبير .. غاصة
بالناس .. جمع غفير من البشر .. من الوجوه .. لأنني أعرف أكثر
هذه الوجوه .. أعرف أكثر هؤلاء الناس .. قضاة .. مستشارون ..
رؤساء محاكم .. أعضاء نيابة .. وزراء .. رجال قانون .. كل هؤلاء
يحيطون بي .. يلتفون من حولي .. يشنون عليّ .. نظراتهم تتعلق
بي .. يذكرون اسمي .. يوجهون عبارات إلى .. همسات ..
همهمات .. نظرات .. شخص كبير .. مهيب .. يتقدم إلى ..
إلى أنا .. يده تمتد إلى .. إلى صدرى .. تضع عليه شيئاً .. تقلدني
وساماً .. عاصفة من التصفيق .. تنطلق .. تسوى .. تعريدني

سمى .. تقصف كالرعد فى أذنى .. تنال كالجحارة على وجهى ..
 تدق رأسى بلا رحمة .. تمزق صدرى .. شىء فى قلبى يتحرك ..
 يضطرب .. يخاف .. يرتعد .. يرتجف .. يتمزق .. دموع فى عيني
 .. تتجمع .. تسيل .. تنفطر .. تنهر .. تنساب على وجهى ..
 تغمر شفتى .. تغرق صدرى .. صورة بغیضة .. بغیضة جداً تلوح
 لعيني من بعيد .. من بعيد جداً .. إنها تقترب .. إنها تدنو .. تقف
 أمامى .. تراقص فى عيني .. هى فقط التى أراها واضحة .. واضحة
 جداً .. راية سوداء .. ترتفع فوق أحد السجون .. ترتفع فى السماء ..
 ترتفع أمام عيني .. أخاف .. أغمض عيني .. أغمضهما جيداً ..
 ولكنها مازالت ترتفع .. ترفرف أمام عيني .. مازلت أراها .. إنها لا
 تريد أن تبعد .. لماذا هى لا تريد أن تبعد ؟ .. لا تريد أن تغيب عن
 عيني ؟ .. الشبح الأسود يظهر فجأة .. يظهر ثانية .. يلوح لعيني
 من بعيد .. إننى أراه .. أراه جيداً .. إنه يقترب .. يدنو .. يتجه
 إلى .. إنه أيضاً يتجه إلى مكان أتجه أنا إليه .. ربوة صغيرة فى مكان
 قفر .. الـراية السوداء تعلو .. تعلو .. ترفرف فوق رأسينا .. ها هى ذى
 الربوة بيننا .. إنها قبر .. قبر فى مكان قفر .. قبر ترتفع فوقه تماماً
 الـراية السوداء .. ها هوذا الشبح يمد يديه إلى .. يلمسنى .. يرتدى فوق
 صدرى .. يهتف بصوت كالرعد ولكنى لا أسمع شيئاً .. لا أميز
 شيئاً .. إنها كلمة واحدة .. واحدة فقط .. هى التى ميزتها .. وما زلت

أميزها إلى اليوم .. أختي .. وكلمة أخرى .. كلمة واحدة أيضاً .. كلمة
تماثلها تماماً .. أختي .. هذه الكلمة هي التي مازلت أميزها أيضاً ..
ولكن من أين يجرى هذا الصوت .. أهو من القبر ؟ .. أهو من
الأعماق ؟ كنت لا أدري ..

• • •

.. وهذه الأخت .. أخت من ؟ .. وهذا الأخ .. أخو من ؟ ..
وهذه الراية السوداء التي مازالت ترفرف أمام عيني .. ما شأنها ؟ ..
وهذا القبر .. هذا القبر الذي في هذا المكان القفر .. قبر من ؟ ..
أهو قبر أحد أعرفه ؟ .. أحبه ؟ .. ولكن من هو هذا الذي أحبه كل
هذا الحب .. وما زلت أحبه .. كل هذا الحب ؟ .. رباه ! لأنني ..
لأنني .. أسالك ..

.. من هو هذا الرجل ؟

.. من هو هذا الشيخ ؟

.. من هي هذه الأخت ؟

.. من هو هذا الأخ ؟

.. وهذه الراية السوداء ما شأنها ؟ ..

رباه .. رباه .. رباه ..

لأنني أسالك .. أجل لأنني أسالك !

منطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٩٦٢

I.S.B.N 977 - 01 - 6186 - 1



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
للشباب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الجلم
يخطو ويكبر ويتعاضم ومازالت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والضئ المبدع
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



٢٠٠ قرش

مكتبة الأسرة
١٩٩٩
مهرجان القراءة للجميع